روايات الهلال

د. نعيم عطية

الملاك



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة

دار الهلال

العدد ٤٧٦ اغسطس

١٩٨٨ محرم ١٤٠٩ هـ

NO. 476 AU. 1988

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق س ـ لبنان ٣٥٠ ليرة ـ الاردن ٥٠٠ فلس ـ الكويت ٤٠٠ فلس ـ العراق ١٦٠٠ فلس ـ السعودية ٧ ريالات ـ السودان ٢٥٠ ق سودانيا ـ البحرين ١٢٠٠ فلس ـ الدوحة ٨ ريالات ـ دبى ٨ دراهم ـ ابوظبى ٨ دراهم ـ مسقط ٧٥٠ بيسه ـ تونس ١٦٥٠ مليم ـ المغرب ١٥٠٠ فرنك ـ غزة والضفة ٧٥ سنتا ـ داكار ١٠٠٠ فرنك ـ اليمن الشمالية ١٣ ريالا ـ عدن ١٤٤ سنتا ـ الصومال ١٣٠ بنى ـ لاجوس ١٢٠ بنى ـ ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ـ لندن ١٥٠ سنتا ـ اثينا ٢٠٠ دراخمه ـ كندا ٥٠٠ سنت ـ البرازيل ٦٠٠ سنت ـ استراليا ٦٠٠ سنت

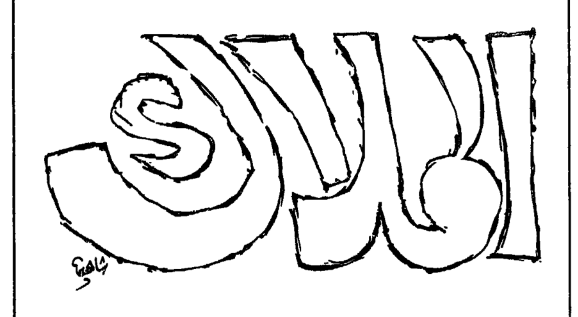
للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة،
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة :
سـميـحـة حـسـنـين



تأليف

دكتور: نعيم عطيـــة

دار الهـــلال

الفصـــــل الأول

الشعر الأسود الغزير على الوسادة

ـ ١ ـ

عيناها الواسعتان السوداوان فى وجه أسمر مستدير تومضان ذكاء ، فاذا ابتسمت شعت منهما طيبة صبيانية تشعر بالامان ، على أن حيوية جسدها ماتلبث أن تلفك فى دوامة من الحركات والايماءات لا يستقر لها قرار . تشدك اليها ، وتدعوك الى التعلق بها والمضى معها ، ولو اصابك اللهاث من اجل اللحاق بها .

قال له الاستاذ شفيق عندما دخلت :

ـ هذه ابنتى الهام ، يسعدنى ان أقدمها اليك .

ثم التفت أبوها اليها فخورا . وقبل أن يعرفها بضيفه ، تقدمت اليه ، ومدت يدها تصافحه بحرارة قائلة :

ـ أما أنا فلست بحاجة الى أن تعرفنى بالدكتور ماجد حلمى ، فمن لايعرف الطبيب الشاب الذى يكتب أجمل الكلمـــات فى الفن والادب ؟

أحس الدكتور ماجد فى قرارة نفسه بالرضاء لاطراء هــــذه الانسة الحسناء . أردفت تداعبه بدلال وبساطة رفعت بينهما الكلفة سريعا :

ـ لكن دعنى أسألك ، يادكتور ، ايهما تحب اكثر : الطب أم الفن ؟

أحس الدكتور ماجد بمعنوياته تصعد بداخله ، ثبت أنظاره فى عينيها . واجاب مبتسما :

ـ أحب الجمال .

راحت رأس الاستاذ شفيق تجول بين ابنته وصـــــديقه ، مستمتعا بكلماتهما المتبادلة فى براعة .

قالت الهام دهشة :

ـ الجمال ؟ ليست هذه اجابة !

قال ماجد واثقا :

ـ بل هي الاجابة .
سألته متحفزة :
ـ وما الجمال ، اذن ؟
تنهد ماجد ، وقال ببطء :
ـ شيء صعب ، يا آنستي !
بادرت تقول :
ـ أتعرف ماذا احب انا ؟ الحرية !
ابتسم ماجد ، وقال لها :
ـ اتفقنا اذن ، يا آنسة الهام . الجمال والحرية شيء واحد . الم تقرأى العقاد ؟
تدخل الاب ، وقال :
ـ سافرت الهام الى فرنسا صيف العام الماضي . زارت هناك المتاحف ودور الفن الكبرى .
ضحكت وقالت بمرح :
ـ وعدت بوهيمية !
واضاف أبوها يقول مازحا :
ـ من صغرك وانت عفريتة .
استدار نحو الدكتور ماجد ، وقال :
ـ ماذا افعل ؟ الهام ابنتي الوحيدة .
مالت على المكتب ، وقبلت اباها في خده قائلة :
ـ لا حرمك الله مني ، يا أعز بابا .
راق لماجد هذا المرح الذي عبرت به الهام عن مشاعرها نحو أبيها . ثم استدارت وقالت له :
ـ انه لا يرفض لي طلبا .
انجرف الدكتور ماجد في دوامة مرحها ، تخلى عن جهامته ، وقال لها مازحا :
ـ وهل يقدر ؟
نظرت اليه بمودة شديدة ، ثم التفتت الى الاستاذ شفيق ، وقالت :
ـ سامع يابابا ؟ سامع ماذا يقول احسن من يكتب عن الجمال في مجلتك ؟
اشترك الثلاثة في الضحك . لم يشعر ماجد بمثل هذه الالفة من قبل وقال الاستاذ شفيق :

ـ اللهم اجعله خيرا . منذ زمن لم اضحك ضحكا صافيا ، مثل هذا .
قالت الهام :
ـ أحبك ، يابابا ، عندما تضحك من قلبك .
ثم التفتت الى ماجد وقالت :
ـ يبدو أنك لا تضحك كثيرا يادكتور . انت جاد اكثر من اللازم . أما أنا فلا شغل لى الا الضحك . كل الهموم القى بهـا وراء ظهرى .
خيمت برهة صمت . تأملت الهام فيها الدكتور ماجد . عينان مثل قنديلين موقدين بزيت من عذابات تلوح كأطياف تعتم نظراته بسمات حزن دفين ، حاجبان طبعهما التقطيب ، تحت جبين انحفرت فيه أخاديد . والى هذا الجبين انحدر متكسرا متماوجا شعر جعد ، يزداد كثافة كلما تراجع منقلبا أعلى الاذنين . منكبان مقوسان ، ربما من فرط الانحناء على المكاتب ومناضد التشريح .
أبتسمت له الهام دون أن تنبس بكلمة . لم يدر الدكتور ماجد كيف يصد عن نفسه تلك النظرات المتفرسة فيه بشقاوة الاطفال ، فاستسلم لها وابتسم . شفتان مزمومتان يظللهما شارب أسـود كثيف ، وحتى اذا ما انفرجتا عن ابتسامة اكتسيتا بمسحة ازدراء لما حولهما . وظل الوجه الاميل الى الشحوب جهما كوجه قاض ، على وشك أن ينطق بحكم جسيم . رفع يده يصلح من خصـلات شعره الذى خطه بعض المشيب فبدا خيوطا فضية اختلطت بنسيج قطيفة خشنة . من الجرانيت قدت قسماته ، وما كانت بمقاييس الفتيات وسيمة .
قالت له الهام بلا كلفة :
ـ كنت أتصور وانا أقرأ كتاباتك ، عجوزا أكثر من ذلك .
قال الاستاذ شفيق ضاحكا من جديد :
ـ على اى حال الدكتور ماجد رجل ناضج ، وليس عصفورا طائشا مثلك .
علقت على قول أبيها قائلة :
ـ العصفور الطائش ايضا لايستغنى عن غصن يحط عليه .
دعاه الاستاذ شفيق لقضاء الامسية غدا فى بيته . وعندما بدا عليه التردد فى قبول الدعوة ، تدخلت الهام والحت عليه قائلة انه

سوف يكون هناك ضيوف آخرون ، ولن تكتمل سعادتها الا بان يكون هو فى صحبتنا .

ـ ٢ ـ

فى تمام السابعة من مساء اليوم التالى ، دق الدكتور ماجـد باب شقة الاستاذ شفيق قدرى رئيس تحرير مجلة « المستقبل » بشارع عائشة التيمورية بجاردن سيتى .

وفدت الى أسماع ماجد من الداخل نغمات موسـيقى غريبة صاخبة . وهى، فى الواقع ليست غريبة بقدر ماهى افريقية الاصل . ثم التقطت اذنه صوت الهام الدافىء يقترب . فتحت الباب . ورحبت به ، وقد بدت فى أجمل زينة ، سابحة فى أضواء الثريات المدلاة من السقف ، تدفقت لهبا عسجديا على جيدها السامق ، وكتفيهـا العاريين .

أبدت اعجابها الشديد بباقة الزهور التى قدمها الدكتور ماجد .

قال لها :

ــ انتقيت لك زهورا برية .

ابتسمت له بمودة وقالت :

ــ تعرفت سريعا على ذوقى .

ــ من السهل أن يستنتج المرء ان التى تحب الحرية تفضـل الزهور البرية .

قالت له :

ــ لحظة واحدة . سأذهب لاضعها فى اناء بغرفتى الى جوار سريرى ؛ حتى أنعم بها فى الليل وحدى .

بعد قليل عادت ، يسبقها عطرها . أرته ثوبها البرتقالى الفاتح اللون وسالته :

ــ هل يروقك ؟ ارتديته خصيصا من اجلك .

كان اللون جريئا . صعب المراس ، لكنه يتنـاغم وبشرتها السـمراء .

قالت له :

ــ أحيانا اقول لنفسى تجرى فى عروقى دماء زنجية منـذ صغرى ، أحب الالوان الزاعقة ، والموسيقى الصاخبة .

ثم اضافت :

ــ والعواطف الصارخة ايضا !

ضغطت على ذراعه وقالت :
ــ ذكرني ان اريك دفتر صوري . ستراني ايام الكلية فى دور ميديا .
أردفت تقول :
ــ لى وجه طفولى ، لكنني أجد متعة فى اداء ادوار الشر .
جاء والدها ، ودعاه الى غرفة الاستقبال الكبيرة ؛ ليجلس مع ضيوفه ، وكانوا خليطا من رجال الاقتصاد والسياسة والنجوم اللامعة فى أكثر من ميدان ، لكن الهام جذبته ، وقالت :
ــ دعه لى هذا المساء يا أبى . انه سيجلس مع اصدقائى انا .
قادته عبر دهليز جانبى الى غرفة داخلية ؛ قالت له عنهما ضاحكة انها « الصومعة » تجمع فيها عدد من الشبان والشابات .
وهناك تعرف برامز سليم مدير مكتب الوزير وبأخته كاميليا .
كانت ذات جمال مستبد ، لا يبعث على الارتياح ، ويدعو اما الى الهرب منه أو الاستسلام له . صبغت شعرها بلون ذهبى وارتدت ثوبا فضى اللون يتناغم مع بشرتها الثلجية . بعينيهما الزرقاوين القاسيتين قليل من الجحوظ لا يقلبها دميمة ، لكنه يضفى عليهما مسحة من الشراسة وقوة الشكيمة . يزيد من هذه القوة فمها الناتىء نتوءا خفيفا وانفها الاقنى . اما أخوها رامز فكان طويل القامة ، أميل الى الترهل . عنقه مدكوك وراسه يدب اليه صلع خفيف . عيناه مراوغتان بلون عينى أخته . هادىء الصوت لاذع النكتة . يروق للفتيات من حوله . ويخفت صوته ليحكى نوادر وفضائح ، تكسبه فى أنظارهن أهمية ، يعطى الانطباع بأنه يعرف اكثر بكثير مما يثرثر به . حيا ماجد بأن مد يده دون ان يلتفت اليه . كان منشغلاً بأن يحكى تفاصيل برع فى صبغها بألوان وظلال مثيرة .

جاء الخادم بعد قليل الى الصومعة فى طلب رامز . وقال له ان الاستاذ شفيق يريده لحظة . عندما غادر الغرفة بدا جليا أنه ترك فراغا لم يكن أحد غيره بقادر أن يشغله . وعندما عاد متهللاً ألقى بنفسه فى مقعده ، الذى ظل شاغرا بغيابه ، مدد ساقيه على السجادة المزركشة الالوان ، ونفث دخان سيجارته فى أرجاء المكان الذى امتلأ بعبق التبغ وعطر الفتيات وقال « يسألوننى عن اسعار النقد وعمليات التهريب المشروعة » ثم اردف يعلق على ذلك قائلا : « على المرء فى

سذا الزمان أن يكون دائره معارف متنقلة » غمز بعينه لالهام واضاف
« والا ضاع الى الابد » .
تطرق الحديث بعد ذلك الى الفن ، وسألت كاميليا :
ـ مارأيك فى الجسد العارى ، يادكتور ؟
أجابها ماجد :
ـ لم يعد يثير اهتمام المصور الحديث اليوم . هناك انشغالات اكثر جدية .
ضحكت وقالت :
ـ أما أنا فلا يشغلنى الا الجسد العارى .
نظرت الى الهام ، وتبادلتا الضحك . لمعت فى عينى ابنة الاستاذ شفيق ومضات من المكر اضفت عليها مسحة خاصة . وانضم رامز اليهما ، وسأل اخته ساخرا :
ـ كاميليا ، ماذا يعنى فن ؟ ماذا يعنى من فضلكم ؟
ضحك الجميع ، ماعدا الناقد الشاب .
جاء رب البيت ، جذب الدكتور ماجد من ذراعه ، واخذه الى ضيوفه . وقال مازحا :
ـ جئت لانقذك من صحبة المتوحشين هذه .
وعندما خرج من الصومعة ، قالت كاميليا :
ـ يبدو أن صديقك الجديد ياالهام « دقة قديمة » .
وضحك الجميع .

ـ ٣ ـ

انشغل الدكتور ماجد فى عمله بمستشفى أبو الريش بضعة أيام . وفى مساء يوم الخميس ذهب الى الاستاذ شفيق ليشكره على دعوته ، وليقدم له مقالته الجديدة عن « اللوحة والحياة » وقد تبين بعد أن كتبها أنها تضمنت ردا على كاميليا .
أشار الى لوحات راغب عياد بفلاحيه الشغالين فى الحقول ، ولوحات تحية حليم بنوبياتها ذوات النبل الوقور ، ولوحات حامد عويس بمضامينها النضالية . ووضع فى مقدمة كل الاعمال تمثال محمود مختار الجرانيتى « رياح الخماسين » فلاحة تضم الى صدرها عباءتها الممتلئة برياح الخماسين ، وتمضى تشق طريقها بخطى راسخة غير عابئة بصد الريح ، وبما تذروه فى وجهها من رمال . الانسان

كله اختصر وتجسم فى هذه الفلاحة الماضية بعزم الى الامام .
وجد الهام فى مكتب ابيها . حيته ، وبادرته بعتاب رقيق :
ـ أهكذا يفعل الصحاب ؟ يمضى اسبوع بأسره ولا كلمة منك ولا زيارة ؟
قال الاستاذ شفيق مداعبا :
ـ لابد ان صحبتكم لم ترق له تلك الليلة .
دافع الدكتور ماجد عن نفسه بكثرة العمل ولكن « انتم فى البال على الدوام » .
سألته الهام ، مختبرة نواياه :
ـ هل نحن فى البال حقا ، يادكتور ؟
نكس رأسه قائلا :
ـ ليس مجاملة منى ان اقول ذلك وأؤكده .
ابتدرته الهام قائلة :
ـ اذن ، تعال معنا . غدا فى المساء . سنذهب الى صحارى سيتى حيث استأجر لنا رامز شاليها لقضاء الامسية .
التفت ماجد الى الاستاذ شفيق يسأله بنظرة لائمة :
ـ هل سيذهب بابا معكم ؟
سارع الاستاذ شفيق يدافع عن نفسه :
ـ وددت ان أذهب لكن لاتنسى ان الاحد موعد صدور المجلة . وعلى أن الازم مكتبى هذين اليومين ليل نهار كى أتأكد من أن كل شىء يسير فى المطبعة على مايرام .
ابتسم ، وقال له راجيا :
ـ من فضلك ، اذهب انت معهم نيابة عنى .

ـ ٤ ـ

جلسوا جميعا فى سيارة رامز المنطلقة كالسهم . الى جوار ماجد بالمقعد الخلفى جلست كاميليا عن يمينه ، ومن بعدها صديق لها نحيل شاحب لايكف عن التدخين . لم تكن تعيره اكتراثا كبيرا . وبدا واضحا انصرافها عنه وانشغالها بنفسها . وقد عرف ماجد عن برهام ـ وهو اسم الصديق ـ انه من أسرة ثرية تعمل بالتوكيلات البحرية . مغرم بالشعر ومنصرف الى قرضه . يخالط الفنانين والادباء فى مقاهيهم

واوساطهم ، معتقدا انه سيصبح اسما لامعا فى عالمهم . كف عن متابعة دراسته بكلية التجارة ، وانصرف الى هوايته . يحب شوقى ولا يستسيغ حافظ . ولا يعرف الا كتابة الشعر المرسل . وقد وجد على مايبدو فى كاميليا ملهمة ، تلهم من كان مثله سلس القياد ثريا ، قصائد عذاب ومتعة .

أما الهام فجلست مع صديقة لرامز بالمقعد الامامى . لكنها كانت تستدير الى الخلف كثيرا وتؤثر ماجدا الصامت بابتسامات آسرة . ولا تلبث أن تلتفت الى رامز ، وتضحك مع الجميع على النكات التى يطلقها . وتميل من فرط الضحك فتضع راسها على كتفه ، غير عابئة بميرفت صديقته الجالسة الى جوارها ، والتى كانت تظهر عدم اكتراثها بذلك ، وتطيل النظر من النافذة . كان رامز كالمعتاد المضحك الذكي ومحور اهتمام الشلة . لاحظ ماجد أن رامز ينظر اليه فى مرآة السيارة نظرات ركنية كلما مالت عليه الهام . ربما ليتبين مبلغ غيظه ، أو ربما أيضا كى يزنه ويسبر اغواره . وعلى الرغم من أن تعليقاته لم تكن تروق لماجد ، لما لمسه فيها من تجريح متعمد لكل من تعرضت له فقد وجدنفسه مضطرا الى أن يجارى الاخرين فيما يعتبرونه مرحا .

صعدت السيارة الانيقة هضبة الاهرام ثم راحت تتعرج على ضوء فشافاتها مع الدروب الوعرة الملتوية فى طريقها الى صحارى سيتى . من حولهم بدت كثبان الرمال الصاعدة الهابطة مثل أثداء وارداف نساء غامضات مجهولات افترشن الصحراء المترامية .

التفتت كاميليا الى ماجد وقالت متوددة :

ـ ارجو الا تكون قد أسأت فهمى عندما كلمتك عن الجسد العارى .

ابتسم لها وقال :

ـ كلا . لكل فنان فى النهاية أن يختار موضوعه .

قالت :

ـ يصلح الجسد العارى تكئة لمضامين مختلفة . الطبيعة مثلا يمكن أن يعبر عنها الجسد العارى .

نظرا معا من نافذة السيارة ثم اضافت :

ـ والمضامين الاجتماعية أيضا .

صدق ماجد على رايها :

ـ أجل ، فعلى الجسد الانسانى ينطبع كثير من الممارسات الاجتماعية .

فى المرآة ارتسمت نظرات رامز ، راضية بهذا التلاقى الذى بدا يحدث بين أخته والوافد الجديد ، واعتبر ذلك مكسبا يمكن ان ينمى مستقبلا ، اذا ما اقتضت المصلحة ذلك .

وخلصت كاميليا الى ان قالت :

ـ اذن ، لا تظلمنى . تعال الى مرسمى يوما وشاهد اعمالى . فلم أرق بعد الى أن أكون رسامة معارض . لا أنا ولا الهام .

قالت الهام مستخفة :

ـ انا لا أرسم كى أعرض . ثم اننى كففت عن الرسم . اصبحت انظارى مسلطة على السينما .

قال لها رامز :

ـ على فكرة ، كلمت فهيم النادى المنتج السـينمائى كى يسند اليك دورا فى أحد افلامه .

سألت الهام مهللة :

ـ وماذا قالَ ؟

ـ سوف ينظر فى الامر ، وسيخطرنى .

ثم التفت الى صديقته ميرفت ، وقال :

ـ اتعرفين من يكون فهيم النادى ؟ انه خالُ ميرفت .

ثم قال بلهجة استعراضية :

ـ اسمحوا لى اذن أن أعرفكم بالانسة ميرفت . صفقوا أولا للانسة ميرفت .

ضجت السيارة بالتصفيق والتهليل . ثم مضى يقول باللهجة ذاتهـا :

ـ الانسة ميرفت ملكة الاناقة بالجامعة الامريكية . ابنة أغنى تجار وكالة البلح .

ثروته تبلغ العشرة ملايين وبطلة التنس بنادى الليدو ، أليس كذلك ، ياميرفت ؟

بدا الارتباك على الفتاة . احمرت وجنتاها المتلئتان . نظرت اليه برضاء مختلط بدهشة ، وكأنها تقول « لكنك لم تقلْ لهـم ما بيننا »

قالت الهام بمرح :

ــ فلنناديها اذن المليونيرة ميرفت !

التفت رامز الى صديقته ، وقال :

ــ بل الجميلة ميرفت .

قالت كاميليا لأخيها :

ــ انظر الى الطريق المتعرج امامك . واذا كانت اعمارنا لاتعنيك، فعلى الاقل حتى لاتصبح صديقتك .. المرحومة ميرفت !

ضحك الجميع على تعليق كاميليا رغم ما انطوى عليه من قسوة .

تجاوزت السيارة الحمراء ملهى صحارى سيتى الليلى ، وقد لمعت فى ظلام الصحراء انواره . ثم دارت حول عدد من الشاليهات الخشبية . وتوقفت أمام شاليه صغير ذى غرفتين ومطبخ وشرفة رحيبة . تقدم الخفير وفتح لهم الباب بالمفتاح الذى يحمله ، وأخرج من احدى الغرفتين كراسى وضعها بالشرفة . وفتح رامز حقيبة سيارته وأخرج ما جلبه من مأكولات ومشروبات ، وطلب من الفتيات ان يتولين اعداد المائدة وتجهيز الاطعمة الخفيفة .

بنشاط خطرت الهام بالبلوزة البنفسجية والبنطلون الجينز حاملة برميل الماء البلاستيك ذا الصنبور الصغير فى يد ، وسلة فيها بعض الخضراوات فى اليد الاخرى . دخلت بما تحمله الى المطبخ، وما لبثت أن نادت ماجد ، وقالت له :

ــ احضر الاطباق . وتعال جهز السلطة معى .

عندما دخل ، سألته فى سعادة :

ــ مبسوط ؟.

أجاب ، وقد انفرجت أساريره :

ــ مادمت معك .

خفضت نظراتها ، وقالت :

ــ لا تبتعد عنى هذه الليلة .

فى الهواء الطلق بسطت المائدة . وعلى ضوء القمر ونغمات البيك أب ، اكلوا وشربوا وضحكوا ورقصوا ودارت بعض الرءوس وغنوا . وتحول هدوء المكان الى صخب تحسده عليه علب الليل والاندية المصرية .

اجتهد ماجد فى أن يندمج فى الشلة ، ويجاريها فى صخبها وهزلها ويرضى ولو على مضض عن مجونها . رفع رامز كأسه الى شفتيه ، وقال له :

ـ ياذكتور ، اذا كنت فى روما فافعل مايفعله اهل روما .
وبدلا من أن يتمسك ماجد بنزعته التقويمية قرر أن يعيش التجربة . فهى استثناء فى حياته ، وليذق طعمها ، وبعد ذلك فليعد الى الاصل ، وسيعود مزودا بمعرفة جديدة وخبرة جديدة . وبدلا من أن يقول لنفسه « هذا عيب ، هذا لا يليق ، هذا حرام » اندمج مع هذه القبيلة الوثنية التى القت به اليها المقادير .
انسلخ رامز عن الجماعة واخذ صديقته الجديدة فى نزهة على الاقدام . وسارا متشابكى الايدى يتحادثان ويتضاحكان . أوغلا فى الصحراء بعيدا حتى بديا كنقطتين صغيرتين فى مساحة شاسعة خالية .
التفتت الهام الى كاميليا ، وقالت :
ـ هيا ، نذهب نحن أيضا فى نزهة مثلهما .
اجابتها كاميليا بانه ليست لديها رغبة فى ذلك .
ادار برهام الراديو على موسيقى كلاسيكية رقيقة . وجذب كرسيه ، وجلس بالقرب من كاميليا فى الشرفة الخشبية . لزما الصمت . وبدا ضئيلا منطفئا الى جوارها .
نهضت الهام ، اصطحبت ماجدا ، ورآحا يسيران فى الاتجاه الاخر مبتعدين عن الشاليه ، يثرثران ببال خلى ، متحررين من كل القيود . انفكت العقدة عن لسان ماجد . لم ينبس طوال الامسية الا بكلمات قليلة . لم يجد فى ذلك الجو الذى احس بانه غريب عنه ما يقوله ، اما الان فقد راحت كلماته تتدفق بحرارة ، وانجذبت الهام اليه ، وراق لها مايقوله . راح يحدثها عن نموذج المراة الذى يحبه ، ويرسم لها هذا النموذج . مضت تضحك بخبث ورضاء ، وهو يستعير أوصافها لهذا النموذج اتكأت على ذراعه وهمست :
ـ وددت أن أضيع معك هنا . ولا يجدنا أحد .
رفعت اليه وجهها .. مالت على صدره أكثر . نظرت اليه بعينين متالقتين . توردت وجنتاها من تأثير هذه الامسية الدافئة ، تحت سماء صافية ، مرصعة بالنجوم . اختلط بانفاسه عطرها ورائحة الشراب من فمها . أكان الامر حلما ؟ اكان سرابا ؟ أكان حقيقة ؟ كل هذه الفتنة تثيرها الصحراء فى الدماء الفتية ؟ أحس ماجد بنفسه يمتطى جوادا عربيا يركض باقصى سرعة . يرقى كثبان الرمال ، والى النجوم يصعد . طوق خصرها ، وانحنى يقبلها . قالت

له « حاسبنب » التفت وراءه . كانت الصحراء قد انحدرت بهما ، فما عاد احد من وراء التل يراهما . اقصنت عنه وجهها . استقرت على جيدها قبلته . شدد من حولها ذراعه . ندت منها آهة صغيرة « آى ! » وفى دلال راوغته . استقرت قبلته هذه المرة على خدها . برفق دفعته فى صدره ذراعاها ، وقالت له « كلا ، كلا ، ابتعد » اختل توازنهما . . سقطا على الرمال . تلوث مثل أفعى . أفلتت منه . ثم نهضت تجرى عائدة الى الشلة . تطاير شعرها فى الهواء جرى وراءها قائلا :

ــ انتظرى .

ــ لابد أن رامز عاد لتوه .

سقطت على الرمال . كاد يلحق بها . نهضت . جرت . لم يطلها . مضت تقول له ضاحكة وهى تجرى :

ــ كنت ستفقد صوابك . وترتكب حماقة . .

مثل غزال فى اعقابه صياد ، كانت تجرى ، دون أن تلتفت اليه قالت :

ــ كيف كنت سأغتفرها لك ؟

هتف بها لاهثا :

ــ أريد أن أقول لك شيئا .

قالت مرة اخرى :

ــ يجب أن تكون اكثر حرصا .

ظهر الشاليه . كاميليا وبرهام جالسان . يبعد كل منهما عن الاخر أميالا ، ويبدو ان تلك الانثى الحرون اذاقت فتاها من العذاب كئوسا . كان ينفث فى الهواء دخان سيجارته بعصبية . يمسك بيده قلما ، وعلى ورقة صغيرة يخط سطورا .

باندفاع ، القت الهام جسمها على المقعد الخـالى ، وراحت تلهث . لحق بها ماجد ، وجلس على الكرسى المقابل .

قالت له مبتسمة :

ــ كم كانت ممتعة هذه الليلة ، حقا !

بصوت عال ، قرأ برهام ماكتبه « عدنا آخر النهار من رحلتنا متعبين ، وقد جلبنا هذه الحفنة من كلام « مزق الورقة اربا اربا . ونثرها فى الهواء ، فراحت تتطاير مبتعـدة فى ظلمة التيه ، لتلتقى برامز وميرفت قادمين من الاتجاه الاخر .

أقيم « المعرض الكبير » هذا العام بقاعات قصر المناسترلى « مائة » من العارضين وثلاثمائة من اللوحات والتماثيل . فى مساء يوم الافتتاح ازدحمت القاعات بالزوار . لمحها ماجد من بعيد مع لفيف من الشبان ، لا يشاهدون الاعمال بقدر ما انكبوا على الضحك وتبادل النكات . كانت الهام تتكىء على ذراع احدهم . وتنفث فى وجهه دخان سيجارتها مداعبة . رات ماجدا . تجاهلته ، وادارت له ظهرها . استدار بدوره ، وراح يتفحص اللوحات . كان الجو حارا . استغرقته الاعمال . كثير منها على مستوى جيد من حيث المضامين واساليب الاداء . انفرد « التجريديون » بجناح خاص ، وصدروه بلوحة لرائدهم الكبير رمسيس يونان .

لا يحب ماجد حفلات الافتتاح ، فان زحام المتفرجين يحرمه من الاختلاء باللوحات ، وتأملها بوله عن كثب . استدار . لمحها . توقف امامها وانحنى يقرأ البطاقة الصغيرة التى كتبت تحتها « أجيه » كان اسمها . أجيه فى اللغة القبطية القديمة تعنى « قديسة » ثم رفع عينيه الى الصخب البادى فى جانب من اللوحة فى رشاقة كانت تمتطى جوادا . رسمها المصور مزينة ، ترفل فى الدمقس والحرير . حول جيدها وذراعيها من الذهب واللالىء قلائد وأساور تخطف الابصار ببريقها . قدماها العاريتان الصغيرتان مزدانتان بخلخالين تتدلى منهما أحجار كريمة . من ورائها صف طويل من الوصيفات يرفلن بدورهن فى أردية غالية ، كانت « الغانية » فى طريقها الى « المسرح الملكى » لتقدم مسرحيتها الجديدة نشرت فى الهواء من حولها شذى المسك والعطور الفواحة ، وحين رآها البعض راكبة هكذا بلا احتشام ، عارية الراس والكتفين ، تأوهوا ، وحولوا عنها رءوسهم ؛ كما عن خطية عظيمة مخزية . اما ماجد فقد تعمد أن يثبت أنظاره عليها ، وظلت عيناه تلاحقانها . ثم قال لنفسه متمتما « سرنى حقا جمالها » .

دس يديه فى جيبه ، ووقف سارحا يفكر . ما الذى يقصد سمير تادرس بلوحته « أجيه » ؟ يسمع الى جواره من يقول له بصوت وديع صلد ، كصوت غدير شق مجراه فى صخر الزمن .

ـ نحن الذين نحب الجمال الرفيع لا نهتم ، ولا نحرص على أن ننقى من الوسخ نفوسنا الدعية ، ونتركها فى نتانتها تلغ .

التفت الى الشاب الاسمر النحيل ذى الشعر المجعد على جبين لامع عريض . أبتسم لسمير تادرس الذى مضى يشرح له لوحته مشيرا الى الفانية التى راحت تخطر على ظهر جوادها الاشهب :

ـ اما هذه المراة ، فلنا أن نتصور كم من الساعات قضتها فى مخدعها تستحم وتتجمل ، وقد تركز ذهنها كله على خشبة المسرح الذى ستصعد فى المساء اليه ، حتى لا تشوب زينتها ومفاتن جسمها وملبسها شائبة أو عيب ، كى تضحى متعة لعيون الرجال التافهين الذين سيحضرون اداءها ساعة او أكثر بقليل ثم يختفون .

صمت الفنان برهة ، امضاها ماجد فى مزيد من التأمل للوحة . لمس سمير تادرس ذراع صديقه المتفرج ، وقال له مشيرا الى لوحة اخرى مجاورة :

ـ أن مصير « غانية الاسكندرية اللعوب » لم يتوقف عند الجواهر والحرير ، ياسيدى الدكتور ، فبعد الخطيئة تأتى التوبة .

انحنى ماجد يقرأ عنوان اللوحة : « يسبقونكم الى الملكوت » دقق فى التفاصيل : قلاية ، جسد صغير ، جرد من العباءة والتونية . نحل العود وضمر ، وسرت التجاعيد وغمرت القسمات ، لكن السمات الاساسية مازالت تنبىء عن الشخصية المسجاة على الفراش . العيون من حولها ارتسمت فيها الدهشة والورع ، اذ اكتشف عند دهان الجسد بالاطياب أن الجسد لامراة . أفراد الشعب جاءوا بقناديل وتسابيح وشموع ، يودعون آجية . رفع ماجد نظره الى الفنان مستفسرا ، فأوضح قائلا :

ـ كانت زانية وعرفت التوبة ، فاندست فى ثوب فضفاض أسود ، يكسو جسمها ، من قمة الراس الى أخمص القدم ، وامضت بقية عمرها بين جدران قلاية صغيرة نائية ، مغلقة من كل ناحية الا من كوة صغيرة تطل منها بوجهها الذى شحب وغارت فيه العينان ، وكانت من قبل كما رايت فى اللوحة الاخرى غانية ذات جمال لا يوصف .

سمع الاستاذ رشدى ، وهو من النقاد التشكيليين ، ورث الكثير من موهبة السفسطائيين الكبار ، يقول للفيف من الشبان التفوا حوله :

ـ الجمال علاقات رياضية بحتة . تراكيب تتآلف ، فتعطى فى النهاية احساسا بمتعة ما . الموسيقى علاقات صوتية . الطبيعة تولد الجمال . وكل شيء فى اطاره الطبيعى جميل ، حتى البومة والخنفساء فى حد ذاتهما ، وبعيدا عن العواطف والاعتبارات الشخصية ، جميلتان .

سأله احد الحاضرين :

ـ هل معنى ذلك أن الطبيعة لم تنجب امراة دميمة ؟

اجاب بلهجة الواثق من غزارة معلوماته :

ـ بيكاسو رسم امراة عوراء . هو لم يقصد جمال الشكل ، بل الجمال المعنوى . جمال الروح .

ـ ٦ ـ

ارهق ماجدا الحصار . اراد ان يتنسم بعض الهواء . خرج الى شرفة سراى المعرض ، نزل الدرجات ، وسار فى مماشى الحديقة الفسيحة ، الحافلة بأظلال داكنة . اتجه الى حافتها المظلمة على النيل ، من بعيد فى الظلام المخضب بضياء القمر ينساب شراع أبيض على سطح الماء الفضى . راق له أن يتابع هذا المنظر ، فى هدوء الليل ، قلما يتاح لزائر ان يأتى فى الايام العادية الى هذا المكان المغلف بسحر الطبيعة وعبق الازمان الخوالى . وهذا المعرض أقيم فى القصر استثناء هذا العام . اتجه الى السور .. الواطىء ناحية « المقياس » كانت الارض لينة ، من الطمى القديم الجاف ، وقد كسته الاعشاب ، أحس بخطواته مرنة وبلا جلبة تتحرك ، كما لو كان يسير على سحب من ندف القطن . تخيل نفسه قطا يجوس عالم الظلام . عندما أوشك أن يصل الى حافة السور الحجرى ، وفد الى سمعه صوت نسائى هامس يتبادل من وراء جذع شجرة الكلام مع شخص آخر . توقف . هم أن يتراجع ، ويعود أدراجه من حيث أتى ، لكن الاوان كان قد فات . رآته الهام ، أنزل الشاب الذى بصحبتها ذراعه من على كتفيها ، وابتعد بحركة مفاجئة . ثم استأذن منهما ، وانسحب عائدا الى المعرض .

ـ دكتور ماجد ، انت تتعقبنى !

قال لها :

ــ لم اكن اعرف انك هنا .
ــ لا تضطرنى الى أن أوجه اليك لوما .
ــ اقول لك لم أكن أعرف انك هنا .
واضاف بلهجة حانية ، بعد أن زايله ارتباكه :
ــ وان كنت اعترف لك انني أبحث عنك ، دائما ،
ــ انت تعترف ، اذن .
ــ ولماذا لا اعترف ؟
قالت بلهجة ساخرة :
ــ واقع أنت فى غرامى ؟
رد معاتبا :
ــ لهجتك تسيء الى ، يا آنسة الهام .
استطردت بلهجة جارحة :

ــ دكتور ماجد ، لست بالقروية الساذجة التى تخضع وتقول لك امرك ياسيدى ! انها حياتى انا ، وليس لاحد أن يرغمنى على أن اغيرها .

سارت نحو القصر . مضى معها يقول :

ــ هذا صحيح ، لكننى توسمت فيك صورة غير تلك التى تبدين عليها .

قالت له باستخفاف :

ــ هذه مشكلتك انت ، وليست مشكلتى .

تمهلت عند درجات الشرفة . لمحا كامبليا وصحابها قريبا من باب القاعة ، اراد ماجد أن يوجز فقال :

ــ اننى أوليك أهتماما خاصا ، يا آنسة . هذا كل مافى الامر .

ببرود أجابت :

ــ ما الجدوى ، مادمت لا أبادلك هذا الاهتمام ؟

دافع عن كرامته قائلا :

ــ آنستى ، سواء بادلتينى مشاعرى أو لم تبادلينى ، فليس من حق أحد أن يمنعنى أن أهتم بما أراه أنا جديرا بالاهتمام .

تعالت من جماعة الاصدقاء فى الركن القصى ضحكات .

أومأ لها برأسه صوبهم ، وقال بلهجة ساخرة :

ـ هل يأخذون عليك انك اطلت الوقوف معى ؟
اجابت متحدية :
ـ لا احد يملك مؤاخذتى . انى حرة فى تصرفاتى ، وسيدة حياتى . يجب أن تعرف ذلك جيدا ، يادكتور ماجد .
همت بصعود الدرجات . أمسك بيدها ، وقال :
ـ لعلك لم تلحظى اهتمامى بك ملاحظة كافية .
نظرت اليه بعينيها الواسعتين :
ـ اعتقد ياصاحبى انه اهتمام وقتى ، سرعان ماسيزول ، كما تزول كل عاطفة . .
طوحت براسها وقالت :
ـ اسمح لى أن اصحح لك افكارك . تختلف طباع كل منا عن طباع الاخر . وهذه الطباع ، يادكتور ، اقوى حتى من العواطف .. العواطف رقيقة هشة ، أما الطباع فشرسة مستبدة . لا تجعل الزبد الابيض الذى ينتشر على سطح الموج يمنعك من النظر الى الدوامات فى القاع المظلم .
مستاء من طريقة تفكيرها ، ومحاولا تصويب آرائها ، قال :
ـ انك لا تعرفين ماذا ..
دقت الارض بقدميها ، وقاطعته قائلة :
ـ بل اعرف ماذا أقول .. من خصالى انى صريحة وواقعية.. ليس هناك رجل يستحق أن أضحى بحريتى من أجله . اما اذا اضطرتنى الظروف الى أن أبيع نفسى لرجل ...
قاطعها مستنكرا :
ـ تبيعين نفسك ؟! لا ارضى لك بذلك !
ـ خل عنك ، لا اجزع من الحقائق . لو حدث ، لا قدر الله ، وتزوجت فسيكون ذلك اما لانى بثروة الزوج استطيع أن اشبع نزواتى كلها ، وهى لعلمك كثيرة ، واما أن يقع على الحب كقدر منقض ، ..
التفتت اليه ونظرت اليه نظرة ود . قالت :
ـ انت تتمنى لى الخير ، اليس كذلك ، يادكتور ماجد ؟
من قلبه انبثقت كلماته :
ـ كل الخير ، يا آنسة الهام .
ـ اذن ، تمن لى الا اقع فى مكروه الحب ، أبدا .
سحبت يدها من يده .

تعالت من الشلة ضحكات من جديد .

ـ هل تسمحين لى بكلمة اخيرة ، يا آنسة ؟

نظرت اليه مستفسرة .

قال :

ـ تلك الامسية التى خرجنا فيها للنزهة ، جعلتنى آمل .

قالت له غاضبة :

ـ يالك من ظالم ، مثل كل الرجال . امن اجل قبلة تريد ان توثق قيدى ؟ انت الذى اقدمت على تقبيلى ، لا تنكر ، فهل قبلتك انا ؟ وماذا تريد أن تستنتج من ذلك ؟

لم يجد ماجد مايرد به ، فاستطردت تقول :

ـ عزيزى الدكتور ، انا فتاة قوية الارادة . وقبلة تمس جلدى لا تعنى انها سلبتنى حريتى . كانت لحظة عابرة . وليس لزاما ان تطبع اثرها على الدهر كله . وهل هناك ماهو أبدى بين البشر ؟ كل شىء نسبى ، يا أستاذ .

ـ لا اتمنى لك مثل هذه العلاقة ، يا آنسة .

قالت بغيظ :

ـ انت غريب الشأن ماذا ستقول اذن لو رايت كيف نقضى أوقاتنا فى « العش » أقصد فى مرسم كاميليا . ادعوك أن تأتى . ولكن كيف تأتى ؟ انت خطر علينا . ستثير لنا المتاعب . هل تريدنى ان اعترف لك بشىء ؟

خيمت فى عينيها سحابة ، وطرفت رموشها وهلة :

ـ انى اخشاك .

تركته ، ومضت تنضم الى اصحابها . لكنها قبل أن تندمج فيهم استدارت . التفتت اليه ، ولوحت له بيدها .

ـ ٧ ـ

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء عندما مضى مترجلا ينزل منحدرا شارعا متربا من الشوارع الجانبية المتفرعة من طريق الهرم . راح يمشى بخطوات بطيئة وقد وضع يديه فى جيبى بنطاله كما لو كان لا يكترث بشىء ، ولا يشغل باله هدف معين . حاول ان يرتب أفكاره للمرة الاخيرة . ماذا سيقول ، وكيف يقوله ، عنـدما

يفتح له الباب ، ويجد كاميليا او غيرها امامه تسأله ماذا يريد ؟ فاذا ما قالت « تفضل » وسمح له بالدخول ماذا سيفعل هناك ، وكيف سيتصرف ؟ وراح ينتقى الكلمات التى سينطلق بها ، ويرتبها مثل تلميذ صغير يحفظ عن ظهر قلب دروسه ، وعلى الاخص اذا برزت امامه كاميليا عند الباب ، ماذا سيقول لها مبررا لمجيئه . وس.. ا. سيرتبك ويتلعثم ازاء نظراتها النابشة المتسللة . وابتساماتها المزدر. لكل من يواجهها . ثم صوتها ذلك الثقيل الصدىء ، الذى زاده الافراط فى التدخين بحة وصدا ، يستفسر ما الذى جاء به الى هنا . سوف يقول لها ان الهام هى التى دعته ، فهل سيكفى ذلك لاقناع كاميليا والسماح له بالدخول ؟ أليس من المحتمل أن تستعلى عليه وترفض استقباله فى بيتها ، منتحلة اية حجة من الحجج ، او حتى دون حاجة الى انتحال الحجج ؟فالبيت بيتها ، وهى تستقبل فيه من تشاء ، وليس بلازم أن ترحب بهذا الوافد الدخيل الذى لا يؤمن جانبه ، فليست له الصفات التى تجعله ينول تصريح الدخول الى عش العزوبية الطليقة ، على الرغم من انه اعزب ولكنه ليس بوهيميا. صحيح أنه يتذوق الفن ويكتب مقالات تحظى بالاعجاب فى نظريات الجمال . ولكنها مقالات رصينة الى الحد الذى يجعلها فى نظر كاميليا وأمثالها كتابات سمجة . ثم انه ليس بالرجل المراح المهزار الذى يعرف كيف تلقى النكتة والقفشة . وذلك فضلا عن صفات اصولية أخرى تجعله ساقطا فى نظر كاميليا صاحبة الاتيليه الوجودى. ارتجف جفناه لخاطرة أن كاميليا قد تقول له « آسفة ، لست على استعداد لاستقبالك » فكر فى الامر عميقا وسريعا . لا يهم ، سيقبل ، سينحنى لها وينسحب معتذرا على ازعاجها بالمجىء فى مثل هذه الساعة دون دعوة سابقة . وسيتربص فرصة أخرى قد تسنح له فيما بعد ، وربما قريبا ، للدخول الى العش الوردى ، الشىء المؤكد على اى حال ، الذى استقر عليه عزمه مهما تأزمت الامور هو ان يلج عتبة هذا الاتيليه ، وان يجوس فى ارجائه باحثا منقبا عن حقيقة الهام . ومهما عومل هناك فقد اعتزم أن يندمج مع الشلة ، مهما اقتضاه ذلك من صبر وأناة . فهدفه كبير ، ولن ينكص عنه مهما اقتضاه الامر .

كان لابد للطريق ان ينتهي . قادته قدماه الى البيت . فيللا قديمة ، تحيطها حديقة صغيرة ، يخترق الجزء الامامي منها ممشى ممهد نبتت في ارضه الحشائش ، وقلبت على جانبيه بعض أصص الزرع الفارغة والتي تكسرت بعض أجزائها . يقود الممشى الى درجات رخامية قليلة تصعد الى شرفة ذات بلاط مربع فيروزي باهت اللون .

يحيط بحديقة البيت سور خشبي مدهون بطلاء أبيض حديث. وللسور باب موارب الى جداره من الداخل كشك سداسي الاضلاع لبواب كان غائبا آنذاك . تردد ماجد وهو يدفع الباب ببطء فسمع خشبه يئن . كف عن التفكير . وراح يستمع الى خطواته وهي تدب دبا مختنقا على ارض الممشى الترابية اللينة . وقد تكسرت تحت وطأة قدميه بعض الحشائش الجافة . توقف بعد بضع خطوات ، وجال ببصره فيما حوله مترددا . لم يكن يعرف ماذا سيفعل اذا ارتقى الدرجات القليلة وواجه باب البيت المطل على الشرفة الخالية . هل سيدق عليه بقبضته ؟ وهل سيفتح له أحد ؟ ومن سيكون ! نبح كلب في مكان ما من الجيرة ، وقد اخذت عتمة الغروب تزحف . ارهف السمع عله يسمع طرفا من حديث يدور خلف الجدران ، يهدى خطواته ، ويومىء اليه بما سيقرر اذا تعرف على صاحب الصوت ، وربما كان لالهام نفسها . الم تقل له ان الاتيليه مفتوح كل يوم بعد الظهر . وهناك على الدوام من يوجد به ، سواء أكانت هي أو كاميليا ، أو عند عدم وجودهما يكون هناك غيرهما ، فهو ــ على حد قولهما ــ بيت للضيافة ، أو خلية نحل ، يؤمه أى من كان من الشلة . وهذه الشلة كما فهم غير محدودة العدد ، بل هي قابلة للنمو والتكاثر يوما بعد يوم ، مثلما تتكاثر الحشائش الطفيلية في ممشى الحديقة ، أو حول السور الذى لا يصد كل من يفتح الباب ذا المفاصل الصدئة ويدخل . لم تفد الى سمعه نأمة . ربما لم يأت أحد اليوم ؟

سمع وراءه نحنحة رجل مبحوح الصوت . استدار نحوه . كان عنكبوتا أعرج ، يمسك عصا غليظة ، ويتقدم نحوه مبتسما عن فم ترمت أسنانه ، وقد ارتدى معطفا طويلا حائل اللون على جلباب مخطط . فهم ماجد على الفور من الالفة التى بدت على حركات هذا

العجوز المسالم انه البواب الذى يفترض ملازمته للكشك الخشبى بجوار باب السور . عاد ماجد أدراجه الى العجوز ، وحياه مبتسما ، كما لو كان يعرفه منذ امد طويل . ورد الرجل الابيض الشعر التحية كما لو كانت بينهما صداقة قديمة .

ـ مساء الخير ، يابنى .

ـ مساء الخير ، الجماعة فوق ؟

واشار ماجد بايماءة من راسه الى الفيللا ذات النوافذ المغلقة ، كما لو كان يعرف هذه الجماعة ، وكأن العجوز فهم بدوره انه احد أفراد الشلة التى لايستطيع أن يجزم بأنه يعرفهم جميعا . فسأله :

ـ الم تكن معهم فى الرحلة ؟

اندمج ماجد فى الحديث ، كما لو كان يعرف عن الرحلة ، وقال له :

ـ تأخرت فى آخر دقيقة . كان عندى شغل .

منى العجوز يحكى له ببساطة وبلا كلفة :

ـ رجعوا متأخرين . كل واحدة من البنات رمت نفسها فى مكان ونامت حتى دون أن تغير ملابسها . كان الجميع متعبين سألتهم « تريدون شيئا » قالوا « شكرا ، ياعم مبروك » تركتهم ورجعت بيتى . انا ساكن قريبا من هنا .

تنهد واستطرد يقول :

ـ ماذا أفعل ؟ أعيش مع ابنتى واولادها الخمسة . تركها زوجها منذ ثلاث سنين ، وانا ماذا رمانى على المر غير الذى أمر منه ؟

قال له ماجد ، وهو يخرج حافظة نقوده ، ويدس فى يده جنيها :

ـ لا أحد مرتاح ، باعم مبروك .

تمنع العجوز اول الامر . ثم انفرجت أساريره ، وقد وضع الورقة المالية فى راحته ، واطبق عليها بقبضته ، ودسها الى جيب معطفه القديم .

دعا له العجوز :

ـ ربنا يهدى سرك ، يابنى . انا هنا احبكم كلكم .

سأله ماجد :

ـ ومتى عادوا من الرحلة ؟

ـ كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل تقريبا .

مضى عم مبروك يتحسس الورقة التى دس بها فى جيبه ليعرف ما اذا كانت ورقة من فئة الخمسة والعشربن قرشا أم من فئة الخمسين وعندما أدركت أنامله أنه ربما يمسك بورقة من فئة أكبر من ذلك ، خفت سيطرته على لسانه ، وقال :

ـ لا يعنى هذا أن البنات ، لا قدر الله ، سوف ترتكب خطأ . وكاميليا بالذات لا تفعل ذلك . انها ابنة أصل ، صدقنى يابيه . انى أعرفها وأعرف صديقاتها اللاتى يجئن الى هنا . كلهن بنات متحررات فحسب .

كتم ماجد شكوكه بين ضلوعه ، وصدق على كلام العجوز هازا راسه ، وهو يمد نظراته الى النوافذ المغلقة .

ـ عندك حق ، ياعم مبروك . عندك حق .

ـ احلف لك بالنعمة ، أنا ماكنت اشتغل هنا يوما واحدا ، يابيه ، لو لم تكن البنات مضبوطة على الاخر .

ابتسم ماجد ، وقال له :

ـ أنا عارف ، ياعم مبروك . متأكد .

انخرط العجوز فى نوبة من السعال ، مالبث أن سيطر عليها ، واردف يقول :

ـ لكن ان شئت الحق كانت حالة الست الهام سيئة عندما جاءت .

سأله ماجد ، وهو يكتم جزعه :

ـ ماذا أصابها ؟

ـ لم تكن قادرة على أن تنصرف الى بيتها .

ـ لماذا ؟ كيف ؟

ـ كانت يابنى قد افرطت فى الشراب . اعنى لم تكن قادرة ان تقف على رجليها . ألقت بنفسها على السرير . وراحت فى النوم بثيابها .

تنبه العجوز الى خطورة هذه الاسرار التى يفشيها ، وكأنه أفاق الى نفسه ، فأمسك بذراع ماجد ، ومال عليه بعينين جزعتين :

ـ من فضلك ، يابنى ، دع هذه الامور سرا بينى وبينك ، لا تخبر أحدا اننى قلت لك هذا الكلام ، فأنا رجل عجوز بينى وبين القبر خطوة ومسئول عن ايتام أريد أن أربيهم . لا شأن لى بما حدث من بنات اليوم .

نظر اليه ماجد بعينين متألمتين ، وهز راسه :
ـ اطمئن ، ياعم مبروك .
وكى ينهى الحديث الى غير رجعة ساله العجوز :
ـ انت طالع عندهم ؟
ـ ليس الان . بعد قليل . ساجلس فى الحديقه ، فربما كانوا ما زالوا نائمين .
كان ماجد يريد ان يتعرف على البيت من الخارج قليلا ، فربما راى امورا تفتح عينيه . فتبصران حقائق ما كان بامكانه أن يعرفها بغير هذه الزيارة ، التى بدات تتخذ شكل الزيارة التفتيشية . ولكى يصرف العجوز ، دس يديه فى جيوبه ، متظاهرا انه يبحث عن شيء .. ثم التفت اليه وقال :
ـ سجائرى نفدت . هل تستطيع ان تشترى لى علبة سجائر ، ياعم مبروك ؟
اشار عم مبروك بعصاه الى ما حوله ، وقال لماجد :
ـ ليس بهذه الجيرة محلات للسجائر . اقرب كشك عند ناصية شارع الفواكه .
أخرج ماجد من جيبه جنيها آخر ، ولوح به للعجوز :
ـ أين شارع الفواكه ؟
ـ بعد شارعين من الشارع الكبير الذى نزلت منه ، يابيه .
ربت ماجد على كتف عم مبروك ، ودس فى يده الجنيه ، وقال له كما لو كان يرجوه .
ـ من اجل خاطرى . اخطف رجلك الى هناك ، واحضر لى علبة كليوباترا .
اطبقت اصابع العجوز على الجنيه الجديد . وقال له :
ـ طلبك مجاب . أنا لا أرد لك طلبا ، يابيه ، أنت أمير .
استدار العجوز ، وخرج من باب السور . ثم اختفى عن العيان . دار ماجد حول البيت بخطى متلصصة ، ولكنه حرص أيضا على أن يبدو كما لو كان غير مكترث ، ولا يريد ان يضايق اهل البيت ، وقد صارت عنده الآن الحجة . اذا ما رآه أحد منهم يتجول فى الحديقة . سيقول انه عرف انهم ما زالوا نياما ولم يرد ازعاجهم .
دار حول البيت ، واجتهد ان يسير بمحاذاة الحائط حتى لا يتبينه أحد من النوافذ المواربة . كانت أشجار المانجو كثيفة فى

الفناء الخلفي » ، وما من أحد هناك . بعد بضع خطوات لمح نافذة مفتوحة . ولمست أذنيه كلمات محادثة خافتة ، سرعان ما انقطعت. التصق بالحائط وتوقف عن السير . ثم انحنى واسرع الخطى مبتعدا الى السور المقابل ، كي يتسنى له أن يرى من بالغرفة ذات النافذة المفتوحة كانت النسمات تداعب اوراق الشجر ، وكان حفيفها كفيلا بأن يغطى وقع خطواته التى عنى ان تكون خفيفة ومتلصصة .

تسلق شجرة واطئة واختبأ بين اغصانها المورقة ، وصوب نظراته الى ماوراء النافذة . لم تكن عيناه بسبب وهج الضوء قادرتين على أن تتبينا ما يجرى بالداخل أول الامر ، ولكنهما ما لبثتا أن استطاعتا ان تستكشفا ما أمامهما . وقد كان ما رآه ماجد منظرا غير متوقع ، مزق بمخالبه وجدانه بضراوة . على الاريكة الواطئة كانت الهيام راقدة غارقة فى نؤمها ، وذراعاها الطويلتان امتدتا عاريتين الى الوراء . انهدل شعرها الاسود الغزير على الوسادة الماثلة وزحف على كتفيها ؛ والتفت بعض من خصلاته على جيدها . هل كانت تنام هذه الحورية عارية على تلك الاريكة ؟ هذا ما فهمه ماجد ، فقد كان بقية جسدها مغطى بدثار من القطيفة الاحمر ، انحسر عن فخذيها ، وامتدت ساقها اليمنى على الاريكة بينما تدلت الاخرى الى الارض الواطئة ، وقد ارتدت جوربا شفافا . وعلى مبعدة من هذه الفتنة النائمة ، راى ماجد حاملا اسندت اليه لوحة رسمت عليها بالفحم الخطوط الخارجية لهذا الجسد المستلقى غائبا عما حوله وسجلت بعض معالمه الرئيسية . دخل الغرفة فتى بدين قصير اطال شعر رأسه ولحيته . مضى يتأمل الجسد النائم ، ويطابق بينه وبين الخطوط التى رسمت على اللوحة البيضاء ، ثم تناول فرشاة غمسها فى اناء به لون ووضع بعض لمسات زرقاء على مواضع من الجسد المرسوم . افتتح باب خارجي فجأة . دخلت كاميليا ، بصحبة رجل أشعث الشعر ، يلبس روبا نبيذى ، اللون ، عرف فيه ماجد مخرج السينما فهيم النادى .

جذبت كاميليا الفتى البدين من ذراعه ، وسمعها تقول له ، وهى تضحك ضحكة خليعة « كفى هذا الاعلان » دفعته فى ظهره الى خارج الغرفة ، وتبعته مع الرجل الاخر . ثم اغلقت الباب وراءهم . ظل المنظر أمام عينى ماجد يثير فيه الرغبة الا يشيع

عنه انظاره ابدا ، ولكنه اثار فيه ايضا قشعريرة رعب دفين . احاسيس الاعجاب والتقزز راحت تمتمل فى أعماقه . تصطخب وتتلاطم مثل بحر فى ليلة عاصفة . لم يتصور انها يمكن أن تكون بهذا الجمال الفتان . ما كان يرقى خياله الى ان يتصور جسدها بهذا الابداع والسخاء ؛ ولكن الموجة العاتية ما لبثت أن جاءت تلطم كل احاسيس اعجابه . اى استهتار هذا ، وأى ابتذال ! وهل يمكن أن يبقى لهذا الجسد جماله بعد أن تعرى ، وربما استبيح لأكثر من معجب ؟! اى رحلة شيطانية كانت هذه ؟ والى اى حضيض من الابتذال تتردى هذه الفتاة ؟ اظلمت الدنيا فى عينى ماجد برهة ، وانتابه غضب . اجتاح كيانه . لم يعد بالامكان الرضاء عن هذا الوضع ؛ ولا التهوين من فداحة الامر . أحس بالشجرة من تحته كما لو كانت تعصف بها ريح هوجاء .

اختلط الغضب بحزن بعنصر القلب .. دارت الدنيا من حوله وسمع الشجرة كما لو كان نزع عنها اللحاء ، راحت صورة الهام تدور امامه كما لو كانت دوامة . نزل من جذع الشجرة خائر القوى، وقد انعدمت بكيانه كل رغبة فى مواصلة كفاحه من اجلها . اندفعت غصة الى حلقه ؛ خنقت صرخة احتجاج وتقزز . لابد انها تفعل كل ذلك بكامل رضاها . اغابت عن وعيها رغما عنها ؟ هل خدعوها ؟ كلا ، كلا ؛ لابد انها هى التى رضيت بأن ترقد كى يرسموها ؟. ومن ذا الذى رسمها ؟ أهى كاميليا ؟ أم ذلك الفنان البدين المدكوك الذى يشبه بلحيته الطويلة جديا بريا ؟ شعر ماجد للحظة أن ساقيه لا تقويان على حمله . راح يجرجرهما . نزل من على الغصن وتراجع الى سور الحديقة يتكىء عليه ، حتى يتفادى الدوار والسقوط . سمع تحت حذائه قطع من زجاج تنسحق وتتهشم . كانت شظايا زجاجة فارغة ومشروخة من زجاجات الخمور القوية . كادت الشظية ان تجرح اصابعه . لملم نفسه وصمم على الرحيل . ماذا يريد فى هذا البيت ؟ ماذا بقى له أن يعرف ؟ ما الذى يجعله يدخل مثل هذا المكان الموبوء ؟ نسى ما جاء من أجله ، بل قرر متمردا أن ينسى كل شىء عن الهام ؛ وأن يطرحها جانبا ، فلم يكن مرأى جسدها ، مبتذلا مستباحا على النحو الذى رآها عليه ، مما يغتفره رجل جاد مثله .

خرج من باب الحديقة وسار فى طريق العودة . سمع وراءه

صوت الرجل العجوز ، يناديه ، عافت نفسه حتى أن يلتفت اليه :
ـ علبة السجائر ، يابيه .
لحق به العجوز ، ومد يده بالعلبة . تناولها ماجد ، وفى غضب الفى بها ارضا ، وداس عليها يسحقها بحذائه .
لم يفهم العجوز ما جرى لهذا الرجل الذى كان ودودا منذ برهة . هز راسه ، وقال له :
ـ عجائب . كلكم ، يا اهل الفن مجانين .
قال له ماجد :
ـ انا لست فنانا يا عم . ولو كنت مجنونا ، فقد عاد الى صوابى الآن .

ـ ٩ ـ

عندما عاد الى البيت اخبرته امينة ، أن ثمة من يدعى رامز جاء يطلبه . وعندما عرف انها اخته قال لها ان تبلغه أنه يرشحه لعضوية لجنة الفنون بالمجلس الاعلى . وقال لها ايضا انه ينتظر الرد من أخيها بأسرع وقت .
قالت له امينة باسمة :
ـ مبروك ، يا اخى .
اجابها ماجد بحزم :
ـ انى ارفض عرضه .
راحت امينة تحملق فيه مستفسرة عن سبب رفضه . فأجابها بسوءاله :
ـ لا اقبل شيئا من يد قذرة .
قالت :
ـ لكنه سيتصل بك تليفونيا .
رفع ماجد سماعة التليفون ، وقرر ان يغلق على نفسه باب غرفته ، ويخلد الى النوم عله ينسى هموم اليوم . القى رأسه على الوسادة واغمض عينيه بشدة حتى يطمس فى اعماقه مرأى الجسد الحبيب الكريه العارى . ود أن يهرب منـه ، أن تنشـق الارض وتبتلعه . لكن طيفها تسمر فى جفنيه المطبقين ، وراح يقترب منه كما لو كان ينقض عليه . دس رأسه تحت الوسادة وتقلب على

السرير راقدا على بطنه . أحس بمرارة هزيمة مبهمة تجتاحه . رغب فى أن يهرب من كل شيء ؛ ومن نفسه على الاخص . مد يده جذب درج المنضده الصغيرة بجوار السرير يبحث عن علبة الحبوب المنومة . وجدها فارغة . لم يقاوم ــ على غير عادته ــ غضبة مباغتة . قذف مفتاظا بالعلبة الى الحائط المواجه فهوت مهشمة ؛ وقد دوى صوتها فى اعماقه ترجمة لتمرده ، وعجزه عن الدفاع ضد كل ما هو كريه ودميم ــ مد كفيه يسد أذنيه كى لا يسمع نبضات قلبه القوية ، وكأن قلبه قد أخرج من صدره وعلق بالغرفة من طرف خيط فى تجربة طبية غريبة مثلما يجرى على قلب ضفدع او أرنب . لوح بيده يمحو من أمامه منظر القلب القانى الذى ينبض ، وقد تساقطت قطرات الدم منه . ود ان يلوذ بركن شديد الظلمة ، يغلق على نفسه باب الوحدة ؛ وفى ترابها يتحلل وجوده ويتبدد قفز من رقدته . أسند ذقنه على ركبتيه وحوط وجهه بذراعيه يصد عن نفسه عدوان اليوم ، وكف عن أن يأمل فى الغد .

ثم قفز من السرير . وراح يجول فى أرجاء الغرفة . تذكر نفسه وهو صغير جدا ، عندما انكسرت لعبته الجديدة يوم أن احضرها له أبوه فى العيد . ركع باكيا وجمع أشلاءها ، وراح يلصقها بالصمغ حتى عادت الى ما كان عليه حالها تقريبا . انه يعرف نفسه جيدا .. كيف سيترك نفسه ينهار ؟ وفى هذا الزمن الذى راى فيه العديد من الاصدقاء الشرفاء يعتقلون ، والمرضى فى أسرتهم بالمستشفيات يموتون ، وآخرون لا أمل فى شفائهم يشفون وينهضون معافين ويخرجون ، وقرأ من دواوين الشعر أسودها تعاسة لشعراء يجمعون الثروات من المتاجرة بالدموع وأحزان البشر ؟ انه زمن عجيب ، كل شيء فيه قابل للفناء ، وللانصلاح ، وللتلف ، فى أى لحظة ، وبلا ضابط أو مقدمات الشيء الوحيد الجدير بالاعتبار هو الثقة والامل . الثقة فى ماذا ؟ والامل فى ماذا ؟ لم يكن بقادر على أن يجيب . أو على الاقل ما كان يريد أن يجيب . سأل نفسه وهو ينظر الى وجهه المرهق فى المرآة . « والآن ماذا انت بحاجة اليه ؟ أن اخرج . ان أفتح الباب ، وامضى لأعرف الى أين . » فكر أن يذهب الى صديقه ماهر جلال ، الروائى الاعزب الذى لو انطبقت الارض على السماء أو انهارت فى القاهرة كل العمارات لنظر اليه بعينيه الواسعتين البريئتين وقال « وماذا فى هذا ؟ الدنيا يا أخى ما زالت

بخير . أو هى كانت على الدوام بهذا الخلل ، فلا تنزعج من شىء وقد كان صموده من منطلق يأس خاص به تماما . بعد خمسة عشر عاما من الحياة الزوجية المستقرة . تركته زوجته الدميمة المريضة لتحيا مع صعلوك تعاف النفس السوية معاشرته .

هب ماجد من سريره . اخذ حماما دافئا . غير ملابسه بأخرى خفيفة ، وقرر ان ينطلق .

سألته اخته :

ــ الى أين ؟

قال :

ــ لا ادرى .

عادت تسأله :

ــ متى ستعود ؟

قال لها :

ــ أيضا لا ادرى .

ابتسمت ابتسامة حنون وقالت :

ــ حسنا ، يا دكتور لا ادرى .

ــ ١٠ ــ

أول الامر ، جال على غير هدى فى شوارع العاصمة المزدحمة المتربة .

ثم اتجه فكره من جديد الى ماهر جلال . مر عليه .

نظر الصديق الى وجهه المتعب وسأله :

ــ مالك ؟

أجاب ماجد بضحكة قصيرة مفتعلة :

ــ لا شىء .

ــ ارهاق ؟

ــ انا بحاجة الى بعض الهواء .

ــ ما رأيك فى نزهة ؟

ــ وانت ايضا . الست بحاجة الى الهواء ؟

قال مازحا :

ــ لم لا ؟ على شريطة ان يكون نقيا .

تذكر الهام . قال له :
ــ وهل يوجد هواء نقى ؟
ــ كلما ابتعدت وجدت .
تنهد ماجد ، وقال :
ــ سأبتعد اذن كثيرا .. كثيرا .
صعدا هضبة المقطم . ومنها أطلا على القاهرة كلها . تلألأت انوارها كما لو كانت فى ليلة عرس . احس ماجد بأنه على أى حال عرس حزين . ولاذ الصديقان بالصمت ثم سرت فيهما الرغبة فى السمر ، فتحدثا عن اشياء كثيرة . عن سولجينيتسين الحاصل على جائزة نوبل مؤخرا . عن « رسائل سجين سياسى الى حبيبته » عن المعرض العام ومستوى معروضاته .
لاذ الصديقان بالصمت من جديد . وفدت الى آذانهما فى هدوء الليل همسات ريح خفيفة . اغمض ماهر عينيه ، وأخذ نفسا عميقا ، وقال لماجد :
ــ الا تتبين الى أى حد هو نقى هذا الهواء ؟
اغمض ماجد عينيه بدوره ، وملأ رئتيه بالنسمات الرطبة . وقال :
ــ ها انا ذا فى النهاية اجد هواء نقيا .
سأله صديقه :
ــ اتعرف لماذا ؟
لم ينتظر اجابته ، وقال :
ــ لانه لم يتدنس بعد بزفرات البشر .
هم ماجد أن يشعل سيجارة . نفخ صديقه فى عود الكبريت .
أردف ماهر يقول :
ــ اذا لم تكن قد كرهت البشر بعد ، فمازلت لا تعرفهم على حقيقتهم .
قال ماجد :
ــ الجمال والحب وحدهما هما الخلاص .
ــ ايها المراهق ، يجب أن تتعلم كيف تكره .
نفخ فى عود الكبريت المشتعل بين أصابع ماجد ، وأطفأه قائلا :
ــ لا تدنس هذا النقاء ، ولو مؤقتا .
بعد قليل نزلا الجبل عائدين الى المدينة .

الفصل الثاني

العقرب الجميل

- ١١ -

دخل والدها الغرفة . وجدها منكفئة على سريرها . قال :

ــ تبكين !

رفعت وجهها شاحبا ، ونظراتها زائغة . كان الحزن العميق باديا فى عينيها . تركها فى الصباح نائمة ، وكان كل شىء يبدو على ما يرام . ما الذى حدث لها ؟

وفد اليه خاطر . سألها :

ــ حلم مزعج ؟

نكست رأسها ، واجابت بالنفي . دفنت وجهها بين راحتيها . سألها قلقا :

ــ مالك ، يا الهام ؟

علا نحيبها ، واجتاحتها نوبة عنيفة من البكاء . كان كتفاها يعلوان وينهدان مع تهدجات صدرها ، وقد بدا أعلى نهداها من عنق قميص النوم ، وهى منكفئة محنية .

ــ مالك يا ابنتى ؟

انحنى الاب منزعجا . حوطها بذراعه . انهضها ، وجلس على الفراش الى جوارها .

ــ ما الذى ألم بك ، يا حبيبتى ؟

أمسكت بيدى أبيها بين راحتيها ، ومضت تضغط عليهما بحنان ، ثم رفعتهما الى خديها ، واخذت تتمسح فيهما ، كما لو كانت تتشبث بطوق نجاة .

ــ اخافك شىء يا ابنتى ؟ قولى لى !

هزت رأسها بالنفي .

ــ ما الذى حدث اذن ؟ انك لست ممن يبكين بسهولة . لم أرك تبكين حتى وأنتى طفلة . ما الذى حدث اذن ؟

سكتت الهام . ترددت ثم قالت :

ـ أحس بانقباض شديد .
رفعت منديلها تمسح به دموعها .
سأل الاب فى لهفة وقلق :
ـ وما السبب ؟ يا صغيرتى ؟
تشبثت بالصمت ، بينما سرحت عيناها بعيدا .
ـ انك تخيفيننى بصمتك هذا .. هل اصابك مكروه ؟ خبرينى .. هل تعدى عليك احد بفعل او بقول جارح ؟
أدارت اليه عينين مفعمتين بانشغال عميق .
ـ لا احد ، لا أحد يا أبى . مجرد احساس دفين مبهم .
وضع يده تحت ذقنها . رفع وجهها اليه ، وتأملها مليا .
اكتست عيناها الدامعتان بغشاوة حزن زادتهما جمالا . وقد انعكست من اهدابها الطويلة المبللة ظلال على اعلى وجنتيها البارزتين المستديرتين مثل ثمرة قطفت من غصنها توا وازاء الطمأنينة التى بثها فيها حنان ابيها عادت الحمرة الى خديها ، وما لبثت أن ابتسمت لأبيها كما لو كانت ترد اليه حسن صنيعه .
ـ لا شىء ، يا أبى . لا شىء . كما سبق ان قلت لك ، داخلنى فجأة احساس بالخوف والكآبة . انهارت اعصابى . هذا كل مافى الامر .
ـ اعصابك لا تنهار بسهولة ، يا الهام . هذا اعرفه عنك جيدا . تبدو الامور غريبة .
تمتمت بصوت منخفض :
ـ تذكرت ماما . جاءت الى فى الحلم .
ربت الاب على كتف ابنته برفق ، وانهضها كي يتناولا الغداء معا، ولكن بداخله خيمت سحابة من الريب ، واحس قلقا على ابنته .
ـ هيا ، هيا ، سنأكل لقمة سريعة ، لأننى سأرجع بعد الظهر الى المجلة أتعرفين مع من أنا على موعد ، يا الهام ؟
هزت رأسها نفيا ، ونظرت اليه مستفسرة .
قال لها :
ـ مع صديق عزيز . مع ماجد !

ـ ١٢ ـ

كان الوقت مبكرا فى الصباح . فرغ ماجد من ارتداء ملابسه

وتأهب للنزول الى المستشفى . دق جرس الباب . فتحه . وجد امامه لدهشته الاستاذ شفيق ومن ورائه الهام ، يبتسمان له ، ويعتذران عن الحضور فى مثل هذا الوقت ، دون سابق ميعاد .

رحب بهما ماجد ، وقادهما الى غرفة الجلوس . ونادى اخته امينة ، فجاءت ورحبت بهما بدورها . وقبلت الهاما ، واطرت حسنها ، فهذه اول مرة تلتقى بها . ثم انسحبت لعمل القهوة .

اوضح الاستاذ شفيق انهما قادمان من المطار بعد توديع الوزير ، الذى سافر الى الخارج لحضور « المؤتمر الدولى للحفاظ على التراث » المنعقد فى باريس ، وانهما قررا فى آخر لحظة أن يمرا للزيارة .

مضى الاستاذ شفيق يقول ، بعد أن أطرى القهوة التى أعدتها امينة وقدمتها لهما :

ــ عندما عرفت الهام أن رامز سوف يكون فى المطار ، طلبت أن تصحبنى فهو قد انقطع عن زيارتنا هذه الآونة الاخيرة .

رشف رشفة من فنجانه وقال :

ــ هذا الرجل داهية حقا ، وعلى غاية من النشاط . لا يستغنى الوزير عنه أبدا . هو يعد ويرتب كل شىء .

وضع فنجانه على المنضدة الرخامية امامه ، واردف يقول :

ــ سوف نحتاج الى رامز هذا .. سوف ينفعنى هذا الفتى يوما ، فكل الامور فى الوزارة تمر من بين يديه .

اختلجت نظرات الهام عندما أشار أبوها الى رامز . كانت ترتدى ثوبا حريريا أصفر ، مقفلا عند الرقبة ، ويغطى ذراعيها . ومن المكياج خلا وجهها ، فبدت بسيطة وطبيعية . سارعت بالتدخل فى الحديث مصححة :

ــ كلا ، يا بابا . لم يكن مجيئى المطار معك بسبب رامز ، بل كنت أنوى من الاصل الحضور لزيارة الاخت الحبيبة امينة ، التى طالما سمعت الدكتور ماجد يشيد بها ، وتقت كثيرا للتعرف بها .

هبت على المجلس نسمة من الود والبهجة . ضحكت امينة ، وردت الى الهام مجاملتها بأفضل منها .

ــ وأنا أيضا سمعت من أخى اطراء لجمالك ورقتك يا آنسة الهام ، وكنت أود كثيرا ان اراك واجلس معك .

بدا السرور على قسمات الاب المتعبة ، وقال :

ــ يا ست امينة ، سمعنا عن طيبة قلبك ، وحسن تدبيرك ،

ورجاحة عقلك . واسمحي لي ان اقول لك انه لا يوجد من امثالك اليوم الكثير .

انشغل الصحفي العجوز بالحديث مع امينة ، التي ارتاح لها قلبه ، في امور شتى ، لا تعنى بنات الجيل الجديد ، ولا يكترثن بها كثيرا .

نهضت الهام ، وخرجت الى الشرفة . تبعها الدكتور ماجد ، يغتنم فرصة لقاء جلبته اليه مصادفة لم يكن ينتظرها ، بعد الاعاصير التي اطاحت في الايام السابقة بالجسور بينهما . صفا الجو اذن ، بعد العواصف الترابية التي عتمت امام ناظريه الرؤية ؟

احبها ، لكنها اشعرته بأنها لن تكون له ، لا يمكن ان تكون له . لم يكن ذلك بالكلمات فحسب ، بل وبالافعال ايضا . لماذا تأتي كل الامور على نحو خاطىء ؟

قالت له :

ـ ولو مرة واحدة فقط ، اريد ان افعل شيئا يجعلك ترضى عني ، لكن لا اعرف ماذا أفعل .

قال ساخرا :

ـ الم يسبق لنا ان تحدثنا في هذا الامر يا الهام ؟ « الطبع يغلب التطبع » هذا قولك .

ـ احس بأني في حاجة الى صحبتك . لماذا لا تبادلني أنت هذا الشعور .

اكانت تحيي فيه آمالا جديدة ؟ قرر ان يقاوم كل امل . اطال النظر في عينيها . اضحتا ارق عن ذي قبل . أصبح يشع منهمـــا حزن دفين . ترى هل داخلها تغير ما ؟ ليس بلازم أن يكون نحوه ، بل قد يكون نحو الحياة ذاتها . قد تكون تغيرت بسبب تجربة جـــديدة او حادث مفاجىء أو غير مفاجىء لا يعرفه ، وأن كان يلمح مســـحة الحزن التي راحت تبسط جناحيها على قســـماتها ، ويرفرف في تهدجات صوتها . ها هو الامل اذن يبعث في أعماقه من جديد . مهما قاومه هو أقوى من عزيمته . كلا ، ان حزنها عابر . سرعان ماسيزول ، وتعود الى سابق عهدها . ان « الاتيليه » لازال هنـــاك بانتظارها ، وافراد شلتها يحيطون بها ، وان غابوا الان ، وهي منجذبة اليهم ، كل شيء اذن سيعود الى ماكان عليه ، فلماذا الامل ؟ ولماذا العذاب من جديد ؟ لقد وأد كل أمل ، واستراح ، أو كاد يستريح .

لكن نرى لو ندمت وجاءت اليه مستغفرة . فهل يغفر ؟ ما الندم وما الغفران ؟ سمع صوتا داخليا يقول له « وفر على نفسك تصديع راسك بمثل هذا التفكير ، فهذا الندم لن يحدث ، ولن تأتى اليك الهام تستغفر . ان الندم يحتاج الى شخصية من نوع خاص ، شخصية ليست من نوع الهام بأى حال . » ثم سمع صوتا داخليا آخر يعترض « من قال هذا ؟ الم تندم مريم المجدلية وطلبت المغفرة ؟ » استطرد الصوت الاول يقول : « المغفرة لاتعطى الا لمن يستحقها ، لمن يثبت بالفعل والقول ، وبالفعل أكثر من مجرد القول ، انه يستحقها . والا لاختلط الحابل بالنابل ، ولتساوى الظلمة والعادلون ، ولما اضحى للخير معنى ولا جدوى ، مادام يحصل الاثمة بالغفران على مايحصل عليه العادلون . فما أسهل اذن أن تلغ فى الرذيلة ، حتى تشبع ، ثم تقرر أنه آن الاوان أن تتوب ، فتحصل على التوبة . »

أجل ، لابد كى تحصل الهام على مغفرته ، أن تعترف له بأمور كثيرة ، وأن تعتذر عنها ، وأن تقسم ألا عودة الى ماسبق أن مارسته. وكل هذا احتمال ضعيف وافتراض واه .

قال لها :

— ان عيوبك كثيرة ، يا الهام .

نظرت اليه بفضول ، وسألته :

— قلها لى .

ابتسم ولم يجب .

الحت عليه :

— أرجوك ، قلها لى .

لزم الصمت ، وهو يفكر فى هذه العيوب .

قالت له :

— صحيح ، أريد أن أعرفها .

ضحك وقال :

— خبرتى بالنقد علمتنى أن احتفظ بعيوب الاخرين أحيانا لنفسى .

قالت له بدلال ، لم يخل من خيبة أمل .

— اذن ، احتفظ بها لنفسك . لا يهمنى .

قال لها مسترضيا :

— عيوب المرء تنقلب فى بعض الاحيان الى محاسن .

ـ انت مراوغ ، وانا لا احب المراوغين . على الدوام كنت صريحة .

بعد قليل قالت له مترددة :

ـ هل ستأتى معنا اذن الى الرحلة ؟ ستنتظرنا العربات فى ميدان التحرير الساعة السابعة سيكون معنا أيضا بعض السينمائيين من الاقطار الشقيقة ، ومنتج ، ومخرج ، وبعض المساعدين .

ـ لا اعتقد انى سأحضر .

ـ اذن ، تريد أن نلتقى وحدنا . أعرفك .

ـ وحدنا ، لك ذلك موعدنا فى الخامسة يوم الجمعة أمام المتحف . ولك ان تأخذنى اينما شئت . نجلس سويا ، ونتحادث .

ثم استطردت تقول :

ـ آه ، فليكن موعدنا ليس الجمعة التالى بل الذى يليه .

لم يكن ذلك مجرد موعد لهو ، بل كان لقاء للاعتذار وربما أيضا للافصاح والتصريح . وهذا ما كان ينتظره ماجد ، ويأمل فيه .

ـ ١٣ ـ

دقات ساعة قديمة من بعيد . لا يذكر بالضبط كم كانت دقاتها . يأتى وقت يكون الزمن امتدادا لا تحسبه الساعات . ضوء الفسق ذرات بنفسجية باهتة ، يملأ حيز الغرفة من حول أمينة .

لمحها تقف أمام صورة الشهيد ، مستغرقة فى صمت خاشع ، كما لو كانت فى صلاة . ابتسامته مثل سيف مشرع ، تهمس شفتاه بشتى الاجابات ، وتطرد وداعته المخاوف . تجلب ذكراه الان قليلا من التأثر لكنها ماعادت تجلب حزنا ولا ألما . وعلى العموم ، فقد كان اسمه يجلب احساسا بالفخار دوما .

اقترب منها ماجد . تعلقت عيونهما بصورة راضى . الابتسامة على شفتيه ، وعزة النفس فى ناظريه . هكذا فى سبيل وطنه استشهد . حارب من أجل مثل أعلى .

تذكر عينيه على الاخص ، عينين مثل واحتين ظليلتين . كلا ، ليس ثمة مايوجب الحزن الان ، بل هناك سكينة كبيرة تعم القلب ، وامتنان عميق . اندمل الجرح على مر الوقت . يكاد يكون من الصعب على كثيرين بعد كل هذه السنين أن يتصوروا أن مصر ـ كل مصر ـ

خاضت مصر بضع سنوات حربا قاسية ضروسا . كان يجب أن يدفع الثمن أحد من أجل مصر ، وقد دفعه عن طيب خاطر ، برباطة جأش وايمان . زهرة من أغلى ابنائها .

ابتسمت :

ــ وربما كان فى عالم افضل .

تحملت الصدمة بشجاعة ، منذ اليوم الذى جاء فيه التقرير باعتباره من المفقودين على أثر المعركة الجوية فوق الممر .

فى بعض اللحظات كانت تفقد ــ رغم كل شىء ــ القــدرة على مواجهة الحياة . بدونه يغلبها شعور لا تقوى على صده . تريد أن تكون معه . ولو فى قبره . ولكنها عودت نفسها الا تشكو . تعلمت ان تؤمن بأنه قد يكون هناك حكمة من وراء ذلك كله ، وراحت تكتم ألمها . لقد ارتضى زوجها من الاصل التضحية ، وتعلمت من بعده ان التضحية لا تنتظر اجرا ، لا تنتظر من الاخرين رثاء أو شفقة . فقط فليتركوها وشأنها .

ومع الايام ــ ولم تكن سهلة ــ بدأت تفيق من الصدمة . أخذت النار فى قلبها على مر الشهور والسنين تبرد ، لكنها ماكانت تحتمل أن تتصور أن راضى قد طواه النسيان .

ــ ١٤ ــ

دخل مكتب الاستاذ شفيق . وجده يتحدث فى التليفون غاضبا منفعلا مع رئيس المطابع . يلومه على تأخيره فى جمع احدى المقالات ويؤنبه على خطأ وقع من العمال فى توضيب الصفحات . « سيصدر العدد بعد باكر ، ومازالت المطبعة تتلكأ . مســئولية من ســتكون هذه ؟ اجبنى ، ياأسطى متولى ! اجبنى ؟ »

لم يتنبه لدخول ماجد . وضع السماعة بعصبية ، ومســح العرق من على جبينه بمنديل ورقى . جاء وجلس فى الكرسى المقابل لماجــد .

اعتذر لضيفه وقال :

ــ انا هنا فى عذاب . كل اسبوع هذه المعاناة . انها حقــا طاحونة تطحن عظامى طحنا ، ولا أحد يفهم أو يهتم . وددت أن تفهم ، أنت على الاقل .

اطل من الباب فتحى الشفقى ، وقال لشفيق :

ـ مرحبا ، بالفارس الشجاع .

كان على الدوام يناديه بالفارس . وقد اخبره شفيق بقصته . كيف انه القى بالمعتقل مايقرب الاربع سنوات لانه بالمصادفة جلس بمقهى « سان سوس » بالجيزة ومن حوله صحفيون يطلقون النكات على بعض المسئولين . لم يشارك فتحى الشفقى فى الحديث بكلمة . اخذ بجريرتهم ، لانه لم يعترض ومن ثم اعتبر موافقا ! وقد عانت اسرته الامرين بعيدا عنه . ثم عندما خرج منع من الكتابة ، واقتصر عمله على الارشيف . يستخرج منه ويعد المعلومات والصور التى يطلب منه استخراجها من ذلك القبو الرطب بأسفل مبنى المجلة . وصار هو والجرذان رفاقا أعزاء .

تركا وحيدين بالغرفة برهة . تمطى الاستاذ شفيق ، ومد ساقيه وذراعيه متثائبا . دخل صحفى بدين يتفجر وجهه بالدماء ، والقى نكتة عن الرياضة التي يحرر عنها بابا ثابتا مرصعا بنجوم الكـــرة وابطال كمال الاجسام والسابحات الفاتنات . ثم خرج . وترك الصديقان وحيدين من جديد .

قال الاستاذ شفيق :

ـ اننى لا اطمئن الى المتفائلين ولا الى السعداء . لا اعتبر نفسى منهم واتحاشاهم . انهم لا يعطوننى الا نصائح وتوجيهات جوفاء . اعتبر نفسى لصيقا بالتعساء وبمن فى الغد لا يأملون ، ويكتفون بأن يعبروا لحظتهم الراهنة . أعيش حياتى لحظة بلحظة . وهــذا يكفينى . اتواجد فحسب ، وادافع عن نفسى عند اللزوم . أسـلم ازاء الحياة ابتداء ، وتسليما تاما ، بالهزيمة .

نهض ، ذهب الى الباب ، فتحه ، واطل منه الى الردهة . ثم عاد يجلس الى مكتبه . أردف قائلا :

ـ لقد فككت الارتباط بينى وبين الحياة ، وفككته بلا عودة . وطدت العزم فى كل لحظة على أن أهرب ، أن أتخلص ، ان أفلت ، أن انجو بجلدى .

أشعل سيجارة ، وتاهت نظراته برهة فى فضاء الغرفة :

ـ أفكر أحيانا فى الانتحار ، لكنى اخافه ، عندما أسمع عن احد انه انتحر ، أقول « الدنيا بخير ، فمازال هناك من لديهم احساس وبقية من دم » .. لن تفهمنى اذا كنت سعيدا أو متفائلا . ولكنك تفهمنى أعرف كنهك . لا تغضب منى ..

نهض وجاء يجلس فى المقعد المقابل لماجد :

ـ ومن أجل خاطرك . سألطف أفكارى . معذرة اذا قلت لك انى لا آمل فى المستقبل . ربما كان الاكثر دقة أن أقول لك الامل ضئيل فى المستقبل . يكفى ان نعبر اللحظة الراهنة ، وهذا فى حد ذاته شيء كبير . أم نفضل أن أصحح افكارى فأقول لك الحقيقة كلها ؟ اننى أومن بالله ، واسلم امرى وأمر ابنتى له . ولتكن مشيئته . الكأس التى يعطيها لى الرب الا اشربها ؟ هذا افضل واكرم ، وان كان الامر فى النهاية سيان . انى لا اثق فى احد ، لا اعتمد على احد . لا أطمئن الى احـد .

ضحك ماجد وسأله :

ـ ولا الى أنا ؟!

استدرك شفيق . وقال :

ـ أنت شيء اخر . اعتبرك قطعة منى ، من عالمى الداخلى .

استطرد عائدا الى مواجعه :

ـ ماتت مى زيادة فى مصحة للامراض العقلية ، رغم ان من حولها كانوا أفاضل . كان بامكانها أن تتزوج جبرانا وترتاح ، لكنها تركت الاخرين يطاردونها ، وراحت هى تطارد نفسها حتى ماتت غريبة منفية نفيا اختياريا ، وهذا ما أخشاه على ابنتى الهام . عندما قلت لها « واذا مت أنا ؟ هل سأتركك وحيدة فى هذه الدنيا الظلماء ؟ » صرخت فى وجهى أول الامر ، وقد وضعت يديها على أذنيها تسدهما قائلة « لا تحدثنى عن الموت » ثم عادت تبتسم ابتسامتها تلك التى تعرفها ، الابتسامة الصبيانية المحيرة ، وقالت « لا تخشى على .. أنا قادرة على أن أواجه الدنيا بكل رجالها » ثم التفتت الى وقالت « الا تقصد انك تخاف على من ذئاب الرجال ؟ » قلت لها « ليس خوفا عليك فحسب ، بل ورغبة فى الاطمئنان عليك » قالت ببراءة تفيظ « أطمئن .. انا على خير حال ، الان وفى كل أوان . » قلت لها « أريد أن يهدأ بالى قبل أن أغادر دنياى هذه » قالت « تقصد أن ترانى متزوجة . أليس كذلك ؟ » قلت لها « وماذا فى هذا ؟ » قالت بعناد « ليس لك شأن بى »

ـ ١٥ ـ

دقّ التليفون . كانت كاميليا . مكالمة غير متوقعة . لا يريد

الاستماع الى هذه الفتاة . وهم ان يضع السماعة . تردد . ربما حملت اليه انباء او القت ضوءا . قالت له :

ــ اريد ان اقابلك .

لم يجب . استطردت تقول :

ــ لدى ما اقوله لك .

سألها ، بغير ترحاب :

ــ امر هام ؟

اجابت :

ــ لا استطيع ان اخبرك فى التليفون .

اراد ان يعتذر . ابتدرته قائلة :

ــ الامر يخصك .

كانت تتكلم باقتضاب . فهم ان الامر يتعلق بالهام ، وان كاميليا تريد ان تخبره بسر عنها او ربما تحمل اليه منها رسالة على نحو ما . كان الامر مريبا ، لكنه كان لا خيار له . اما ان يرفض المقابلة ، ومن تم ينغلق عليه ان يعرف واما أن يقبل كى يتوصل الى ما خفى . سأل :

ــ اين ؟

ــ ما رايك عندى فى « الاتيليه » ؟

لم يتحمس لذلك . عاجلته قائلة :

ــ لا تخش شيئا . لن يكون هناك احد غيرنا .

سأل بتوجس :

ــ والهام ؟

ــ على الاخص لن تكون هناك الهام .

ــ ستكون المقابلة اذن على انفراد ؟

ــ يهمني ذلك ، فالامر الذى اريدك فيه يحتم السرية .

ــ ما رايك فى السابعة ، هذا المساء ؟

ضحكت وقالت :

ــ نحن الفنانين لا تناسبنا هذه المواعيد الباكرة .

ــ اذن فليكن ميعادنا فى العاشرة .

ــ حسنا . هل تعرف العنوان ؟ بعد الاوبرج على اليمين .

استقبلته بثوب منزلى طويل . تماوجت على قماشه زهور وحشية حمراء ، تركت شعرها الاصفر منسدلا على كتفيها ، وخففت المكياج فبدت عيناها أقل جحوظا . كان واضحا انها أمضت الوقت تنتظره وهى تشرب .

أجلسته فى البهو الدائرى الكبير الذى تطل عليه غرف البيت . دعته الى تناول قدح من الشراب معها فاعتذر بأدب .

قالت له :

ـ سأريك اعمالى اولا .

رصت لوحاتها فى أرجاء البهو . وراحت تنتقل بينها . استعرض أعمالها ، علاقات حب ، أساطير ، اغتصاب ، خطف ، فتيات عاريات ، جالسات ، راقدات ، راقصات الجسد الانثوى فى تأججه وعنفوانه . الخطوط قوية والالوان ساخنة ، والصنعة محكمة . اليد التى ترسم وتلون ماهرة ومدربة ، ولكن هناك على اى حال شىء ينقص هذه الاعمال . يضعف من قدرتها على الاقناع . شىء عطن ، رخو ، رغم جمالها الظاهرى . ماهذا الشىء ؟ لم يكن من السهل التعرف عليه توا . ما الذى تريد ان تقوله هذه اللوحات الحسية ؟ ما الذى تقدمه ؟ نرجسية فحسب ؟ جهد كثير ، وقليل جدا من الجدوى . وفى النهاية ، عناء بلا طائل .

تمهلت نظراته عند لوحة فتاة تمسك فى راحتها عقربا . وقد قربته من خدها بحنان .

لاحظت نظراته . ابتسمت وقالت :

ـ العقرب جميل . أليس كذلك ؟

لم يجبها ، ومضى يجيل نظراته فى أرجاء اللوحة . أردفت تقول :

ـ على اى حال ، فهذه اللوحة ليست لى . انها من اللوحات القليلة التى رسمتها الهام .

علق ماجد قائلا :

ـ لكنها غير مكتملة .

قالت ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى الهواء بقوة :

ـ انها لا تكمل شيئا . تبدأ عملا لتتركه الى غيره . لا يستقر لها قرار .

تأملته مليا ، ثم قالت بصوت نمت نبراته عما تكنه لصاحبتها :
ـ ذات متضخمة . شخصية مطموسة .
لم يعلق على قولها بشيء .
جلست الى جواره .
ـ اعجبتك لوحاتي ؟
قال مجاملا :
ـ انت قديرة .
سألته :
ـ عرض عليك رامز عضوية اللجنة ، فلماذا رفضت ؟
اجاب قائلا :
ـ انا ناقد ، ولا احب ان يرشوني احد .
ـ انا التي طلبت منه ذلك ، لمصلحتك ولمصلحتي ايضا .
فتحت عند الصدر ثوبها ، ورفعت شعرها المصبوغ . وقالت له :
ـ الجو حار .
اقتربت منه .
نظر الى الابواب الموصدة من حوله . سألها :
ـ فيما كنت تريدينني ؟
التصقت به ، وقالت متوسلة :
ـ اني استنجد بك .
لفت ذراعها حول رقبته ، وقالت له :
ـ انقذني .
احس انفاثها الثملة تحرق وجهه . اضحت عيناها اشد جحوظا . قالت متهدجة الصوت :
ـ لا اريد برهاما .
كانت تضغط عليه الآن بكل ثقل جسمها الدافيء . مال على الاريكة الى الوراء مبهور الانفاس اطبقت على شفتيه ، وقبلته بشدة ، وهي تتمتم الكلام مقطعا :
ـ اريدك .. اريدك انت .. ماجد ، ماجد ، أريدك !
احس بجسده يشتعل ، وقد راحت تتوسل اليه ، وتتاوه .
قرر ان يتمالك نفسه . دفعها الى الوراء بحزم ورفق . وقال لها :
ـ اهدئي .. اهدئي ..
ابتعد عنها .. مدت ذراعيها تحاول ان تطوقه من جديد . كانت الخمر التي راحت تعبها قبل مجيئه قد لعبت براسها . يعرف انها

بذلك نلقى به فى مأزق صعب ، واذا لم يتصرف بحكمة ، فقد تتأزم الامور ، ويتورط فيما لم يكن قد عمل له حسابا ، عليه أن يتصرف بحرص ، فهو امام حيوان مفترس جريح ، مما يزيد من ضراوته .

زحفت على الاريكة نحوه . فحت قائلة :

ــ خذنى .. خذنى اليك .

نهض واقفا ، سقطت من الاريكة على الارض . لفت ذراعيها بشدة حول ساقيه .

قال لها معاتبا :

ــ البست الهام صديقتك ؟

رفعت اليه وجهها ، وقد تصبب جبينها عرقا ، والتاثت نظراتها :

ــ انت تعنينى اكثر منها .

جال ببصره فى أبواب الغرف الموصدة من حوله سمع جلبة صغيرة من وراء احداها .

هبت صارخة :

ــ تعتقد انها هنا ؟

هجمت على الابواب تفتحها :

ــ انظر ، تعال ، انظر ، لا احد هنا .

صاحت :

ــ هذا البيت لى انا وحدى . لا أحد له فيه شىء .

تراجع ماجد نحو باب البيت ببطء ، وقال لها :

ــ كاميليا ، لا أستطيع . يجب أن تعرفى ذلك .

باضطراب وغيظ اجابت :

ــ تعوقك عنى الهام . تقف حائلا بينى وبينك . اذن ، يجب أن تعرف انها من صنع يدى . اذهب ابحث عنها بين ذراعى من هى.

كان ينزل درجات الشرفة عندما سمع من الداخل نحيب المرأة الثملة التى جرحت فى كبريائها الانثوى ، وصوتها المقهور يقول :

ــ ستدفع هى وانت الثمن غاليا . سترى .

ــ ١٧ ــ

حمل اليه مقالته عن معرض احمد زغلول . كان الاستاذ شفيق عائدا توا من تشييع جنازة رجل الاعمال ادهم محفوظ . القى نظرة

على المقال . من خلال موضوع البحر وصياديه وطيوره عبر الفنان عن اشجان قلبه . يتلاطم الموج فى ليل اسود . ومن قمر داخلى تنعكس على اديم البحر أضواء حانية قلقة . رفع عينيه الى ماجد وقال :

ــ اعرف ان سيف وانلى اتصل بى شخصيا ، واننى على مقالتك التى نشرتها فى باب « حصاد الالوان » فى العدد الماضى ؟ قال انك احسن من كتب عنه .

كانت ادارة المجلة خالية من الموظفين . وكان رئيس التحرير العجوز ذو الشعر الابيض يحس بالضجر ، ويريد ان يفصح عما بداخله من اشجان . فتح قلبه لماجد ، وحدثه عن مشاكله ، وعلاقاته بذوى النفوذ ، وبالرقابة ، وبعض الاجهزة . واردف يقول :

ــ اننى بحاجة الى بعض الحماية فى هذه الايام . أدهم محفوظ الذى مات كان سندى .

ــ كل من يحيط بك من الادباء والفنانين يحبونك ويؤازرونك.

ــ اى ثقل لهؤلاء جميعا فى ميزان القوى ؟ انت لا تعرف مع من تتعامل .

ابتسم ماجد كما لو كان يفهم .

قال له شفيق :

ــ كلا ، كلا ، ابدا . افهم ماذا يدور بخلدك ، اعرف كيف اقرأ الافكار قبل النطق بها . ولكن ابق انت فى حالك . ابتعد عن التيارات العطنة . تكفيك هــذه الكلمات النقية النبيلة وغير المفــرضة التى تكتبها . انت هاو ، وربما جنت هوايتك على مهنتك . اتمنى أن تعود فتكرس وقتا أطول لطبك . مرضاك فى حاجة اليك . الفنانون الذين تكتب عنهم ــ الفنانون الجادون اقصد ــ هم ايضا بحاجة الى كلماتك، لكن هؤلاء ــ اسمع كلامى ــ غرقى يتشبثون بعنق من يتطوع لمد يد النجاة اليهم ، وربما اغرقوه . احترس منهم ولنفسك . اننى اعتبرك ابنى ، بل انا فى حاجة اليك حقا . قلما التقيت بشبان نظيفين مثلك .. الكل واقعى قذر ، اما انت فرومانسى لم تتدنس . ابق رومانسيا يا دكتور ماجد قدر امكانك ، فانت لست من هذا العصر ، وليس من الشرف كثيرا لاحد ان ينتمى بشدة الى هذا العصر .

ــ هلْ انا رومانسى ، يا استاذ شفيق ؟ هلْ تعتقد فى ذلك حقا ؟

ـ ولهذا ادخرك لمهمة لا اظن انك ستخذلني فيها . مثاليتك واخلاقك هي ما يجذبني اليك ، وأيضا ما يجعلني محتاجا اليك .
ـ تحت امرك يا استاذ شفيق . انت تعرف كم أقدرك بدوري.
حدثه الصحفي العجوز عن الغيوم التي تتجمع في الجو ، وتنذر بعاصفة قد تكتسح عديدا من الصحفيين . وفي مثل هذه العواصف يكون الكتاب الشرفاء اكثر من يتعرضون للاطاحة . قد يبدو لنا في شبابنا ان السياسة والاخلاق متآخيان ، ولكن كلما تقدم بنا السن اكتشفنا ان الاخلاق مطية ، واذا لم توصل الى الغرض المنشود لوى عنقها .
ـ اتعرف من يلوى الاعناق ، يا دكتور ماجد ؟
تناول من انبوبة دواء قرصا ورشف من كوب الماء رشفة طويلة . ثم قال :
ـ لو انك حضرت جناز ادهم محفوظ رئيس اتحاد البنوك لعرفت .
بعد برهة صمت سأله ماجد :
ـ لماذا لا تعتمد على رامز سليم شقيق كاميليا ؟ انه اليد اليمنى للوزير .
أجابه الاستاذ شفيق ، وهو يسحق عقب سيجارته في المطفأة العريضة التي طبع عليها شعارا من الشعارات السائدة :
ـ انه يحاول ان يجيء تشكيل اللجنة التي تعيد تقييم الصحف والمجلات من أعضاء موالين له ، ولكن بيني وبينك ستحل الوزارة الليلة وستشكل وزارة جديدة . لا أعتقد أنه سيكون لرامز فيها من يسندونه بل أعتقد أنه في طريقه الى ان ينتقل من قطاع الارشاد تماما .
ثم عاد يقول مستطردا :
ـ على أنني لا أجهل ما لهذه العناصر التي تتعاون مع اجهزة الامن من نفوذ خفي يظل يطبع بصماته ويلقي ظلاله ولو من بعيد ، فليس من السهل على اجهزة الامن أن تستغني عن خدمات شخص مثل رامز .
صمت برهة ، وقال بصوت متعب :
ـ وهو على الدوام يصطاد في الماء العكر ، ولا يسند احدا لا مصلحة له فيه .
سأله ماجد :

ــ ولماذا هذا التغيير الوزارى ؟
ــ لاخفاء الرغبة فى الاطاحة بوزير واحد ، لكن حتى لا يبدو الامر للعيان ويثير التساؤلات ، ستقال الوزارة كلها ، وستعود كثير من الاسماء الحالية الى مقعدها او الى مقاعد اخرى فى الوزارة الجديدة ، لكن المهم فى كل ذلك بالنسبة لى أن موقفى بدأ يهتز . منصبى كرئيس تحرير لهذه المجلة قد افقده . الطامعون فيه من الأذناب كثيرون ، ويبدو أن خصومى فى تزايد . اتعرف لماذا يا بنى ؟ لأننى عارضت أن أنشر على صفحات مجلتى لأقلام ملوثة ، فوجدوا طريقهم الى صب نقمتهم فى آذان بعض المغرضين من ذوى النفوذ . ولك أن تعرف أن أصحاب النفوذ ليسوا أولئك الاسماء الظاهرة ، بل هم اسماء تتحرك من وراء الستار ، وتحرك كل شىء من هناك .
نهض الاستاذ شفيق وجال جولة سريعة منقبة فى حجرته . ثم عاد الى مقعده يقول :
ــ اخشى التسجيلات .
نفض بعض الرماد كان قد تساقط من سيجارته على مسودات امامه ، وقال :
ــ على حلمى زميلنا الذى كان مقربا من الرياسات العليا أصيب بسكتة قلبية أودت به . قالوا انه أصيب بارهاق ومات شهيدا للواجب ، ولكن هل تعرف بأى ارهاق أصيب ؟ ارهاق نفسى . صراع داخلى بين اضطراره الى الكذب فيما يكتب وعدم رضائه عما يكتب .
مال الاستاذ شفيق الى الوراء فى كرسيه المتحرك ، وقال :
ــ تبدو مهنتنا للناس وردية ، وهى فى حقيقتها دموية . نحن مثل آكل النيران ، أو زامر الثعابين . آسف ، بل نحن الثعابين ولكن من الزمار ؟ آه ، يا صديقى ، لو تعرف ، بل لا داعى الى أن تعرف .
بعد برهة صمت ، مال على مكتبه نحو ماجد ، وقال له بصوت خفيض :
ــ يجب يا دكتور ان تعرف لعبة الاقنعة . وويل لمن لا يعرف قواعد اللعبة ، أو يحاول أن يزيح بشطارته قناعا من الاقنعة ليكشف الوجه الذى وراءه . يجب أن تسمع فحسب ما يقوله الفحيح الوافد من وراء القناع . وتحاول أن تستنتج من ذا الذى يصدر من وراء القناع اوامره ، وأن اتخذت صورة نصائح وتوجيهات ، وعلى قدر ما تصيب

فى استنتاجاتك تنجح فى اللعبة . وقد طرأ بعض التحول فى اتجاه الريح ، بعد الاحداث الاخيرة ، واختلت تبعا لذلك بعض المراكز ، لكن اولئك الذين تخلخلت مراكزهم يحاولون تدعيمها . وسينجح البعض ، وسيخفق البعض فيسقطون ويطويهم النسيان ، وربما لحقهم بعض السوء والايذاء ايضا . ولكن من المرجح أن البعض سينجحون فى تثبيت ما اختل واستعادة ما فقدوه . وهؤلاء عندما يعودون سيكونون أشد ضراوة . كما أن اصحاب النفوذ الجدد سيكونون صارمين ، فى أول الامر على الاقل . لكل غربال جديد شدة ، يا دكتور ماجد . وانا كما لا اخفى عليك واقع بين فكى كماشة لا ترحم . بعض ممن يسندوننى فقدوا نفوذهم الى غير رجعة ، والبعض ممن سيبقى سيتخلى عن القدامى بحجة تطعيم الصحافة بدماء جديدة ، ولكن الاصدق أن يقال بصفة عامة انهم لا يريدون لأحد أن يشتد عوده أكثر من اللازم أو أن تتغلغل فى الارض جذوره ، ولهذا فلابد أن نقتلع الجذور بين الفينة والفينة ، وتحرث التربة .

ــ مهما حدث ، فلتعتمد على ، يا استاذ شفيق . مكانتك فى قلبى لن تتزعزع .

ــ اعرف عواطفك نحوى .

ــ وستمر هذه الازمة . سترى .

ضحك الصحفى العجوز ، وقال بلهجة الخبير المحنك :

ــ انها ليست أزمة بالمعنى الدقيق ، يا بنى . اننى فحسب احتاط لنفسى واتحفظ .

ثم اشعل سيجارة ، وقال :

ــ اتعرف ؟ فى الصحافة سوق سوداء مثلما فى كل شىء . أحيانا افكر أن أذهب للعمل بالخارج . ولكنهم لن يتركوننى . وأيضا أن شئت الحق أنا لا اريد أن اعمل الا هنا ، فى بلدى .

قطب جبينه . وطفح على وجهه هم ثقيل ، واردف يقول :

ــ ثم هناك ابنتى .

قال الدكتور ماجد بلهجة مخلصة :

ــ أعتقد يا أستاذ شفيق انه آن الاوان أن تتزوج الهام .

ــ انك على حق .

ــ استبيح لنفسى ان اقول هذا .

ــ أجل ، أجل ، يا بنى . أفهمك ، بل واشكرك على إهتمامك بأمر الهام .

ليس ثمة ما يشغلني اكثر من ذلك .

قال ماجد بلهجة جادة ، وصوت داخلته الجهامة :

ـ لست بالاب الذى لا يحرص على صالح ابنته .

ـ بل ان مستقبلها بدأ يؤرقني ، يا ماجد . انها لا تدرى ما الحياة . تأخذ هذه المسكينة الأمور باستخفاف يضايقني . كما انها لا تستطيع أن تفهم طبائع الناس ، ولا ان تتبين ما تضمره النفوس من نوايا سيئات .

خبط الاب العجوز المكتب بقبضته :

ـ اقول لك الحق ، أشعر أحيانا انني لم أفلح فى تربيتها على النحو الذى أرجوه ، لكنني كنت على الدوام مستغرقا فى عملى . عملنا لا يرحم . لا يترك لنا دقيقة واحدة لانفسنا . يلتهم أيامنا كلها . كم من ليلة قضيتها ما بين المكتب والمطبعة حتى الفجر . لم يعد عملنا البحث عن المتاعب بل صد المتاعب . الشهر الماضى سقط زميلنا الاستاذ نجاتي مشلولا . نصفه الايسر كله ما عاد يستطيع أن يحركه . لماذا ؟ توترات شخصية بسبب مواقف سياسية حاصرته ولم يستطع أن يتجاوزها .

تنهد العجوز ثم قال :

ـ كما انني كنت على الدوام ضعيفا امام الهام . لا ارفض لها طلبا او نزوة . دللتها كثيرا كي أعوضها عن فقد امها . تركتها تكون لنفسها وسطا تتنفس فيه حتى لا تموت من الضجر . ولا اعرف ما اذا كان هذا الوسط مناسبا لها أم لا . وسط السينما هـذا لا يعجبني انها تريد أن تصبح نجمة ، واخشى عليها من فداحـة الثمن . انى أفتح لك يا بنى قلبي .

اسند جبينه المغضن على راحة يده المرتعشة . تنبه الى هذه الرعشة فدس أصابعه فى شعره الابيض الغزير الاهوج ، كما لو كان يريد أن يخفيها هناك . كانت عيناه حزينتين ، وعلى وشك ان تنفطر دموعهما .

ثم أردف يقول ، بعد قليل ، بصوت لا يخلو من تهدج خفيف :

ـ الكارثة الحقيقية التى أصابتنا انا وهى ، هى وفاة امها ، صدق من قال أن اليتيم هو يتيم الام . الاب على الدوام بعيد عن الاولاد ، يوجد بينه وبينهم ، ربما دون ان يريد ذلك ، مسافة .. اما الأم فهى القريبة الى قلوب الاولاد ، هى التى تفهمهم ، واليها يبوحون بأسرارهم ومشاكلهم ، ولها يعترفون بهمومهم .. هى التى

تسهر عليهم ، وترقب ادق تغيرات تطرأ على نفسياتهم ، وقد حرمت الهام من امها مبكرا فارقتنا بدور ساعة ان جاءت الهام الى الحياة . لذلك شبت الهام على نحو ما غريبة الاطوار : براءة تحير ، وتهور يفجع . فى بعض الاحيان أقول لنفسى ــ وبالاخص فى لحظات موغلة من الليل ــ ماذا سيحدث لصغيرتى ، لو فجأة طوانى الموت ضمن من يطويهم كل يوم ، بل كل ساعة ؟

تصدى الدكتور ماجد لمواساته فقال :

ــ عليك ، ان تتغلب على احزانك ، وتشد عزيمتك ، يا استاذ شفيق . فاتحها فى الامر . اعرض عليها الفكرة .

قال له الاب بمرارة :

ــ ماذا أعرض عليها ؟ اى زواج ؟ أى عريس ؟ حتى لو اردت شيئا فلن أقوى أن أفرضه عليها . أعرف انها لو لم تتزوج بمحض اختيارها وبمن تختاره هى ، فسرعان ما سيتحطم هــذا الزواج . وستكون النتائج وبيلة . ربما لن أكون آنذاك على قيد الحياة ، ولك أن تتصور اى بالوعة ستبتلع ابنتى الوحيدة ، لا لا أجرؤ على ان أتخيل الأمر .

ــ لم اقل لك ان تعرض عليها اى رجل . لابد أن لها افضليات . لابد انها تميل الى شاب أكثر من غيره .

ــ كنت أتحدث اليها اليوم . انتهزت حالة بدت عليها منــذ بضعة أيام . عرضت عليها الموضوع اول الامر عرضا عاما . ثم عرجت على موضوع الزواج فهى أول الامر تظاهرت بأنها تضحك . كانت مكدودة . شىء ما يحزنها . لكنها أرادت أن تتظاهر بأن الامر لا يعدو أن يكون مزحة . عرضت عليها بعض الاسماء التى أراها مناسبة . رفضتها جميعا . أفهمتها أننى لست راضيا عن موقفها هذا ، وان أعراضها عن الزواج فى حد ذاته يؤلمنى . فتخلت عن التظاهر بالمرح . قطب جبينها ، وشحبت وجنتاها . ظللت احادثها فى الامر ، وقد حط عليها اليأس ، وفى النهاية صرخت « لا أستطيع ، كفى . دع هذا الموضوع الآن . اتركنى فى حالى . ربما فيما بعد اغير الرأى . »

قال ماجد :

ــ قد يكون فى بالها شخص بعينه .

ــ فكرت فى هذا أيضا . سألتها . حاولت أن انتزع سر هذا الشخص . أيا كان هذا الشخص سوف اذهب اليه . ولو كانت ثمة

ءثبات لبذلت المستحيل لتذليلها . ولكن لم يكن هذا هو الامر ، فليس ى حياتها رجل بعينه ، والا لأخبرتنى به .

ـ اذن ، ربما رويدا رويدا ، غيرت رايها ، وعرفت انها على خطأ .

ـ الشيء الذى لا يساورنى فيه شك ان الهام اذا ما تزوجت فستتزوج الرجل الذى سيروق لها ، والذى ستتأكد انه يريدها من كل قلبه . او ان شئت الدقة الذى ستريده هى من كل قلبها .

نظر الاستاذ شفيق الى ساعته . كان عليه ان يذهب لحضور اجتماع لرؤساء التحرير فى النقابة . نهض ، وقال لماجد :

ـ انى اسعد على الدوام بلقائك . مكتبى مفتوح لك ، وقلبى ايضا . ليس لى غيرك أستطيع أن ابوح له بهمومى .

سارا الى السلم معا . قال الاستاذ شفيق .

ـ ستخرج الهام غدا فى جولة مع بعض السينمائيين .

ـ رحلة اخرى الا تشبع من الرحلات والمقابلات والزيارات ؟

ـ ارجوك ، اذهب معها . انت ..

توقف عن اكمال عبارته . ثم قال :

ـ لا اعرف ماذا اقول لك .

نظر اليه ماجد نظرات مستفسرة ، فأجابه العجوز قائلا :

ـ أعتقد انها تخصك أنت بتقدير خاص . انها تظهر اهتماما بك وتثق فيك .

ـ يوم الجمعة سنخرج معا انا وهى . ارجو الا تقول لهـــا شيئا . اريد ان افاتحها فى بعض الامور .

اضاء وجه الاب الحافل بالتجاعيد ، فرحا ، وقال :

ـ هل وعدتك بذلك ؟

ـ بل هى التى عرضت على .

ـ انى أبارككما . لا تعرف كم يسعدنى ذلك . اتمنى أن تتلاقيا كثيرا . ستبعدها عن هذه الشلل .. لا اقول سوءا عن أصـدقائها ، ولكن ابنتى ليست لمثل هذه الشلل . ليس هذا ما أريده لها . انها قلب برىء ، نبت اخضر طرى ، عجينة لينة ، ومن السهل أن تقلد ، وأن تنقاد . لو اهتممت أنت بها ربما نفعتها . فلنأمل خيرا . انك تعرف عواطفى نحوك ، ولكن لا أملك من أمر ابنتى شيئا . قلبها ملك خالص لها . أليس ذلك محزنا ؟

بزلا درجات مبنى المجلة . قال له الاستاذ شفيق . وهو يمسك بيده مصافحا :

ـ تعال ، آخذك الى حينما تريد الذهاب .

اعتذر ماجد عن مرافقته . كان يريد أن يخلو الى نفسه بأسرع وقت . قلبه ملىء بالعواطف المتنازعة ، ويريد أن يعيد تقويم حساباته .

ـ ١٨ ـ

كان الدكتور ماجد قد طلب من اخته أن توقظه مبكرا ذلك الصباح حيث كان مشغولا بالمستشفى . وعندما طرقت أمينة باب غرفته كان مستيقظا ، بل ومرتديا ملابسه وعلى أهبة الاستعداد للخروج .

كان قلقا منذ البارحة . ولم يتسلل النوم الى جفنيه الا لسويعات قصار . قضى ليلته يتقلب فى فراشه ولا يفارقه التفكير . كانت الاخطار التى تتهدد شفيقا فى منصبه ثم مخاوفه الشديدة على ابنته الوحيدة تملأ راسه ، وتصطخب فى قلبه أمواج من التساؤلات استمالت الى مايشبه كابوسا يضيق عليه الخناق . أبواب تختفى وراءها أروقة وسراديب . نوافذ يجهد بشر فى التسلق اليها ، وتتشبث أظافرهم بحوافها . هل هم مطاردون ينوون شرا أم أبرياء وادعون عن ملاذ يبحثون ؟ جو مشحون بلغز !

خرج ماجد مرحا خفيفا من غرفته داعبت انفه رائحة البن الذى كانت أخته تعنى بطحنه واعداده بيديها .

وجد تحت الباب الصحيفة التى يلقيها الصبى كل صباح . إنحنى يلتقطها وسار الى الشرفة الزجاجية ، وقد جرت عيناه دهشتين فى العناوين العريضة . تحققت مخاوف الاستاذ شفيق . حلت الوزارة واختيرت أخرى لتحل محلها ، وشكلت لجنة للنظر فى اجراء تعديلات فى مناصب رؤساء التحرير نتيجة الفضيحة التى كشفت عنها الجهات المسئولة فى شأن الاعلانات التى تنشرها بعض الصحف والمجلات ، ولمح الخبر المنشور بالصحيفة الصباحية الى ماسمته الفساد الذى استشرى بين العاملين فى جهاز حيوى من الاجهزة المملوكة للشعب ، وتقصد بذلك الصحافة . تذكر ماقاله له الاستاذ شفيق من أن حركات التطهير هذه انما تخفى فى كثير من الاحيان

بالرغبة فى التخلص من بعض الشرفاء الذين يكون من سوء حظهم ان تأتى عليهم لحظة يجدون فيها أن من واجبهم أن يقولوا لاصحاب النفوذ « لا » بل وفى بعض الاحيان يتوجس هؤلاء من أن الشرفاء القلائل قد لا يقولون بأعلى صوتهم « نعم » عندما يطلب منهم ذلك .

ضخمت المسائل ، وصورت على غير حقيقتها ، أو على الاقل حرف من أمرها حتى تجرى رغبات المسئولين الى اغراضها تحت ستار العاصفة الترابية التى تثيرها تهويلات غير صادقة ، ذكرت أسماء أعضاء اللجنة ، وقد فهم ماجد من مراجعة هذه الاسماء أن الكثير منها ــ على ضوء ماذكره له الاستاذ شفيق ــ من حاسديه وخصومه . اذن ، هل سيطاح بالعجوز الطيب الشريف ، وفى هذا الوقت الذى استبد به فيه القلق الشديد على ابنته الوحيدة ؟ احس ماجد فى قرارة نفسه أن الامر كأنه يخصه هو ، ويتعلق به شخصيا . قال له الاستاذ شفيق « من الناس من لايستطيع الحياة الا فى البرك العطنة مثل الخنازير ، وهم من حولنا كثيرون وبعضهم من أقرب المقربين اليك ، ولا تتنبه الى حقيقتهم الدنسة ، الا بعد أن يكون الاوان فى كثير من الاحيان قد فات . هناك من يطمع فى منصبى ، انه زوج أخت الوزير الجديد ، وهو مراوغ ومتسلق ، تنقصه الكفاية ، ولكنه يعتمد على زوجته التى ساعدته فى قفزاته الكثيرة . دودة هو تسعى فى الطين ، ولكنها تعرف كيف تشق طريقها ، ولديه أسلحة تعويضية عديدة . »

عندما أحضرت أمينة القهوة وجلست تصبها له ، سألته ما الذى جعله واجما هكذا ، فأشار لها الى الخبر بالصحيفة ، وقال لها «اقرئيه على مهلك ، وستفهمين » .

رشف قهوته بسرعة . ثم نهض يفتح باب الشقة ، وهرول نازلا ، فقد كان يومه حافلا ، وقد قرر أن يكرس وقتا أطول لمرضاه .

— ١٩ —

فى الطريق كانت تنتظره مفاجأة جديدة من مفاجآت الهام . بعد أن نزل من الاتوبيس ، وسار بضع خطوات لمح عند مفترق الطريق ، سيارة سوداء فاخرة من آخر طراز وقد جلس فيها بعض الشبان . كانت تتوسط المقعد الخلفى فتاة ، سرعان ماتبين انها هى برقبتها

[illegible] بشعرها الاسود الذى قصته مؤخرا ، وعينيها الواسعتين [illegible] اللامعتين بلمسة من الكحل الثقيل تزيد من هاتين العينين الرائشتين انساعا ، رآها ترتدى ثوبا صيفيا يكاد يكون عارى الكتفين ، تكشف عن ذراعيها الشعبانيتين وجزء كبير من صدرها . كانت تضحك للشاب الذى يجلس عن يمينها ، ولكن ليس فى خلاعة ، بينما أحاط الشاب الجالس عن يسارها بذراعه كتفيها ، وقد تركته يفعل ذلك بعدم اكتراثها المعهود ، لم يكن ثمة شىء بقادر أن يخدش حياءها أو ينتقص من براءتها وكأنها حورية من كوكب غير هذه الارض الترابية .

تسمرت عينا ماجد ، بينما مرقت السيارة الانسيابية الجديدة من امامه . لاحقها بنظراته حتى اختفت عن العيان فى زحمة الشارع العامر بالحركة ، وبأعماقه قلبه ينبض صائحا « الهام ! الهام » أهى حقا الهام ؟ أم أن عينيه تخونانه من كثرة مافكر فيها ؟ من هؤلاء الذين برفقتها فى السيارة ؟ انه لايعرفهم ، وهم ليسوا من شلتها القديمة ، أهى شلة جديدة كونتها أو انضمت اليها أخيرا ؟ وهل تعير هذه الفتاة أحدا اهتماما ، أو تقدم عن تصرفاتها ، بل قل عن نزواتها، حسابا ، ولا حتى الى ذلك الاب القلق المحمل بالاعباء والمسئوليات فى هذه الايام المشحونة بالاخطار الجسام على مستقبله الصحفى ؟

من هذان الشابان اللذان يجلسان الى جوارها فى السيارة السوداء التى مرقت أمامه كالسهم النافذ ؟ من ذلك الرجل الوسيم الذى يقود السيارة ؟ وذلك الاخر الجالس الى جواره ، طويل الشعر فى سواد لامع ؟ لم يكن فى الامر مايثير بصفة عامة ، لكن ماجدا أحس بداخله ماجرحه ، فقد كل مايمكن أن يتحمل به رجل من صبر ، وما عاد يحتمل أن يراها فى صحبة رجال آخرين ؟ لماذا ؟ وهل كانت قد ارتبطت به ، حتى يدعى لنفسه هذا الحق ؟ من كان هو بالنسبة لها ؟ انه أجنبى تماما ، ليس بينهما رابطة وثيقة ، ينحدر عنهما التزام . ألمجرد أنه يعرف اباها ؟ أم لانه التقى بها ، وتحادثا مرة أو مرتين ؟ أم تراه لازال يعول على تلك القبلة العابرة التى أوضحت له الهام أنها ماكانت تعنى بالنسبة لها شيئا ؟ ربما قبلها أيضا هذا الشاب الذى وضع ذراعه على كتفها بالسيارة ، أو ربما الاخر الذى يجلس الى جانبها من الناحية الاخرى سوف يقبلها قبلة من نوع قبلته . مجرد حدث عابر فى حياتها ، لا يحمل دلالة ولا مغزى . لكن ماجدا ، رغما عنه ، ماعاد يطيق أن يراها بصحبة رجال آخرين . اليوم مع واحد وغدا مع آخر . كلهم عابرون فى حياتها ، مثلما تحط

... على زهرة ، ثم تفتح كل منها جناحيها وتطير ، وتبقى الزهرة ... على غصنها ، كما لو لم يكن لأية فراشة وجود قط . تمنى ماجد فى هذه اللحظة أن يكون جمادا أو نباتا ، ولكنه انسان يحس ، ويتألم ، ويتوق أيضا أن يفرح ، ولكن فرحته بعيدة على مايبدو . وكلما اقترب منه الامل عاد يبتعد أكثر وأكثر ، حتى ليبدو سرابا ووهمــا .

تخبطت خطواته وسار على غير هدى سارحا قليلا . ثم رفع راسه وشد عوده ومضى الى العيادة قرر أن يغرق همومه فى أوجاع مرضاه .

ـ ٢٠ ـ

كان فى ذلك اليوم اكثر مواساة لمن جاءوا اليه يشكون أوجاعهم ويطلبون علاجا . جلبت ابتسامته ، رغم نظراته الشاردة ، عزاء للكثيرين ، وهو يناولهم الروشتة متمنيا لهم الشفاء . بذل مجهودا كثيرا كي يطرد من ذهنه قتامة انطباعاته عن الهام . ظلم شـــلتها السابقة ، فها هى تنغمس بسرعة وبساطة فى صحبة جديدة . ربمــا تكون عابرة ، لكن النحو الذى كانت تنفتح به على الناس فى براءة يحيره ويثير تمرده ، ربما على أى شىء ، وعلى كل شىء ، وليس عليها هى بالذات .

دق الجرس . طلب من الممرض القائم بخدمته قهوة سادة ، وامر الا يدخل احد من المرضى لبضع دقائق حتى يحصل على فترة راحة قصيرة من عناء الكشوف المتصلة .

أغمض عينيه برهة استجمام أخيرة . وفى الهدوء المخيم على ارجاء المكان سمع عويلا ، كأنه صادر من رجل يعذبونه فى جب سحيق . صاح الصوت قائلا « كانت لى ، وتريد الان أن تغتصبها . لم أعد احتمل مكائدك . خبرنى ؟ الم أزينها بأنفس الاحجار الكريمة وأغلاها ؟ الم أعدها بالمجد ، وسأحقق وعدى ؟ خبرنى اذن ، ماذا يرضيك ؟ ماذا تريدنى أن اعطيها ، وسوف أعطيه لها وازيد عليه . وانت سأجعلك ناجحا مرموقا . فقط ، لا تعص أمرى ، وتناولنى . سرت فى الغرفة أنفاس زخمة . دقت نافذته بجناحيها ومنقارها . بدت من وراء الزجاج معتمة . هبت ريح فتحت النـــــافذة على مصراعيها . اندفعت داخلة حومت فى أرجاء الغـــرفة . ارتطمت

بالسقف والجدران وتخبطت . ثم حطت على حافة سرير الكشف الابيض ، ملطخة بالاوحال ، متسخة . أمالت رأسها المستدير ، ونظرت اليه نظرة جانبية . اكانت نظرة رجاء وتوسل ؟ اكانت تقول « انى بحاجة اليك . لا تتركنى من ادرانى خلصنى . هل تقدر ؟ » وعاد الصوت المتحشرج المولول يقول « انى انذرك . لن تستطيع من مخالبى أن تخطفها . انى نفثت من انفاسى فى طينتها . اضحت بين يدى ، أنا الخفاش الاسود ، عجينة طيعة » .

نهض . أشعل سيجارة ، ووقف يتأمل الشارع من النافذة . بدت له وقد وطأت بقدميها رمالا متحركة . راح جسدها يغوص دون جدوى من المقاومة . رآها أمام ناظريه وقد بلغ الطين عنقها ، وهى تجاهد بذراعيها كى تخرج من هذه الحمأة التى ستبتلعها عن قريب « انقذنى ! انقذنى ! » سمع صوتها من النافذة تصرخ طالبة النجدة . سرت الرعدة فى أوصاله ، وسارع يغلق النافذة ، ولكن لم يفارق مخيلته شبح ذراعيها تلوحان بقوة ويأس .

— ٢١ —

هام ماجد طوالَ اليوم مثل نحلة دؤوب تنتقلْ من زهرة الى زهرة دون أن تستقر طويلا . حصل من معمل التحاليل على عينات للبحث الذى يعده للدبلوم عن أمراض الكبد عند الاطفال . التقى برئيس القسم ، وأطلعه على نتائج دراساته وتناقشا . وقد نبهه استاذه الى ثغرات فى بحثه عليه أن يعكف بدأب لاستيفائها . وبعد أن تناول غداء خفيفا فى « الاميريكين » ذهب بعد الظهر لزيارة معرض مصطفى الرزاز بمركز ثقافى قريب . أطل عليه من لوحاته شطار وصناديد وفرسان وامعات وسيافون وخاطفو نساء وقاطعو طرق وجدعان . ثم هناك الدروب والقلاع والمآذن والشواهد والنصب والمدن ذات الاسوار والابواب الوطيدة التى تغلق فى وجه الليل الغـــادر . عالم خرافى مضحك ، طلى ، متوهج ، ماكر ، طفولى ، مهيج للذكريات ، طارح للتساؤلات ، متأرجح بين ماض لايموت ومستقبل لم يولد بعد . ثم ذهب ماجد بعد ذلك الى مقهى « ريش » ومن بعض معارفه الصحفيين هناك تحرى بطريق غير مباشر عن مركز الاستاذ شـــفيق . وكان ماوصل اليه من معلومات مخيبا للامال . أراد أن يطمئن على صديقه

الطبيب . وبالاخص بعد أن زادت مخاوفه على ابنته . وفى المساء مر على الاستاذ شفيق بالمجلة ، واخبره عن لقائه بأولئك الصحفيين ، وان كان قد صاغ ما عنده فى عبارات لبقة مخففة ، فأجابه رئيس التحرير العجوز قائلا :

ـ لا بأس . تعبت من هذه الحياة ، وجع دماغ ليل نهار ، سوف اقتصر على الترجمة . تعاقدت مع دار للنشر على ترجمة موسوعات مبسطة . ربحها للناشرين مضمون ، وان كان جهد الترجمة لن كان فى سنى ثقيل .

ثم ابتسم وجهه الحافل بالتجاعيد ، وقال لماجد :

ـ لا تخف على . ستسير الامور على مايرام .

عادت الغمامة الى عينيه الواسعتين الحالمتين ، وقال :

ـ فقط ، لو تركونى انصرف بسلام .

هز ماجد رأسه مؤكدا مطمئنا ، واردف الاستاذ شفيق يقول :

ـ هكذا سالازم البيت وقتا اطول ، وسأولى الهام مزيدا من عنايتى . آن الاوان كى أطمئن على مستقبلها .

رن التليفون . فهم ماجد من المكالمة أن الهام عادت الى البيت وقد ألم بها تعب . خمن أنه دوار أو قىء . أو شىء من هذا القبيل . لم يستطع أن يحدده ، ولكن الجزع بدا على وجه الاب . ثم مالبثت أن انفرجت أساريره ، ولكن فى توتر ، عندما عرف أن كل شىء على مايرام الان .

قال ماجد :

ـ سلامة الهام . مابها ؟

اجاب الاب باقتضاب :

ـ لا شىء . وعكة بسيطة .

وفدت من ناحية الباب جلبة .

اقتحم الغرفة عامل مطبعة بسترة زرقاء مميزة . لاحقه الفراش محاولا الامساك به ، واثناه عن عزمه . وقف العامل الاهوج أمام مكتب رئيس التحرير . كانت عيناه جاحظتين وشعره أشعث . صاح بصوته المبحوح يقول :

ـ ماكنت انتظر منك ذلك يا استاذ شفيق !

نكس شفيق نظراته ، وقال :

ـ لست أنا الذى أصدرت القرار بوقفك عن العمل ، ياريس حمزة .

ـ انت الوحيد الذى كنا نأمل فيه خيرا . انت الرجل الشريف الوحيد فى هذه الطاحونة التى تسحق عظامنا .

رفع شفيق اليه نظراته ، وقال محذرا :

ـ لا داعى لأن يزل لسانك ، فتورط نفسك فى مشـــــاكل جديدة .

قال حمزة ملحا :

ـ اذن ، تدخل ، يا استاذ شفيق .

ـ ليتنى أستطيع .

ـ افعل شيئا من اجل أولادى ، ومن اجلى .

ـ لقد نفذت التعليمات فحسب ، ياريس حمزة .

ـ مرتبى مورد رزقى الوحيد .

ـ هذه المجلة ليست ملكى .

أجهش حمزة العجوز بالبكاء . وانهار محبطا مقهورا .

دق شفيق الجرس . دخل الفراش بحلته الكاكية كأنه نفر من أنفار الشرطة . وجذب ريس العمال من ذراعه الى الخارج . عنـد الباب انتفض حمزة . استدار الى شفيق ، وقال بصوت مهـــدم ملتــاع :

ـ والى ذلك الحين ، ليكن ذنبى وذنب أولادى حجرا ثقيلا فى عنقك !

خرج . وخيم على الغرفة فى أعقابه صمت كئيب .

نظر ماجد الى الاستاذ شفيق بعينين مستفسرتين ، فقال له موضحا :

ـ تلقيت منذ اسبوعين اشارة بأن بعض القيـادات ستزور المطابع . نبهنا على العمال واحدا واحدا بضرورة الوجود ، وأعددنا صيغ الهتافات التى سيهتفون بها . يوم الخميس الماضى جاء الوزير . اصطف العمال يهتفون له وللنظام ، ماعدا حمزة هذا ، فقد تخلف عن الحضور وبالتالى لم يشارك فى الهتافات . وها انت ترى مغبة مافعل .

ـ ربما لايكون قد تعمد التغيب .

ـ فى هذه الامور يستوى الجميع ، من تعمد ومن لم يتعمد .

تنهد شفيق ، واردف يقول :
ــ مناعب . مناعب . نوضع على الدوام فى الواجهة ، ويختفى مصدرو الاوامر وراء الكواليس آمنين . نتحمل نحن الغضب والهجوم، ونبدو فى نظر المجنى عليهم معتدين .
نهض ماجد . سار معه الاستاذ شفيق الى الباب . شد على يده ، شاكرا له اهتمامه .

ــ ٢٢ ــ

لم يعد الطبيب الشاب الى بيته ، فقد التقى على باب المجلة ببعض الاصدقاء ذهبوا جميعا لمشاهدة مسرحية جديدة لنعمان عاشور الذى لم يقدم له عمل جديد منذ وقت بعيد .
وعندما عاد ماجد الى البيت فى وقت متأخر من الليل ، القى بجسده على سريره مجهدا . وما أن وضع راسه على الوسادة حتى راح فى النوم .
فى الحلم رأى ملاكا ، وضيئا ، جميل المحيا ، يمسك فى يده زهرة ، ويبتسم له من بعيد ، كانه يقول له « تعال » . مد الملاك يده يريد أن يعطيه الزهرة . اكان حقا ملاكا ؟ عندما اقترب منه . خيل اليه انه رأى شيطانا ينزل من لوحة من الهيرونيموس بوش . خرج من هيئة الملاك النورانية ملاك اسود ، تخفى وجهه ظلال تحجب ملامحه ، ومد اليه يده . لم تكن زهرة بل كانت عظمة نخرة . ولكنه اقبل عليه ، وركع ومد يده ياخذ ما اعطى له « الشيطان جميل أيضا، فهل تخضع له ؟ » هب بداخله صوت مزلزل ، رافض ، معترض ، معذب ، وتحول الجو من حوله الى هدير مضطرب من الضحكات الهستيرية والنواح الموجع . تحولت الجلبة الى أمواج جرفته بشدة . جاهد كى لا يغرق . امسكت يده بما أعطى له ، لم تكن زهرة ، لم تكن عظمة نخرة ، بل كان نبتا أخضر . حافظ عليه قدر استطاعته حتى لا تنتزعه الامواج من بين أصابعه . قرر لو غرق أن يحمل الى القاع ذلك النبت الاخضر . ولكنه ما لبث أن رأى هذا النبت بين يديه يضىء ، ويجره الى صخرة عالية ، تسلقها . كانت مغطاة بطحالب خضراء وصفراء زلقة . استطاع فى النهاية أن يصعد الى قمتهــا متعبا ، وعلى شفتيه طعم الملح الحارق . رقد على ظهره ، فانقض

.. ن السماء نسر اسود ، فتح جناحيه فحجب عنه كل ضوء ، اظلمت الدنيا من حوله ، وشعر بمخالب الطائر المهول تنغرس فى صدره . صرخ .. صرخ .. فتح عينيه . رأى امينة تبتسم له . وتربت على جبينه بيدها السمراء الدافئة . فاعادت الهـدوء الى جوانحه المرتجة . قال بصوت مبحوح :
ـ يا ساتر ، كابوس !
جلست على حافة السرير الى جواره ، وشرعت تصب القهوة فى قدحه . قدمته اليه . تناوله ، وبينما راحت تفرغ بقية الكنكة النحاسية اللامعة فى قدمها ، قال لها :
ـ لا اعرف ماذا كانت ستكون الدنيا بالنسبة لى لو لم تكونى بجانبى .
قالت له بمودة :
ـ اتنسى ما اوصتنا به أمنا قبل أن تموت وتتركنا ؟
اغمض عينيه ، وقال :
ـ لا يتركن احدكما الآخر . فلا طعم للحياة يا ماجد من غير امينة وانت يا امينة لا طعم للحياة من غير ماجد .
ضحكت ضحكة صغيرة ، وقالت بمودة :
ـ هل اعجبتك قهوتى ؟
نظر الى بقايا البن المترسب فى قاع فنجانه ، وقال :
ـ هل تقرأين طالعى ؟
ضحكت وقالت :
ـ وهل ستصدقنى ، انا التى لم انل حظك من التعليم ؟
قال :
ـ بكل تاكيد ، الست اختى الكبيرة ؟
امسكت فنجانه ، وقلبت النظر فيه ، ثم قالت :
ـ ستلتقى بفتاة فى الشارع . ستتأبط ذراعك ، وتسـيران تستمتعان بالحديث والضحكات . ثم عند المنحنى ستقول لك « وداعا لا تشغل نفسك بى » سيكون قلبك قد تعلق بها . ستهتف مناديا اياها وهى تمضى مبتعدة عنك . ستبكى انت لحظة ، ثم ستتنهد ، وتمضى فى طريقك بدورك ، وكأن لا شىء حدث .
قال ماجد مستنكرا :
ـ لا شىء حدث ؟ مستحيل !

ـ ولماذا هو مستحيل ؟
ـ لانه حدث الكثير .
نظرت اليه أخته نظرة اختلطت فيها الصرامة بالحنان . وقالت:
ـ هل ستقابلها اليوم ؟
اجاب ماجد :
ـ كلا ، عندى شغل .
ـ كى تقابل الهام وتهتم بها يجب ان تكون خالى شغل ، وان تكون حمالا للأسية كى تتقبل دلعها ونزواتها ، فهل انت كذلك ؟
ـ مرضاى اهملتهم من اجل هذه الفتاة .
ـ فليعالج الطبيب نفسه أولا ، حتى يفرغ لمعالجة مرضاه .
ابتسم بمرارة وسأل أخته معاتبا :
ـ وهل أنا مريض ، يا امينة ؟
ـ الست مريضا يا دكتور ؟ بداء الحب ؟
لم يجب .. استطردت الاخت تشد أزره وتنصحه :
ـ دعك ، يا اخى من الفنانات المهووسات . ابحث لك عن زميلة فى مهنتك أو بنت مدبرة ، ست بيت تحافظ عليك وتسهر على خدمتك .
بعد برهة صمت وجيزة ، اردفت تقول لماجد :
ـ لملم اشلاءك ، يا أخى ، وامض قدما ، فالحياة لا تحتمل الهزل. لا وقت ! لا وقت !
اطرق ماجد براسه الى الارض وقال :
ـ من الاحزان ، يا امينة ، ما هى مثل القدر . لا يستطيع ان يشاركنا فيها أحد .

ـ ٢٣ ـ

فى الخامسة من مساء الجمعة ، كان ينتظرها أمام المتحف . قبيل الموعد ببضع دقائق ، وصل الى المكان المتفق عليه . كان من عادته أن يراعى الدقة فى مواعيده ، بل وان يذهب الى من تواعد معه على اللقاء قبل الموعد بقليل .
تلفت حوله ، ثم راح يذرع الرصيف على مهل جيئة وذهابا . استغرقه التفكير فى الهام . ولم يساوره شك فى مجيئها . بل كان

..وقعا وصولها بين لحظة واخرى . فقد طلبت منه هى هذا اللقاء وكانت لهفة عليه ، وبان عليها أنها كانت حقا بحاجة الى الحديث معه فى أمر جلل . وكان توتره فى لحظات انتظاره تلك مرده الى أهمية هذا اللقاء . فى قلبه نما الحب نحو هذه الفتاة التى ميزها من دون الفتيات جميعا ، واحس بتفكيره يخفق اضطرابا ووجدا . سوف يكشف كل منهما هذا المساء عن حقيقة ما يكنه للآخر . واذا كانت ثمة عقبات ولو عاطفية تطمرها الهام فى قلبها فانه سيحملها برفق على أن تفصح له عنها ، وتفضى اليه بأسرارها . ولن يقف عائق فى طريق تلاقيهما وزواجهما ، فقد كان يؤمن بأن ما من شىء يعلو على الحب الذى يكنه لها ، لو كان ثمة فتى من فتيان شلتها يعترض طريقه فان رجولته كفيلة بأن تمحوه من قلبها .

نظر الى ساعته . كان الوقت قد تجاوز الخامسة بقليل . القى نظرة الى وراء قضبان سور المتحف ، وتعلقت أنظاره مليا بالتماثيل الجرانيتية القديمة بفناء المتحف . فليصبر ولينتظر . فربما الم بها ما عطلها عن المحافظة على موعدها . عاد يذرع الرصيف ويتأمل البقايا الضخمة لأحد الاعمدة الملقاة فى جانب من الحديقة .

الخامسة والنصف . كم يمر الوقت سريعا . أراد ان يسرى عن نفسه فطلع الى واجهة الهيلتون . وحاول أن يفهم الحروف الهيروغليفية التى كتب بها على الواجهة الرحيبة اسم الفندق . قال لنفسه « مع الزمن ، ربما أصبح هذا البناء الضخم بضع بقايا مثل الاعمدة التى بالمتحف . » وضع يديه خلف ظهره ، وراح يحاول ان يقتل الوقت . تابع الناس التى تتجمع فى موقف الاوتوبيسات امام مبنى الجامعة العربية ، وتصعد اليها ، ثم تلك الناس التى تنزل من الاوتوبيسات التى تصل متهالكة . حاول أن يفلسف الزمن ، كما لو كان يريد أن يخفى على نفسه ، مثل النعامة تدفن فى الرمال رأسها ، أن الوقت يمر والهام لا تاتى . راح يشغل بالخواطر فكره « منذ آلاف السنين يرقد فى المتحف طفل مسكين . تشققت من البرد عظامه ، وانحفرت فيها من وطأة الزمان ثقوب . مرت نصف ساعة اخرى . ينهض الطفل فى الليل من فراشه ، يفتح الستائر فى وجه القمر ، يفزعه الضوء الشرس ، فيسير على السقف ، وتكاد تقوده قدماه الى السحب غافيا . لم تظهر الهام . كذب ، كذب . السنين فى أعماقه خرير ماء شديد البرودة . السنين من حوله حشية نمل ، وفى عقله أزيز نحل وطنين أخذ يقلق . سوف يهتك الطفل حجب

نومه بعد قليل ، وسينهض لنتعانق .ونذرف معا الدمع السخين . تلفت يمنة ويسرة آملا ان يلمح طيفها الحبيب يقبل .

عندما بلغت الساعة السابعة أصيب ماجد باحباط شديد . ماذا جرى ! هل حدث لها شيء ؟ عتمت الدنيا فى عينيه وتوترت اعصابه . هل غررت به ؟ واعطته هذا الميعاد لتجرجره الى هنا . ثم تسخر منه وتضحك مع صويحباتها ؟ لم يكن يبدو عليها انها تهزل عندما ضربت له هذا الميعاد ، بل على العكس كانت امارات حزن دفين تتضح على قسماتها ، كما لو كانت تستنجد به لتبوح له بما ما عاد بوسعها ان تكتمه . ماذا حدث اذن ؟ ركل حصاة صغيرة صادفها عند قدمه ، فراحت تتدحرج على الرصيف حتى سقطت من عليه . هل غيرت رأيها ! ولكن لو كان ذلك صحيحا لوجب عليها ان تخطره وتعتذر ، وهى الفتاة الرقيقة المهذبة ، ولم يكن يشك فى توافر هاتين الصفتين فيها .

مر الوقت . اشعل آخر سيجارة فى علبته . السابعة والنصف. هل سيقف فى هذا المكان الى الابد ؟ لم يعد ثمة احتمال ان تأتى . دارت الدنيا من حوله . بدت الناس والاشياء معتمة باهتة ، كما لو كانت تفقد صورتها من خلف غلالة ضبابية . رأى أحد خفـراء المتحف يقترب منه متمهلا ، ولمح فى عينيه نظرات مستفسرة . أحس بانه مرة أخرى يتعرض للمهانة بسببها . لم يكن يريد أن يفقد الامل باى حال . اكان كل شيء سرابا ؟ أكانت قد انشغلت برجل آخر ؟ أو ربما التقت بها كاميليا وصرفتها عن الميعاد ؟

غلا الغيظ بداخله ، لن يستطيع ان ينتزعها من الشلة الموبوءة . هيهات أنه عالمها ، ومثل السمكة لو اخرجتها من انائها ماتت . انها وقعت فى نهر شديد التيار . يجرفها ، فاذا مددت يدك لانتشالها ، رفضتك ، ومضت ضاحكة مع الامواج ، مثل سكير لا يعى من أمره شيئا ، ما الجدوى أن يلقى بنفسه فى النهر اذن ، ما دام الغريق يابى الخلاص ؟ برفض الشاطىء الآمن ، ويسعى باصرار الى حيث الدوامات ما الجدوى ؟ يغرق ولا ينادى بأن يمد أحد اليه يده . اين المفر ؟ انه هو الذى يغرق .

توجه الى شارع قصر النيل . وفى صالة جروبى ، القى بجسمه، الذى تنتفض فيه كل شعيرة ، على كرسى وطلب قدحا من القهوة . دخلت مغنية الاوبرا الناشئة مشيرة صبرى ، ابتسمت له ، هز لها

راسه بعصبية وجفاء فبدت الدهشة على قسمات هذه الحسناء ، لكنها لم تلحق به . فقد نهض والقى على المنضدة بالحساب ، وانصرف خارجا بخطوات مسرعة . قرر أن يصعد الى مكتب ابيها . ويقابله ليقول له ان ابنته قد بلغت من الوقاحة منتهاها .

عندما دخل عليه . وجده قد اسند خديه الى راحتيه ونكس نظراته التى شردت فى بعض الاوراق المتناثرة على زجاج مكتبه .

حياه ماجد على عجل ، وابتدره قائلا على غير سابق عادته من التزام الادب فى محادثة هذا الرجل الوقور .

ـ نسيت الهام شيئا هاما اليوم .

رفع الاستاذ شفيق عينيه الى ماجد فبدتا متعبتين . ثم قال :

ـ الهام ؟ ماذا نسيت ؟

ـ انتظرتها من الخامسة حتى السابعة والنصف هذا المساء ولم تحضر .

قال له الصحفي العجوز معتذرا :

ـ غاب عنى أن أخبرك . كيف باستطاعتى أن اتذكر ، وانا عقلى بهذا الارتباك ؟ طلبت منى أن ابلغك الا تنتظرها .

راوغت الهام اذن ، وتهربت من المجىء لملاقاته ، وكى لا تواجهه، ابلغت اباها بأن يحمل اليه اعتذارها . وهو ليس اعتذارا بالمعنى الصحيح . بل هو أخطر بكثير من مجرد الاعتذار ، انها تتحاشاه . تفر بعيدا عنه . آن الاوان أن يتأكد ، وللمرة الاخيرة ، ان هذه الفتاة لا تريده .

سأله ماجد مستفسرا :

ـ عهدت اليك انت أن تبلغنى ؟

ـ أجلْ ، سافرت امس الى بنى سويف لزيارة احدى خالاتها .

نظر ماجد الي الاستاذ شفيق بعينين تقطران مرارة ، واتهاما بعدم توخى الصدق .

أردف العجوز يقول مؤيدا كلامه :

ـ لم يكن السفر فى البال من قبل ، لكنه تقرر فجأة ، وفى آخر لحظة .

كانت نظرات ماجد تطالب بمزيد من التفسير .

مضى الاب يقول :

ـ كانت بحاجة الى تغيير الجو . اثر عودتها من الرحلة انتابها

. ..طراب نفسى شديد ، نوبة عصبية ، بدون سبب . والحت على ان اتركها تسافر الى خالتها وجيدة . التى كانت تريد ان تراها منذ أمد بعيد وكررت عليها الدعوة مرارا فكنا نسوف ونعد . ولما كانت خالتها عجوزا لا تستطيع الحضور الى القاهرة فضلا عن انشغالها بأولادها ، فقد قررنا ان تذهب الهام اليها لبضعة ايام .

ـ هل ستبقى هناك طويلا ؟

ـ شهرا أو شهرين . قلت لها ان تمضى الصيف كله هناك .

تمالك ماجد نفسه ، وقرر أن يبقى على الشيء الوحيد الذى له ، وهو الحفاظ على كرامته ، وقد تأكد أنه ليس له شيء لدى الهام او أبيها . فقال بهدوء ، متظاهرا بأن الامر لا يعنيه :

ـ ما دام الامر يتعلق بصحة الهام ، فقد أحسنت بالسفر .

قال الاستاذ شفيق بآلية ، وهو ينهض كما لو كان لا يريد للزيارة أن تطول :

ـ بالطبع . ليس هناك اغلى من الصحة .

عاد ماجد يقول كما لو كان يحادث نفسه مذهولا :

ـ اذن ، سافرت .

اجاب شفيق ، كما لو كان لا يريد أن يقع فى حرج أشد :

ـ معذرة ، لن ابقى معك اطول من ذلك . يجب أن اذهب الى النقابة . هناك اجتماع لا يمكننى التخلف عنه . سوف أراك فى وقت آخر .

لم تكن تبدو على الاستاذ شفيق رغبة فى الحديث ، بل كان يريد ان يتحاشى فتح أى موضوع . كان صوته باردا أجوف ، ونظراته شاردة مهدمة . خرج يحمل حقيبة أوراقه .

فهم ماجد أن الاستاذ شفيق انتحل عذرا كى يتحاشى البقاء معه عندما ادعى الاجتماع بالنقابة ، فما كان يريد أن يقول له ــ على ما يلوح ــ شيئا عن ابنته . ولكنه كان يبدو كسيفا قلق الفكر .

ـ ٢٤ ـ

مضى الصيف ، وجاء الخريف ، أمضى الدكتور ماجد هـذا الوقت كله فى الدراسة ، فقد كانت امتحانات الدبلوم للتخصص فى طب الاطفال وشيكة . استغرق فى هذا العمل حتى استطاع ان يخفف

..ن على عقله وطأة التفكير فى الهام . الاطفال المرضى بوجوههم الشاحبة وأجسامهم الهزيلة ، وأوجاعهم ، وبكائهم ، ثم الابتسامة تشرق بين الدموع ، عزاء كبير لقلب مثل قلب الدكتور ماجد . وقد أسعد أساتذته بتفانيه فى الدراسة ، وعدم اهتمامه العجول بالنتائج ، وتأنيه فى الاستقصاء عن أصل العلل ومصدر الآلام ، ومعرفة العلاج الذى يقضى تماما على أدواء هؤلاء الصغار . وكثيرا ما رآه استاذه الدكتور شهدى يعطى الاطفال الفقراء من مرضاه هدايا تدخل البهجة على قلوبهم ، وتلهج السنة الامهات بالدعاء . كان الطبيب الشاب دائب المرور بعنبر الاطفال صباح مساء ، لا يبخل على احد برعاية أو بمواساة مما حببه الى القلوب ، وأعلى من مقامه عند الجميع . فلم يكن الطب علما أو مهنة فحسب بل هو قبل كل شيء انسانية بلا ضفاف . بهذا كان يخفف ماجد من مرارة الألم الذى خلفه فى قلبه سفر الهام وغيابها عنه . وعلى الرغم من أمله الممتد ، لم يتلق منها خطابا واحدا ولكنه هون على نفسه الامر مع الايام . وقد مر على مكتب الاستاذ شفيق فى هذه الآونة عدة مرات ، الا أن الاب العجوز كان يتحاشى الحديث عن ابنته ، وكانت اجاباته مقتضبة ، تنضح بالرغبة فى المسارعة الى اقفال باب الكلام فى أى موضوع يتعلق بها ، مما أرسى اليقين فى قلب الدكتور ماجد بأن فى الجو شيئا ذا بال . ولم يكن الشاب يريد أن يضغط على الاستاذ شفيق ، فقد كان يبدو عليه القلق الدفين ، وشدة المعاناة . تهدلت قسماته ، وتكاثرت فى وجهه التجاعيد . أهمل هندامه وشعره فبدا أكبر من سنه . بعشر سنوات . كان الدكتور ماجد يتأمل صديقه ، ولا يريد أن يخوض فى أمور أيقن انها تسبب له الاحزان .

كان يسأله :

ـ كيف حال الهام ؟

فيجيب باقتضاب :

ـ بخير .

كيف تغيرت أحوال الاستاذ شفيق الى هـذا الحد ؟ كل يوم يغوص فى حمأة الهموم ، دون أن يقوى أحد على انتشاله منها . وهو لا يريد أن يبوح الآن ، حتى لأخلص أصدقائه الدكتور ماجد ، بسبب هذه الهموم . أهى أحوال ابنته ؟ مهما كان السبب ، فذلك الجفاء الذى كان يصد به كل سؤال يوجهه اليه الصديق الشاب جعل هذا الاخير يشعر بالجرح ، فكف عن التردد على مكتبه .

وقد فتر حماس الطبيب الشاب للقاهرة . أصبح يشعر بأنه يختنق بين جدرانها وشوارعها ، وأن عروض الفن التى يلقاها هناك تبدو زيفا لا حياة فيها . وقرر أن يترك العاصمة ، بكل بهارجها وترفها ومتعها ، واستبد به اقتناع بأن الريف أشد حاجة الى خدماته كطبيب من أحياء المدينة الكبيرة . وقدم طلبا لرياسته بأن ينقل بعد حصوله على الدبلوم الى جهة نائية بالصعيد .

– ٢٥ –

وعندما انتهى من امتحانات التخصص ، عاوده الحنين لان يسأل عن الهام . فمر بمكتب ابيها . وادعى انه انما جاء يودعه ، فبعد أيام ستظهر نتيجة الدبلوم ، وسيغادر القاهرة الى الصعيد . رفع الصحفى العجوز رأسه ، وقال :

– سنفتقدك كثيرا ، يا دكتور . لكنك ادرى بمصلحتك ، على اى حال .

انتهز ماجد فرصة وسأله عن الهام ، فأجابه بأنها عادت منذ اسبوع ، وسارع الى تحويل دفة الحديث . أحس الطبيب الشاب كأن حجرا ثقيلا قد ألقى بأعماقه وسحق قلبه . كز على أسنانه كى لا تفلت من بين شفتيه صرخة احتجاج وألم . ونهض وقد أيقن أن رحيله بعيدا هو الصواب بعينه .

– ٢٦ –

عند خروجه من مبنى المجلة التقى بزميله فى الطب الدكتور يوسف مراد الذى ما أن أكمل دراسته حتى ذهب يحمل سماعة وحقيبة أدوية صغيرة ، يغوص فى مجاهل قرى الريف حول ملوى ، يقدم الخدمة الطبية البسيطة والانسانية لقرى لم يصل الى أهلها من قبل طبيب . لم يسبق لهؤلاء البشر أن عرفوا أن أدواء الجسم تشخص وتشفى بالدواء . صافح الدكتور ماجد زميله مرحبا ، نظر فى وجهه فرأى على محياه هدوء البال ونور اليقين . وفى نشاط استأذن القس فى الانصراف . سأله ماجد :

– الى أين ؟

فأجابه مرددا قول السيد المسيح :

ــ الحصاد كثير والفعلة قليلون .

احس الدكتور ماجد انه يجب أن يتخلى عن همومه الفردية ، ويرحل بدوره الى حيث الحصاد كثير . يتكلمون هنا عن الحرية ، ويدعون أن من حقهم أن يمارسوها هل يعرفون كم هى احساس عميق بالالتزام ؟ وان الذين عرفوها حق المعرفة صعدوا درجات ودرجات فى سلم التضحية ونكران الذات ؟ توجه الى ديوان الوزارة يستعجل طلب النقل .

ـ ٢٧ ـ

لكن الاحداث تطورت بسرعة ، ما كان يتوقعها أحد . جرت حركة جديدة لتصفية الصحافة من بعض عناصرها . وصدرت قائمة باقالات جديدة ونقل الى خارج الحقل الصحفى . وعندما قرأ الدكتور ماجد هذه القائمة انصرف ذهنه سريعا الى صديقه شفيق ، الا انه تنفس الصعداء عندما لم يجد اسمه ضمن هذه القائمة . وفكر أن يذهب ليطمئن عليه ، لكنه تذكر مواقف البرود والصد الاخيرة ، فعدل عن رأيه ، فربما التقى أيضا عنده بالهام ، وقد أصبح لا يريد أن يراها ، فلعله لو التقى بها وسمع كلمة من كلماتها المعسولة يعود الى عذاباته القديمة ، ويدور ويدور حولها من جديد كفراشة تتخبط حول ضوء مصباح حتى يحرقها الوهج . لقد قتل بداخله كل أمل ليستريح ، فاذا ما استيقظ هذا الأمل من جديد عادت جراحه تنزف دون جدوى او نهاية . كان يعرف جيدا نقطة ضعفه ، وما عاد يريد ان تمتهن كرامته من جديد . فلتمض فى الطريق الذى اختارته ، وليمض هو فى الطريق الذى بقى له ويكون فيه الحفاظ على كبريائه ولو تعذب للفراق قلبه ، فعذابات القلوب تطيب وتشفى ، أما الكرامة فلا انصلاح لها اذا ثلمت . وما كان هناك علاج لمحنة حبه لالهام سوى البعاد .

أعد كل شىء كى يغادر القاهرة فى بداية الشهر القادم . يوم السبت الساعة السابعة صباحا بعد عشرة أيام سيستقل قطار الوجه القبلى . أعد حقيبته ، واتفق مع اخته أن تلحق به ما ان يستقر به المقام هناك ، وقد قبلت عن طيب خاطر ، فكل سعادتها أن تكون الى جوار اخيها .

قرأ قائمة ثانية بالصحف يوم الثلاثاء السابق على ميعاد السفر . وعلى الرغم من انه لم يجد اسم الاستاذ شفيق فى تلك القائمة ، الا انه لم يستطع ان يقاوم توجسا راح يحاصر قلبه ويزحف اليه ، فهو يحب هذا الصديق ، ويكن له تقديرا خاصا . ويعرف فى قرارة نفسه أنه لم يكن بأى حال من الاحوال السبب الذى حال بين الهـــام وبينه .

وقد صدق توجسه ، ففى ظهيرة يوم الثلاثاء ذاته احضر له فراش مكتب الاستاذ شفيق خطابا مغلقا . عرف من الكلمات على المظروف خط صديقه العجوز . ارتعش الخطاب بين أصابعه . لابد أن صديقه قد وقع فى ورطة ويطلب عونه . فض المظروف بعصبية وراح يقرأ :

« ابنى العزيز :

اعهد اليك بالهام ، أضعها امانة بين يديك . يخفف من المى كثيرا انك ستقف الى جوارها . كتبت ذات الكلمات اليها . لا أستطيع أن استفيض فى الكتابة اكثر من ذلك . لقد أوقعونى فى الشرك وكان يجب حفاظا على شرفى أن اخرج بهذه الطريقة . ماكنت سأحتمل تعذيبهم ، ولكننى آمل أن تتأكد من اننى أرحل نزيها نقيا مما كانوا سيحاولون الصاقه بى . لا تتخل عن الهام ، مهما كانت الظروف ، انها شابة قليلة الخبرة بالحياة والاخطار تحدق بها من كل جانب . وداعا .. شـــفيق »

شعر الدكتور بالدماء تحتقن فى عقله . فهم . الاستاذ شفيق انتحر ، أجهز على حياته اتقاء لشر أكبر . أكان هذا الرجل الشريف سيعتقل ويعذب ، هل كان سيهان ويطعن فى عرضه ؟ أم ماذا كانوا سيفعلون به اشد هولا من ذلك ؟ لا يقدم المرء على الانتحار الا اذا استبد به رعب فظيع .

بدا الامر للدكتور ماجد غير قابل للتصديق ، مهولا ، فاجعا . ماهو الخطر الذى دفع شفيق الى حافة الهاوية ، ثم جعله يلقى بنفسه فيها ؟ لهذا الرجل أصدقاء عديدون ، حتى لو كان اعداؤه أيضـــا كثيرين . لماذا لم يفكر فى أصـــدقائه بدلا من أن يرتعب من معذبيه ؟ لو طلب النجدة ، الم يكن سيكتب له النجاة ؟ فى بعض الاحيان ، يطلب أولئك الزبانية من ضحيتهم أن تخرج من الحيـــاة فى صمت ، حتى يلزموا هم الصمت . لكن مم كان يخاف شفيق ؟

اى فضيحة كان يخشاها ؟ اكانوا قد زيفوا ضده ادلة ادانة ، او اكرهوه على التوقيع عليها ، أو اصطنعوا صورا تشينه ؟ أم ماذا ، كاد عقل الدكتور ماجد ينفجر . مهما كان الخطر الذى لوحوا للعجوز به ، فهل كان يجدر به أن ينتحر ؟ المرء يفقد صوابه فى بعض اللحظات ويخطىء التدبير اذا مورست عليـــــه أساليب التهديد بخبث ، والخصوم مدربون على استخدام تلك الاســاليب . لكن كيف يرضخ شفيق ؟ الم يفكر فى ابنته ؟ لمن سيتركها ؟ الم يكن رباطه بها من القوة بحيث يستطيع أن يصد عن روحه اغراء الانتحار ؟ هل ضرب بالتزاماته قبلها عرض الحائط ؟

كلا ، كان شفيق رجلا يعرف واجبه . لكن ترى أكان التهديد أو التلويح بالتهديد موجها الى ابنته ، فآثر أن يغادر الحياة على شريطة أن يتركوا ابنته تمضى وحدها فى سلام ؟ وأى سـلام يمكن أن تنعم به فتاة جميلة وحيدة ؟ لابد انهم هددوه بايذائها فى شرفها أو سمعتها ، ان لم يرحل فى صمت . ماذا كان هذا الزلزال الذى تعرضت له أعماق الاب فنسي أن وجوده كان لازما لوحيدته العزلاء ازاء كل الاخطار المحيطة بها ؟ لابد أن الارهاب كان من الجسامة الى الحد الذى يطيح بالعقل ويشل القدرة على الصمود . يذكر قول شفيق الذى كان يردده كثيرا « سأقاوم .. سأقاوم .. على الرغم من كل شيء سأقاوم » فهل قاوم فى ساعاته الاخيرة رغم كل شيء ، قبل أن يتمكنوا من أن يلووا ذراعه ، ويطعنوه فى صدره بسلاحه ؟ انه لم يلق سلاحه بل بالعنف أرغموه أن يغمد خنجره بين ضلوعه .

تسمر أمام عينى ماجد رجاء شفيق أن يتعهد الهام برعايته . هذا لن يقصر فى تنفيذه ، ولن يخذل الميت الحبيب فى طلبه الاخير . لاحت له الهام الان وقد علمت بنبأ انتحار أبيها فى مكتبه ، ومبلغ الهلع الذى دخل قلبها ، وسوء الحال الذى وجدت نفسها فيه .

قرر أن يهرع اليها . اسرع الى البيت . صعد الدرجات قفزا ولم يجد لديه صبرا حتى ينتظر المصعد . وجد باب الشقة مواربا . دخل برجل . وراح يبحث بعينيه المعتمتين عن الهام . صدمه مرأى النعش ، فتسمر فى مكانه برهة .

أشاروا له بالجلوس بمقعد قريب فى الردهة ، لكن عينيه راحتا تبحثان عنها . كانت بالصالون الصغير محاطة بنساء متشـــحات بالسواد ، وبعضهن يكفكفن الدموع بمناديل بيضاء . توجه الى هناك بوجل أشد .

تعالت الهمهمات من بعض الموجودات فى الفرفة عندما راينه .
كانت الهام تجلس منهدة على كرسى فى احد الاركان . وقد احمرت عيناها وتورمتا . تهوش شعرها ، وشحب وجهها شحوبا سديدا . كانت انسانا مختلفا تماما عن تلك الفتاة التى يعرفها . ضعفت وذابلها جسارتها . وارتسم فى نظراتها شرود ورعب دفين . فقدت شموخها ودلالها . واضحت منكمشة محنية الكتفين قليلا . كما لو كانت تحمل عليهما ثقلا غير باد للعيان . وانطفا ايضا شيء من جمالها المستفز . واختفت من على شفتيها ابتسامتها المتحدية . عندما رات ماجدا ، ارتج كيانها كله . جرت نحوه باكية . تعلقت بكتفيه ، وقالت له بصوت طفل مرتعب :

ـ بابا ، بابا حبيبى . اين بابا ؟ أريد ابى .

تمالك ماجد نفسه . ربت على شعرها كما يربت اب على راس طفلته الحزينة وقال :

ـ اهدئى ، ياعزيزتى . اهدئى .

ـ كنت تحبه ، وهو ايضا كان يحبك ..

اجهشت فى البكاء وهى تخرج من بين نهديهــا ورقة مطوية اعطتها لماجد كى يقرأها :

« ابنتى الغالية الهام من اجلك عشت ، ومن اجلك أموت ، استودعك الله ، كونى قوية ، واحتمى بالصديق الوفى ماجد ، بابا شفيق »

دخل ماجد يودع صديقه الوداع الاخير .. لم يجرؤ اول الامر على الاقتراب من السرير الذى يرقد عليه الجثمان . أحس بالارض تميد تحت قدميه ، وكل شيء من حوله فى دوار . الجسد النحيل الذى عانى طويلا من السكر مغطى بملاءة بيضاء ، لا يبين منها سوى الراس الجلل بشعر ناصع البياض . كانت القسمات وديعة كما لو كان شفيق ينام ، ولا يكترث بالجلبة من حوله ولا بالنواح . وكأنه يتساءل دهشا « لماذا تنوحون ؟ هل مات احد فى الدار ؟ » خطا الدكتور ماجد نحو صديقه الحبيب . انحنى يقبل الجبين الاسمر العريض .. احس ببرودته تحت حرارة شفتيه . ثم تراجع وقد بدا عليه حزن عميق .

قالت الهام بحسرة :

ـ وددت أن تكون بجواره ساعة محنته ؛ ربما امكنك أن تصد عنه الموت .

ازدادت تشبثا به وبكاء .
تقدمت نحوها سيدتان . جذبتاها برفق من ذراعيها ، وذهبتا بها لتجلس بين لابسات السواد . نكست رأسها ، ودفنت وجهها فى حجرها . ثم راحت فى نشيج مكتوم .
انسحب ماجد بدوره الى الصالون الكبير حيث كان يجلس الرجال . كان رامز هناك . وراح بلهجته السليطة الملتوية يثرثر مع من حوله ، كما لو كان ماحدث لايعنى شيئا . لا يعير وقار المناسبة اهتماما ، ولا يعمل حسابا لهيبة الراحل العجوز صاحب الدار ، الذي مج حياة البشر فرحل عنهم فى أصعب الظروف . وفى ركن بجوار الشباك ذى الستائر الثقيلة السوداء ، وقف الريس حمزة بسترته العمالية الزرقاء يبكى الاستاذ شفيق بكاء مرا .
جاء مجلس ماجد الى جوار فتحى الشفقى ، فحاول أن يعرف من صديق المرحوم القديم حقيقة ما حدث ومزيدا من التفاصيل .
ــ اوقعوا الفارس فى الشرك . لم يكن ضمن الاسماء التى عزلت أول الامر ، لكنهم فيما بعد انتزعوا توقيعه على بعض الاوراق وطمأنوه بأنها لن تظهر الا اذا بدا عليه مالا يروق لهم . ثم ارادوا بعد ذلك التخلص منه نهائيا ، فقدموا هذه الاوراق الى السلطات ، وصار القبض عليه وشيكا ، وكان التهديد أيضا يمتد الى ابنته ، فكان هول الصدمة عليه كبيرا ، واذا بهذا الرجل الشريف الذى عرف بالرزانة يفقد اتزانه ، ويقدم على الانتحار ، مفضلا أن تطوى صفحته وتترك ابنته فى أمان .
ــ وماذا ضد الابنة ؟
ــ يقولون هناك صور فاضحة .. وعقد زواج عرفى ..
نظر اليه ماجد مستنكرا ، فأردف الاخر يقول :
ــ مزور بطبيعة الحال .
ثم استطرد قائلا :
ــ والأكثر اثارة للتقزز أن واحدا ممن كان يوليهم المرحوم ثقته هو الذى جرجره وخذله فى النهاية . ومن المؤسف أيضا أنه هنا يشاركنا الحزن على الفقيد ، بل يبدى بلسانه فقط أنه اشدنا حزنا عليه .
استفسرت عينا ماجد عن هذا الشخص ، فقال فتحى الشفقى:

ـ اكثر الموجودين جعجعة .
التفت ماجد الى رامز ، وسأل :
ـ هو ؟
قال الصحفى :
ـ ومن غيره يقتل القتيل ويمشي فى جنازه ؟ بين يديه اسرار كثيرة ، وبدلا من أن ينقل خارج الديوان بعد تغيير الوزير استرد سلطانه سريعا ، ولم تمض بضعة أيام على ايقافه .
استطرد الصحفى يقول :
ـ كان ابعاده المؤقت عن منصب مدير مكتب الوزير لشبهات حامت حوله بمناسبة اختفاء بعض اللوحات القيمة من متحف الفن الحديث . وقيل عنه أيضا أنه ضالع فى تهريب الاثار . رامز هـذا منذ بضع سنوات فحسب لم يكن يملك مايقيم أوده . وفد من قريته .. سكن غرفة على السطح فى بولاق ، أما الان فها هو نجم صاعد .. احضر ديكا روميا ذات مرة للاستاذ نصحى البحراوى وكيل الوزارة آنذاك ، وذهب به الى البيت بمقولة أنه هدية متواضعة بمناسبة العيد ، فطرده البحراوى قائلا « ماذا تعتقد فى ؟ لا افكر الا فى بطنى ؟ » يمسك بين يديه الان مقاليد كثيرة . فعال وذو نفوذ . له أرصدة فى البنوك وبالعملات الاجنبية ، يخشاه البعض ويتمسح به آخرون . واسع الحيلة . يقبل كل يد ، لكنه لايعرف وقت الجد أخاه . يعرف كيف يتحايل على القوانين دون ان تطوله يد ، وهذا فن . لم توضع القوانين بالنسبة لامثاله الا لتخالف . خالف واربح .
كان رامز يتحدث فى هذه اللحظة الى من أحاطوا به قائلا :
ـ اضطررت ان اقبل . جاءوا يتوسلون الى . تغيبت أسبوعين عن الديوان فاستعصى عليهم ان يسيروا الامور . انهم لا يستطيعون الاستغناء عنى . تصوروا ؟
سأل ماجد الصحفى الصديق :
ـ اذن ، فمازال بالوزارة ؟
ـ بل ورئيس ديوان الوزير الجديد . قدرته على التلون بشعة . يمتص الصدمات كما التهمت عصا موسى سائر الحيات .
ـ أعوذ بالله !
ـ أعرف كم كان يخصك المرحوم بحبه ، ويهمنى ان اقول لك انه هو الذى قتل الاستاذ شفيق بالشرك الذى نصبه له .

وأضاف بصوت خفيض :
ـ والان يريد هذا القواد أن يحطم الهام حتى يظفر بها لقمة سائغة . انه لا يريد بها خيرا ، بل أن يستغلها أقذر استغلال ، من خلال الجائها الى طلب العون منه بعد فقد عائلها الوحيد . ان الدناءة فى دمه .
خيمت على المكان رائحة الموت ، رغم باقات الورود التى تناثرت فى كل الارجاء . واعتبر ماجد أن وجود رامز فى هذا البيت سبة قذرة . وبعد هنيهة سمعه يقول :
ـ انتحر ، فلنطلب له الرحمة . لكن انى اتساءل لماذا يتعطش البعض للثروة والسلطة ، ويسعون الى ذلك بأساليب ملتوية ، فيقعون بين أنياب الاسد . واذا التهمه ، فمن الذى يلام ؟
قال أحد الحاضرين معترضا :
ـ لكن المرحوم كان على الدوام فى جانب الشرف والنزاهة .
ضحك رامز ضحكة بذيئة وقال :
ـ ادهش لسذاجة البعض . لا يقدم على الانتحار الا من خاف خطرا اكبر مما يحتمل .
نظر ناحية الهام وغمز بعينيه قائلا :
ـ فضيحة سوداء مثلا .
نفث دخان سيجاره ، وقال بلهجة تحمل رنة السخرية :
ـ لكن مالنا نخوض فيما نهانا الله عنه .
وقال احد منافقيه بابتسامة صفراء :
ـ ربنا امر بالستر ، يا اخوان .
وأردف آخر بذات المغزى :
ـ حقا ، فلننس سيئات موتانا .
كز ماجد على اسنانه غيظا . هذا الرجل لا يرعى للميت ولا لبيته ولا لابنته حرمة . ويمعن هو وبطانته فى تشويه ذكراه .
مضى رامز يقول :
ـ الرجال لا ينتحرون اذا واجهتهم المحن ، انهم يصمدون ويحاربون . كان يجب على الاقل أن يذكر ابنته . ولكن الهام على اى حال لن تضيع .
أحس ماجد بالاختناق . اضحى هذا الحديث كابوسا جاثما على صدره . ينشب أظافره فى عنقه . قال لرامز :

ــ من فضلك . ليس هذا وقتا مناسبا لطرح هذه الموضوعات .
التفت اليه رامز ، كما لو كان لا يتوقع تدخله ، ولكنه عندما راى امارات الغضب تقدح من عينيه ، عرف أن من الحكمة أن ينهى الحديث ، فقال :
ــ اننا نتناقش فحسب ، يا دكتور ، ولا نمس احدا بسوء . ثم انت تعرف مدى علاقتى الوثيقة بالاستاذ شفيق . الليلة ، سنأخذ الهام معنا الى بيتنا .
توتر جسد الدكتور ماجد ، وهم أن ينهض ليسحق هذا الدعى القذر . شده فتحى الشفقى من كمه ، وقال له بصوت خفيض :
ــ أحن رأسك للعاصفة . تجاهل . ولا تجعل الزمام يفلت منك .
تراجع رامز ، وانهى الحديث بلهجته التهكمية :
ــ ربما تعرف أنت عن المرحوم اكثر منى . كل منا يحكم على الامور بحسب ما يعرفه عنها .
انفض الكلام عن انتحار شفيق ، وتحول الحديث الى موضوعات شتى برز منها موضوع الصحفيين الذين عزلوا . ولم يكن حديث الموجودين يتصف بأى اشفاق نحو زملائهم المذكورين ، بل افلتت من البعض تعليقات لاذعة عن ماضيهم شوهت من صورتهم ، ولم يجرؤ أحد على أن يتعرض لما ينتظرهم ، فقد كان من قواعد اللعبة اعتبار المعزولين فى عداد المفقودين ، وليس من السلامة الاستفسار عنهم ، حتى لا يصيب المستفسر ما أصاب المستفسر عنه ، فيلحق به .
تنهد الدكتور ماجد بحرقة ، وتمتم يقول :
ــ انه لشىء مخيف ! حقا ، شىء مخيف !
قال له الصحفى الصديق :
لم يكن الاستاذ شفيق فحسب الفريسة فى الشرك المنصوب ، بل وكانت الهام أيضا .
استغرق ماجد فى الانصات الى فتحى الشفقى وهو يشرح بعض التفاصيل واذا كان العنكبوت قد تمكن من الاب المسكين فهل سيطول الابنة أيضا ؟ علقت الهام أيضا بالخيوط فهل طعنته القاتلة الى الى حيث لا خلاص لها ؟ هل سيسدد العنكبوت طعنته القاتلة الى صدرها ويرشف دمها ؟ هل كانت تعرف هذه الضحية الشابة انها تردت فى الشراك وان مقاومتها الآن تزيد من تعقد الخيوط حولها ،

ام أنها تندحرج الى بؤره الفخ دون ان تعلم من مصيرها شيئا ؟ وهل دار بخلدها هذا المصير ؟ هل تعرف أية ميتة تنتظرها ؟ كانت ميتة ابيها اهون بكثير من النهاية التي تنتظرها ، لانها هناك فى الحضيض الذى سيقذف بها اليه ستموت على مهل . سيدب فيها العطن ، وينخر السوس فى كيانها . ستطلب الموت منقذا ، فلا تجاب اليه . ستكره الحياة التى ستفرضها القبضة الحديدية المستغلة على هذه المخلوقة التي يهددها شبح الفقر . فلم يبق لها من عائل او نصير أحد ، وستدفع الى الرذيلة . ستباع فى سوق النخاسة والدعارة ، ولن يكون العائد لها ، فلن تطول منه سوى ما يكفى كى تمضى فى الطريق التعس الذى رسمه لها عقل جهنمى ، يعرف كيف تستغل الاجساد الجميلة الفقيرة ، ما دامت هناك جيوب عامرة بالمال تدفع بسخاء واستهتار من اجل متعتها ، ولو على حساب شقاء الآخرين . ان شباك العناكب مغزولة بمهارة ، ومنصوبة من حولنا ، وتسقط فيها امثال الهام ، اذا تركت وحدها بلا نصير .

كان ذهن ماجد يجهد ليتصور ابعاد المؤامرة على هذه الفتاة . وراحت عيناه تنقبان فى غرفة الجلوس بين المتشحات بالسواد عن الضحية .

عندما ينفض الجمع من حولها ، بعد اتمام الجناز سيختلى بها ، وسيحدثها محاولا أن يبصرها بالهاوية المفتوحة تحت قدميها . كان موقنا انها ستستمع اليه ، فما عاد الموقف يسمح بأى تهاون ، ولابد أن تعمل بنصائحه حتى لا تضيع ، ويبتلعها الوحش المتربص لها . ولا شك أن المحن الكبيرة تنضج البشر ، فهى تصهرهم فى بوتقتها وتجلو جواهرهم . ليس هناك سوى طريق واحد ، وهو أن يهدم شرك العنكبوت فتنجو الضحية . وهو عازم على أن يفتدى الهام حتى بحياته . سيقف بجانبها يذود عنها كل عناكب الدنيا ، فهذه وصية صديقه الراحل الذى عهد اليه بابنته ، وهذه الابنة هى أعز انسان عنده ، مهما كانت الظروف غير مواتية .

قال الصديق :

ــ مسكين الاستاذ شفيق . اتصلوا به وطلبوا منه أن يكتب سلسلة من المقالات تنتقد تصرفات فى قطاع الاسكان . كشف فى مقالاته فضائح مالية ورشا ومخالفات خطيرة تهدد أمن المواطنين وحياتهم . وامتدحت حملته أول الامر وأحس الاستاذ شفيق بأن

ضمير الصحفي مستريح ، وهو يفتح عيون الجماهير على ما يحاك لها . كان فعلا من فرسان العصور الغابرة ، شهما ، صادقا ، نبيلا . مثل هؤلاء الناس نادرون وفي طريقهم الى الاندثار . بعض المقاولين الذين مستهم الحملة غضبوا أشد الغضب ، فقد شعروا بأن يد العدالة اوشكت تمسك بخناقهم ، فاستداروا واستخدموا نفوذهم . تنصل اولئك الذين شجعوه على ما كتب من تأييده . سحب البساط من تحت قدميه ، فوجد نفسه معلقا في الهواء . قطع الخيط فهوى ساقطا وتحطم . والهام ، الهام ، كل ذلك الجمال ، والشباب والدلال ، الوردة النضرة التي خلقت كي يفوح أريجها ، وتتمايل على غصنها ، تنشر عطرها في بيت من تختاره زوجا وشريكا لحياتها ــ الهام تذبل ، ويطبق عليها شراك العنكبوت ، هي على وشك ان تلج عالم الظلام والرذيلة ، مثلها مثل عشرات الفتيات البريئات اللاتي يدفعن دفعا الى قبضة القوادين وهؤلاء كثيرا ما يكونون من ذوي النفوذ في المجتمع الذي ينقسم بصفة عامة الى ذئاب تشحذ أنيابها ، وحملان تمزقها انياب ومخالب . هل تضحي الهام صورة معروفة لدى شرطة الاداب ، وإن كانت لا تطولها فالادلة ضدها تظل غير كافية ، لان هناك اصبعا مدربة وقديرة تطمس وتخفي ، مادام الصيد يدر الربح ، والفريسة لا تعلن العصيان أو تعمد الى الالتواء ؟ وكيف تجرؤ على ذلك ، وهي تعرف وصمتها وعارها والمصير الاليم الذي ينتظرها اذا لم تستجب . وتنصح ، وتلين ؟ أن للنخاســـــة العصرية سياطها واصفادها التي لا تقل ــ ان لم تزد ــ عما كانت عليه سياط واصفاد النخاسة العتيقة ، اقدم حرفة عرفها الجنس البشري .

من عند عتبة الدار سمع صوت رامز النخاس العصري يدلي بالاوامر والتعليمات بشأن ترتيبات الجناز ، ولم يكن في صوته سوى نبرة استخفاف بهيبة الموت . دخل اربعة بشباب سوداء رفعوا النعش على اكتافهم ، وساروا به نحو الباب ، فكل شيء يجب ان ينتهي ، وهم يعرفون ماذا يفعلون ، وقدفعلوه من قبل مئات المرات ، سواء كان الميت من أوباش القوم أو من عليتهم ، فازاء الموت يستوي البغـاء والصالحون . ارتطم النعش عند خروجه من الباب ، فانحرفوا به يمينا ثم يسارا ، ثم راحوا ينزلون السلم . علا من غرفة الاستقبال الصغيرة نواح النساء وصراخهن ، وجرت الهام مهوشة الشـعر ، جاحظة العينين ، تنزل الدرجات ، تلحق بالنعش ، كما لو كانت

تريد أن تعود به ، وتبقيه الى جوارها للأبد . اختلط الحاضرون ، وتخبطت خطواتهم ، وهم ينهضون ، ويسيرون خلف الفقيد خارجين، ثم نازلين السلم الى الشارع . ثم الى المقابر .

قال له فتحى الشفقى :

ـ فلنذهب بدورنا .

ـ ٢٩ ـ

عندما خرجا من باب العمارة اراد ماجد أن يعرف من ذا الذى يصاحب الهام الى مثوى أبيها الاخير . ومن خلال صفوف المشيعين، رآها تتكىء على ذراع رجل عجوز ، محنى الظهر ، يبدو الوهن على خطواته ، وقد اتكأ بدوره على عصا غليظة سوداء . سأل مرافقه عنه . فأفاده بأنه أحد أقربائها البعيدين ، ابن خالة لامها . كان موظفا صغيرا بوزارة الزراعة ، وأحيل الى المعاش منذ ما يزيد على عشر سنوات . وقد اعتكف ببيته فى شبرا ، بعد أن اصيب بذبحة وصار قليل الخروج . يعيش وحيدا على معاش ضئيل . ويفقد الذاكرة كثيرا بسبب تصلب شرايين المخ .

التفت اليه فتحى الشفقى ، وقال :

ـ لا تعتقد انه يمكن الاعتماد عليه . بعد موت ابيها تقف الهام وحيدة تماما فى هذه الدنيا الشرسة .

ازداد ماجد اقترابا من الصف الاول . ليتفحص صلاح افندى الذى صار تكأة الهام الوحيد على مستوى القربى . كان يعرج فى مشيته ، وقد ارتعشت يده المعروقة التى استندت اليها الهام ، وصارت الهام هى التى تعاونه على المضى فى المشى بدلا من أن يسدى لها هو العون . بدت صورة الهام التى لا معين لها ولا نصير الى جوار هذا القريب العجوز الذى لا حول له أكثر قتامة ، وبعثا على الرثاء والرعب .

راح الدكتور ماجد بعد ذلك يجرجر قدميه بدوره فى صعوبة ، كما لو كانت قد ثبتت فيهما أصفاد من حديد ثقيل ، واخذ يتلفت من حوله . يحدق فى الناس ، ويتردد فى اعماقه ، مثل دقات ساعة ، صوت يفح قائلا « لا أحد . »

لم يستطع أن تغيب عنه الهام . ظلت عيناه مسمرتين على

هيئتها . بدت محنية وأقصر من طولها العادى ، كما لو كانت السنون قد تراكمت على كاهلها . وعنـدما تتلفت تبـدو شـاحبة شحوب الاموات ، وقد ارتسمت على جبينها تجاعيد قاتمة ، وانتفخ ما تحت عينيها اللتين احمرتا من كثرة البكاء . ظلت نظرات ماجد مسلطة عليها ، بينما كان فكره مشلولا . أحس فى داخله دوامة تحاول ان تجذبه الى قاعها وتغرقه ، لكنه ايضا أحس رويدا رويدا بيد تنشله رافضة أن يغرق ، فالقبطان القدير تتجلى كفاءته وقت العاصفة ، وعليه ان يشحذ حواسه كى يسدى العون ، وربما الاخير ، لالهام ، وان يقودها عبر الانواء والصخور الى شاطىء الامان . قرر أن ينزع نفسه من المحنة ، وأن يقف خارجها حتى يتسنى لفاعليته أن تبين . وكمن يقفز الى اليم لانقاذ غريق ، فهو يجب الا يترك للغريق فرصة ان يغرقه معه ، وأن يتنبه جيدا الى كيفية انتشاله دون أن يعمل حسابا لضعفه ، فاذا ضعف هو ازاء المحنة غرقت الهام ، وربما غرق هو .

كانت عينها تبدو فى الوضع الجانبى من وجهها كعين فرس ألهبته سياط راكبه . كانت تلمع رعبا أحيانا ، وبلادة احيانا اخرى . ولم يكن ذلك الراكب سوى روح شريرة سوداء قفزت على ظهر تلك الفرس لتهرب من نيران جحيم يلاحقها ، ويريد أن يطبق قبضته النارية عليها ليعيدها الى السعير المتقد . اكتسحت هذه الروح الشريرة فى طريقها الاب المسكين وأردته صريعا ، قبل أن تنقض على كاهل الابنة العزلاء . اصابع قاسية ذات مخالب اقتلعت الزهرة من جذورها ، والقت بها الى حيث تدوسها الاقدام . القاتل المختال وجد الباب مواربا فدخل ، واغمد خنجره المسموم فى الصدر الحنون . أكان هذا غضبا الهيا صب على هذه الفتاة الغريرة المستهترة ، ان الاحزان الكبيرة يمكن أن تطهر فيفيق القلب ، ويصحو العقل ، ويدركان على اى شفا هاوية يقفان . والخطر الشديد يوقظ الحذر ، ويشحذ الشعور على ان يهب ويصمد ، فلا يمضى ينجرف الى دوامات الغرق . من يدرى ؟ فربما هذا البلاء الم بالهام الآن من اجل خيرها وصلاحها فى المستقبل . ربما كان عملية جراحية مؤلمة لاستئصال الورم الذى راح يستفحل فى وجودها ، وانتزاع للشوكة التى انغرست عميقا فى حياتها وتقيحت .

وجاءت لحظة الوداع الاخير ، عندما ووری الجسد الحبيب ، وهيل عليه التراب . جن جنون الهام ، وارتفع صراخها . خرت راكعة على الارض تحاول أن تهيل على راسها التراب . ولم تقو اذرع

... المرافقات لها على ان ينهضنها الا بعد أن انتهى كل شيء .
وادركت الابنة فى اعماقها ان الحواء قد امسى حقيقة تتسع وتتسع الى ما لانهاية . نضبت الدموع فى مآقيها ، ونزف الجرح آخر قطرة من دمائه . صارت الفتاة المدللة الضحوك خرقة بالية ، وريشة فى مهب الريح ، نهضت جامدة القسمات . ثم استدارت وانسحبت مبتعدة . لم تعد تتكىء على ذراع احد . لم يكن الخال العجوز الى جوارها . وخيم الصمت . منكسة الرأس كانت تنظر شاردة الى التراب . وفى لحظة ، التفتت الى يمينها فرأت ماجدا الى جوارها . سارا جنبا الى جنب صامتين . وصلا الى أحد التاكسيات الواقفة بالانتظار . تلفتت الهام حولها وسألت :
– اين خالى ؟
لم يبد للعجوز وجود من حولها . كان قد تخلف عن المسير ، وراح يجرجر خطواته فى الصفوف الاخيرة ، قال ماجد لالهام .
– استقلى انت هذا التاكسى ، وسأستقل مع خالك عربة اخرى عندما يصل .
قالت له :
– كلا . تعال انت معى .
ودخلا الى العربة . احس كما لو كانت الهام قد مالت اليه وطوقته بذراعيها . بدت ومضة من العذوبة على قسماتها التى علتها الجهامة بسبب حزنها الشديد . الى جوار الهام من الناحية الاخرى جلست جارتها السيدة نجاة حرم حكمباشى مستشفى حميات امبابة .
رأى ماجد الخال العجوز مقبلا . نزل . اخذ بيده ، وعندما ركب انطلقت بهم السيارة .
قطعت الهام الصمت ، وقالت له :
– سمعت انك طلبت نقلك الى الصعيد ، يا دكتور .
اجاب ماجد :
– اجل ، أردت الابتعاد عن القاهرة .
نظر اليها . ثم استطرد يقول :
– لكن بامكانى ارجاء هذا النقل الآن .
نظرت اليه مستفسرة .
اردف يقول :
– هناك بعض الامور يجب ترتيبها . اناس اعزاء ، يهمنى ان اطمئن عليهم ، قبل أن أرحل . من واجبى ذلك .

قالت :

ـ اعتقد انك على حق فى رغبتك الابتعاد . اضحت الحياة هنا خائفة وانا ايضا اريد الابتعاد الى غير رجعة .

ابتسم مجاملا ، وقال :

ـ هل تأتين معى ؟ سيتيح لك تغيير المكان القدرة على استعادة هدوئك .

شردت نظراتها خارج نافذة السيارة . ثم قالت ، كما لو كانت تفصح عن امنية عزيزة المنال :

ـ وددت ذلك من كل قلبى .

خيم الحزن فى عينيها من جديد . ثم قالت فى قنوط :

ـ هل يفلت المرء من مصيره ؟

رنت هذه الكلمات فى اعماق ماجد ، واثارت دهشته ، فهى غريبة على قاموس هذه الفتاة التى لا تعترف بقدر او مصير مكتوب ، وتعتبر ان الحقيقة الانسانية الوحيدة هى الحرية ، وأن ما من شىء يقف فى وجه رغبات الفرد بل وشهواته ونزواته ايضا ، ما دام انه يستمد من داخله القدرة على تجاهل التقاليد وأحكام الآخرين . « هل يفلت المرء من مصير ؟! » السؤال ذاته يطرحه ماجد على نفسه ، ولكن اجابته مختلفة ، فليس فيها استعلاء بل تواضع واشفاق وواقعية .. لقد أوصلته دراساته وقراءاته واحتكاكاته بالحياة فى المستشفيات على الاخص الى ان يطل على القلب الانسانى ، ويعرف أن الخطايا والرزايا والمحن محاصرة للانسان خائفة ، وأن واجبه الاول أن يمد يده قدر امكانه لينتشل من حمأة الرذيلة من لم تكن هذه الرذيلة من معدنه . ان الاتهام والادانة هلاك ، والرحمة والتسامح بعث للحياة . هل ما عادت الهام تتعلق بأحد سواه ؟ اخذ الاعتقاد بذلك يتزايد فى قلب ماجد ، والسيارة تمضى راجعة من مدينة الموتى . هل تجلت الحكمة الالهية فى الضربة القاسية التى نزلت على رأس الفتاة العزلاء ؟ قربته منها ، وعنيت بأن يجلس فى السيارة معها ، وكأنها تقول له « لا تتركنى . ما عاد لى سواك ، وأنا لا أريد أن أضيع » ثم استفسارها عن نقله الى الصعيد ، وكأنها تكترث بشئونه ، الامر الذى لم تبده فى اى وقت من قبل . هل انتهى فرارها منه ؟ من قلبها ، وليس من لسانها فحسب ، أعربت عن أمنيتها فى أن تسافر معه وترحل ؟ «والى غير رجعة » تترك أصحاب السوء الذين كانت مرتبطة بهم أوثق ارتباط ؟ اهى تقول بذلك كاميليا ورامز « وداعا الى الابد » ؟ التوبة

تأتي على اثر الندم ، فهل سيغفر لها ، وتكتب لها الحياة فى كنفه وبيته من جديد ؟ « وددت ذلك من كل قلبي » افصاح عن ندم والتماس للتوبة ، اعتراف بدمامة الماضي ، وتوق الى التخلى عنه . اتوق صادق هو ؟ تخل « دون رجعة » ؟ أم هو من تأثير هول اللحظة العابرة ؟ تأثير بدوره عابر ، سرعان ما يتبدى كما يتبخر ضباب الفجر عندما تطلع الشمس وتدفىء « الجو ؟ » تعال ، أنت معي « أبق أنت بجانبى ، فما عدت أحس بالامان الا بجوارك . ألم يكن هذا ما تعنيه ، بكلماتها وايماءاتها بل وبكل كيانها ، والسيارة راجعة منطلقة بهم الى مدينة الاحياء ؟ هل كانت ستستفيض فى الحديث اليه بوضوح اشد ، اذا لم تكن لحظة الموت تفرض على الموقف هيبتها ورهبتها ؟ ان موت ابيها ، ذلك الموت المفاجىء المخيف ، هوى على كيانها مثلما تهوى من السماء صاعقة . وفى ومضتها المزلزلة استبانت حقيقة الزيف الذى كانت تحيا فيه ، وصارت عيناها تبصران بعمق اكبر . ان الالم الشديد بقادر ان يطهر من الادران ويخلص . ولا شك ان الالم الذى نزل على الهام مفاجئا مزلزلا كان قاسيا .

نظر اليها . كانت ترنو الى الخارج . تتلاحق البيوت والناس والكائنات على حدقتيها فى شرود . وبين الفينة والفينة تلتفت اليه . تنظر اليه . ثم تنكس رأسها وتطيل النظر الى أصابعها المتشابكة فى عصبية . حاولت جارتها الست نجاة ان تسرى عنها ، فراحت تروى لها حكايات يومية تافهة . لم يبد على الهام التفات اليها ، الا على سبيل المجاملة ، وانتهى الامر بأن اغرورقت عيناها بالدموع . أسندت جبينها الى راحة يدها ، وقالت باكية :

ــ اريد ابى . لا استطيع ! لا استطيع !

مال ماجد نحوها . ربت على كتفها فى حنان ، وقال لها :

ــ أتعرفين ، ماذا أعتقد انا ، يا الهام ، كلما تذكرت المرحومين ، ابى وأمى ؟ انهما ينامان فى هدوء ، نوما مديدا مريحا ، ويحلمان بى . يجزعان لتعبى اذا تعبت ، ويسران لسرورى اذا سررت . ويتمنيان لى فى الحياة كل توفيق . ولهذا أشعر أن من واجبى الا اسبب لهما فى رقادهما كدرا ، وأتصرف كما لو كانا يتابعان كل خطواتى ، ويباركاني . ولهذا اجتهد أن أكون عند حسن ظنهما بى . أتحاشى كل ما يغضبهما ، وأسعى الى كل ما فيه الخير ، كى يهنئا فى نومتهما الأبدية ، ويرتاح بالهما . أرى ابى قرير العين بكل ما افعله صالحا .

وهكذا ارى اباك . اقبلى اذن على الحياة ، وافعلى كل ما يسعده فى نومه .

انهمرت الدموع من عينى الهام . غمزت السيدة نجاة الى ماجد من وراء ظهر الفتاة كى يكف عن هذا الحديث الذى يثير أشجانها . وغيرت مجرى الكلام موجهة قولها الى الخال العجوز الجالس بجوار السائق :

ـ أخطرك من الآن ، يا صلاح افندى ، اننى سأوزع الشربات بنفسى فى فرح الهام . وسأطلق أول زغرودة تجلجل فى أرجاء العمارة كلها . وأعلم يا صلاح افندى ايضا ، اننى اجلب السعد لكل من احبهن . وستسمع عن فرح الهام قريبا .

لم يلتفت صلاح أفندى الى محدثته ، كانت آلامه الروماتيزمية تجعل من استدارته حركة موجعة ، وقال لها وهو ينظر امامه :

ـ ربنا يسمع منك ، يا ست نجاة . نريد ان نفرح يا الهام .

مضت الجارة الطيبة فى اشاعة جو البهجة حولها ، كى تنسى الهام همومها ، فعادت تقول للخال العجوز :

ـ وانت ، يا صلاح أفندى ، ماذا ستفعل فى فرح الهام ؟

لم يدر العجوز بما يجيب ، فأسرعت الست نجاة تقول له ضاحكة :

ـ وانت ، يا صلاح افندى ، سترقص . لا تقل ان الشيخوخة تمنعك وأن عظامك تؤلمك ، فأنت فى تلك الساعة ستعود شابا ، وتفارقك كل أوجاعك .

ضحك العجوز ثم انخرط فى نوبة من السعال .

مضت الجارة العطوف تقص نوادر سارة حتى تطرد الكآبة عن الهام ، وتربت على وجنتيها بين الفينة والفينة ، وتنظر الى ماجد ، وكأنها تقول له « هكذا يكون الكلام فى مثل هذه المناسبات » أو كأنها تقول له أيضا «ماذا تنتظر ، يا رجل ؟ أليست هذه عروسا مناسبة ؟» ولكن ما كان ثمة شيء ينتشل الهام من حزنها الذى عشش فى أغوار صدرها .

وصلت السيارات الى البيت . صعد بعض النساء مع الهام الى غرفة الجلوس . وجلس ماجد فى الصالة مع نفر من المعزين . كان ينتظر أن ينصرف الحاضرون حتى يذهب الى الهام . بعد هنيهة رأى فتحى الشفقى يشير اليه أن يقترب منه . انتحى به جانبا ، وقال له الصحفى العجوز :

ــ منذ قليل سمعت هذا الحيوان رامز يقول انه سيصحب الليلة الهام الى بيته ، حتى لا تظل وحيدة .. يجب ان تفعل كل ما بوسعك حتى تحول دون ذلك . انها لا تعرف ولا شك ماذا فعل هذا الداعر بأبيها حتى أودى بحياته ، وسوف تكون مهزلة ان يبدو القاتل فى مظهر المتعطف على ابنة القتيل المسكينة ، فيمد لها يد العون والرعاية .

ــ هل سمعته يقول ذلك ؟

ــ كان يتحدث عنها ، كما لو كانت شريدة لمها من الشارع ؛ حتى يقيها الجوع والسغبة . لم يبق لهذه المسكينة ــ هكذا قال ــ ما يقيم أودها .

اكتفى ماجد بهذا . مضى فورا الى طلب رامز . وجده فى نهاية البهو واقفا يتكىء بظهره الى الحائط ويتحدث الى اثنين من معارفه ، واحد منهما هو زوج اخت الوزير الطامع فى منصب رئاسة التحرير . اتجه اليه مقتضبا . أطبق يده على ساعده ، وجذبه قائلا :

ــ أريدك لحظة .

بوغت رامز ، واحس بقوة القبضة التى تطوق ساعده الرخو ، فلم يقاوم ، وتبعه . زج به ماجد الى غرفة الطعام حيث كان الخادم يعد أقداح القهوة . حصره فى ركن ، وأخرج من جيبه خطاب الاستاذ شفيق . دسه تحت عينيه وقال :

ــ اقرأ .

جرت عينا رامز على سطور الخطاب ، وصمت .

قال له ماجد :

ــ ترى جيدا ان الهام ليست فى حاجة الى عونك .

رفع رامز عينيه الخبيثتين الى وجه ماجد ، وقال له ساخرا :

ــ هذا من فضل الله ، لاننى لا أكتمك ، كنت أرثى كثيرا لحالها.

أردف ماجد يقول فى حزم :

ــ ولن ترى اناسا من امثالك بعد اليوم . اغرب عن وجهها ، ولا تفكر ان تطلب استضافتها فى بيتك القذر .

تفاخر رامز قائلا :

ــ نحن صنعنا الهام . انا وكاميليا .

أجابه ماجد بجفاء :

ــ أنتما اللذان هدمتما الهام .

ــ فتحنا عينيها على الفن .

ـ قدتماها الى طريق الخراب .
ـ لا حول الله ! خيرا تفعل شرا تلقى !
ـ وفر عليك احسانك !
حاول رامز ان يبدى غضبه :
ـ بأى حق تخاطبنى هكذا ؟
تجاهل ماجد سؤاله ، ومضى يقول له بخشونة :
ـ الخير الوحيد الذى تستطيع أن تفعله لالهام هو الا تطأ قدمك هذا البيت بعد اليوم .
اجاب رامز محتجا :
ـ انى اعترض على طريقة كلامك الى ، ولولا اننا فى بيت المرحوم لعرفت كيف أرد عليك .
ـ وأنا أعرف كيف سافضحكما ، انت واختك . أعرف عن مخازيكما الكثير .
ـ لابد أن أقابل الهام ، واقول لها كيف تهجمت على .
احتقن وجه ماجد من شدة الانفعال . ارتعشت يده قليلا ، وهو يشير لخصمه الى باب الشقة . قال بلهجة صارمة :
ـ ستاخذ اختك وتخرجان من هنا فورا . والا سأقول انا لالهام كيف تواطأت على أبيها .
ثم أضاف بلهجة حاسمة :
ـ سامهلك خمس دقائق ، وسأنتظركما عند باب الخروج .
انسحب ماجد ، وأخلى سبيل رامز ، الذى مضى الى غرفة الجلوس ، حيث تجلس الهام بين رهط من المعزيات .. لوجله ، فكر ماجد انه تهور . قد يثير رامز فضيحة ، فمن بين الحاضرين كثير من الموالين له ، وقد يعرف كيف يستغل دهاءه ليشوه صورته لدى الهام ، وقد بدات ترسخ فى أعماقها ، لكن تصرفات رامز وتلميحاته عن المتوفى وعن ابنته كانت بالنسبة لماجد استفزازا لا يطاق ، وقد دفعه ذلك الى ما فعل . تمالك نفسه ، وقرر أن يواجه الامور على النحو الذى ستتطور اليه ، وسيدخل المعركة ضد رامز حتى نهايتها ، مهما كلفته، حتى ولو خسرها ، واذا خذلته الهام فى تحديه لرامز فلسوف يعتبر ذلك دليلا نهائيا على عدم صدق نواياها قبله ، وسيكون امتحانا مناسبا ليعرف على اى امراة سيرتكن فى حياته كلها .
ما عاد ثمة مجال للتراجع . ذهب الى باب الشقة ، وراح ينظر الى ساعته فى قلق .. دهش ماجد واستراح فى الآن ذاته ، عندما لم

تمض المهلة التى منحها لغريمه واذا به يظهر مقبلا نحو الباب بصحبة اخته . ما الذى جعله يتراجع بهذه السهولة ؟ اهو قد فكر فى الامر وخشى من تهديد ماجد بافشاء بعض أسراره ؟ أم انه جس نبض الهام فى الامر . ولم يجد منها استجابة ان لم يكن قد لمس منها تصلبا وخذلانا ؟ أم انها العناية الالهية ذاتها تتدخل لتصوب مسار الاحداث، وتبسط على الفتاة الفقيرة المظلومة حمايتها ؟ من رامز وكاميليا من امامه ، ولم يلتفتا اليه . قالت كاميليا لأخيها بلهجة موقورة ، وبصوت قصد به أن يسمعه ماجد « لا يخجل من نفسه . رفضته اكثر من مرة ، والآن يستغل ضعفها ليكرهها على قبوله » وقال رامز ساخرا « فاكر تحت القبة شيخ » وبصق على الارض . عادت كاميليا تقول « لا يعرف انها قتلت أباها » وقال اخوها « عندما يعرف الحقيقة سيسرع بالفرار منها فرار السليم من الاجرب . » اختفيا عن انظاره ، وسمع خطواتهما تنزل درجات السلم . اغلق ماجد الباب ، وقد ازداد اصرارا . ربما ارجأ رامز محاربته الى فرصة اخرى مقبلة . لكن هذا ما عاد يعنى ماجدا الآن ، فقد ازاح من طريق الهام لبعض الوقت هاتين الحشرتين السامتين ، وأصبح أمامه فسحة كي ينتشلها ويقيها هجوم الاعادى مدى الحياة ، فان الايام المقبلة ثمينة وحاسمة فى شفاء الهام وانقاذها . لن يضيع ماجد لحظة واحدة من هذه الفرصة ، التى ربما ايضا كانت فرصته الاخيرة . كل شئ يبشر بالخير ، وتسير الامور كما تبدو لصالحهما .

بعد قليل ، انصرف جمع المعزين . لم يبق مع الهام سوى ماجد والدكتور مراد شوقى كبير أطباء مستشفى الحميات وزوجته السيدة نجاة اللذين اقترحا عليها أن تسافر معهما والاولاد الى عزبتهما المتاخمة للقاهرة ناحية امبابة لقضاء بضعة أيام . هناك تستطيع الفتاة المجهدة أن تستجمع شتاتها وتستعيد هدوءها ، لكن الهام كانت تائهة لا تعرف ما تقرر ، واعتذرت عن قبول هذه الدعوة .

راح ماجد يتأمل الهام ، وهما يجلسان جلسة عائلية والبيت قد خلا من سواهما . غدا أو بعد غد سيفاتحها . سيقول لها كل ما فى قلبه ، وان كانت هى تعرفه .. ستنتهى الآلام ، وستعرف الهام ـ بعد أن قربت بينهما هذه المحنة ـ مدى صدق عواطفه واخلاصه لها . كانت تبدو مثل حمامة صغيرة تريد أن تحتمى تحت جناحى أمها ، وتجد الى جوارها الامان . قريبا ، سيعلن خطبته عليها ، وستنتهى بذلك أقاويل الناس عن الفتاة التى تركها أبوها مهيضة

الجناح ، وما ان تمضى فترة الحداد المقررة حسب التقاليد سيعقد زواجه عليها . وسيرحلان فى رحلة شـهر عسل سعيدة ومنها يعودان لا الى العاصمة ببهارجها وزخارفها وصخبها ، بل الى مقر عمله الجديد ربما فى ملوى ، أو سوهاج ، أو نجع حمادى . او ربما أبعد من ذلك . وحبذا لو كانت مدينتهما الجديدة اسوان .

زواجه من الهام ! هل آن لحلمه ان يتحقق ؟ هل سيقدر له ان يأخذ الفتاة التى طالما تمناها زوجة بين أحضانه ، ويغمرها بقبلاته وحنانه ، وان تبادله هى عواطفه الصادقة ؟

قطع الدكتور مراد حبل خيالاته ، عندما مال نحوه ، وقال :

ـ سنأخذ الهام لتعيش فى بيتنا بعض الوقت .

لم تبد الفتاة المجهدة معارضة . كما لم يعارض ماجد هـذه المرة ، فشتان بين بيت رامز الموبوء وبيت الدكتور مراد المصون .

الفصل الثالث

ليلة مع التنين

- ٣٠ -

مرت الايام دون أن يجد ماجد الجراة فى نفسه أن يفاتح الهام فيما كان يريد أن يفاتحها فيه . انتابته رهبة لم يكن يتوقعها ، ألجمت لسانه ، وجعلته كلما هم بالكلام فى الامر حول دنة الحديث الى موضوعات أخرى ، ليست فى عمومها بذات أهمية . وقد قوى من رهبته تلك ما كان يلاحظه على الهام من أعياء نفسى ، على الرغم من انها ما عادت تذرف الدمع على فقيدها العزيز ، ولا تشير الى رحيله من بعيد أو قريب . كانت تلزم صمتا شامخ الاسوار ، يرغم من ينوى محادثتها أن يتراجع ، ويرجىء كلامه الى فرصة مقبلة . تلتمس ممن حولها أن يتركوها فى هدوء ، حيث انها متعبة . يتهدج صدرها ، وينتاب تنفسها نوبات من ضيق . يزحف الشحوب الى وجهها ، وتثلج أطرافها ، دون أن يكون لكل هذه الاعراض سبب عضوى ظاهر ، فتضعها السيدة نجاة فى الفراش ، وترتب الغطاء من حولها ، وتوارب ضلف النافذة حتى تعتم الحجرة ، وتترك الزجاج مفتوحا كى تدخل نسمات من الهواء منعشة . ثم تنسحب وأولادها من الغرفة ، وتقول لهم وهى تغلق الغرفة « دعوا ضيفتنا العزيزة ترتاح ، الزموا الهدوء » فان راجح وصفاء ومنال يطيعون أمهم ، وينزلون الى الحديقة المجاورة حتى لا يسبب لعبهم صخبا يزعج ضيفتهم وجارتهم الحبيبة .

ذات مرة ، اقبلت منال الصغيرة على ألهام ، وكانت تجلس فى الشرفة . صعدت الى حجرها ، وأرتها دميتها الصغيرة ، ثم اعطتها لها ، فأمسكتها بين يديها ، وراحت تقبلها شاردة البال ، بعد برهة ، قالت لها منال ببراءة :

- انا مامتها ، لكننى لا أعرف من هو باباها .

انتابت الهام نوبة من الصراخ الهستيرى ، القت الدمية بعيدا عنها ، كما لو كانت تمسك عقربا ، وانزلت منال من حجرها . جرت الى حجرتها . اغلقت بابهاوسمع من الخارج نشيجها . اقبلت السيدة نجاة على عجل . دخلت اليها فوجدتها منكفأة على الفراش تتلوى فى

بكاء مرير . ربتت على كتفيها ، وبللت جبينها ووجنتيها بماء الكولونيا . ثم راحت تطيب من خاطرها دون أن تستطيع أن تعرف السبب الذى دفعها الى مثل هذا الانهيار لكلمات لا تبدو لها دلالة ، وان كانت السيدة نجاة تصورت ان الاشارة الى والد الدمية ذكر الهام بأبيها الراحل . لكن الامر ظل غير محدد ولا مقنع للسيدة نجاة ، التى اعتذرت لها الهام عن خشونة مسلكها نحو ابنتها الصغيرة . وطلبت اعطاءها جرعة من الدواء المنوم . وتركها وحدها ، حتى تستعيد هدوءها .

ومنذ ذلك الحين ، صار الاولاد الثلاثة اذا اقتربوا منها ينظرون اليها وجلين ، خشية ان تبدر منهم نأمة او كلمة تعكر صفوها ، وقد كانوا يحبونها حبا صادقا ، مثلما كانت تحبها امهم السيدة نجاة وابوهم الدكتور مراد ، الذى كان يتظارف بعض الاحيان ، ويطلق نكتة او يحكي نادرة طريفة كي يسرى بها عن الهام او ينتزع الابتسامة ان لم تكن الضحكة من شفتيها . الا أن الامر كان ينتهى بأن يضحك هو وحده مما اطلقه او حكاه . اما الهام فكانت غائبة عما حولها . تعيش فى عالم خاص بها ، مغلق عليها . تبدو غريبة عن كل ما يدور من حديث حولها ، وتنظر الى محدثيها بادب ، وتجتهد فى أن تبدى الدماثة لهم ، لكن فى أعماق عينيها على الدوام نظرة تقول « لا شأن لى بكل هذا » .

وكان يحلو للسيدة نجاة ـ بل كانت ترى من واجبها كامرأة وزوجة وام ـ ان تلمح لالهام الى مستقبلها ، والى ضرورة الا تترك نفسها هكذا ، فان الطريق القويم لكل فتاة هو الزواج ، فكانت الهام تبدى امتعاضها وجزعها ، وكانت ترجو محدثتها ان تغير هذا الموضوع ، والا تعود اليه مستقبلا .

وامعانا من الهام فى احكام العزلة من حولها ، طلبت أن يصرف كل من يأتى للسؤال عنها ، وعلى الاخص صديقاتها وأصدقائها القدامى ، مثل كاميليا . وقد فهم الدكتور ماجد من ذلك أن الهام قطعت صلتها بنوعية الحياة التى كانت تحياها قديما ، وانها قررت ان تغير نمط سلوكها تغييرا جذريا . وعندما سألها ماجد عما اذا كانت تريد منه ايضا ان يتوقف عن زيارتها تشبثت بيده ، وقالت له فى جزع :

ـ لو تركتنى انت ، لم يعد لى أحد فى الدنيا . ارجو الا تضيع منى .

ربت ماجد على يدها المتشنجة على يده ، وقال لها :

ـ لا تعتقدى اننى استطيع ان احيا دون آن اراك كل يوم .
نظرت اليه بعينين حزينتين مفعمتين بالامتنان .
سألها :
ـ هل تفهمين مشاعرى نحوك ؟
أومأت بالايجاب . ثم نكست رأسها وصمتت .
اشفق عليها ماجد ، وقال لها :
ـ لا تخشى شيئا . أنا بجانبك على الدوام .
ولكنه ما أن يهم أن يفاتحها فى أمر الزواج يحجم . قد يكون الحديث فى هذا الموضوع وهى فى حالتها النفسية المضطربة ، تصرفا غير لائق منه ، ويتضمن جرحا لأحاسيسها الكليمة ، فكان يقرر أن يرجىء مفاتحتها الى وقت مقبل ، عندما تسترجع هدوءها تماما ، حتى تكون قادرة على استيعاب مرامه ، فلا يبدو نهازا لحالة ضعفها وانكسارها هذه ، فلم يكن من شيمته أن يستغل ضعفات الناس . ولا يريد أن يبدو لدى الهام أنه يمارس عليها اكراها ليحملها على قبول الزواج منه فى ظرفها السىء الذى تجتازه ، فلتمر اذن ايام الحزن الاولى وبعد ذلك ستكون فرصة الحديث معها فى شأن زواجهما انسب . لكن الايام راحت تمر ، وحالة الهام لا تتحسن ، ان لم تزدد سوءا .
فى اليوم العاشر ، عندما جاء ماجد لزيارتها فى المساء كعادته ، قالت له الهام :
ـ نويت أن أعود الى بيتى ..
ـ ولماذا تتعجلين العودة إلى البيت ؟ ماذا ستفعلين هناك ، وحيدة ، وخاصة بالليالى ؟ ستبدو عليك ثقيلة الوطأة .
علت شفتيها ابتسامة مريرة ، وقالت :
ـ لابد أن اهتم بأمور حياتى . غدا بعد الظهر سأعود الى شقتى .
ـ هل تسمحين أن أجىء لاقضى معك هناك بعض الوقت ؟
ـ أجل ، بل سأكون شاكرة لك ذلك . معك لن أعانى الوحدة وبجانبك أحس بالاطمئنان . كما أننى أريد أن أتحدث اليك على انفراد فى بعض الامور .

ـ ٣١ ـ

همت أن تدق الباب وتخبره .

وفد اليه صوته من الحمام :
ــ من القادم ، يا أمينة ؟
أجابت :
ــ صديقك ماهر جلال .
قال :
ــ ادخليه الى غرفة الجلوس . سأحضر اليه حالا .
ذهبت أمينة الى الضيف . نحيل ، وفط المشيب شعره المجعد . وامتلأ وجهه بالتجاعيد . كان خفيض النظرات ، فاذا رفع وجهه الى محدثه نمت عيناه عن ألم دفين فى أعماقه البعيدة مكتوم . فاذا ابتسم ، كانت ابتسامته نداء هامسا عله يبلغ من يفهمه رسالة .
قادته الى غرفة الجلوس حيث اتخذ لنفسه مقعدا من مقاعد تلك الغرفة ذات الطابع الشرقى ، الذى ماعادت له اليوم قائمة فى بيوتنا التى زحف اليها « المودرنيزم » وعلى منضدة صغيرة بجواره وضع ما كان يحمله من أوراق وكتب .
لاحظت أمينة أنه على الرغم من هندام ماهر جلال المهذب ، فان زرار قميصه الايسر مفقود ، ويحاول من وقت لاخر بحركة من يده أن يخفى موضعه الخالى عن أنظار الاخرين . همت أن تطلب منه أن تخيط له الزرار الناقص . الا أنها خشيت أن يكون فى ذلك احراج له .
اضاء وجهها بابتسامتها الودود ، وسألته عما اذا كان يشرب قدحا من الشاى ، بأدبه جم اختار قدحا من القهوة السادة .
بعد هنيهة جاء ماجد ، وطلب من أمينة قدحا من القهوة بدوره .
كان الهدف من زيارة ماهر جلال اهداء ماجد نسخة من كتابه الجديد . وما لبث الصديقان أن خرجا بعد قليل .
على المنضدة الرخامية الواطئة بغرفة الجلوس استلفت الكتاب بغلافه الاحمر أنظار أمينة فالتقطته ، وتصفحته . استوقفتها بعض السطور ، « ... ليس المهم أن تكون محبوبا المهم أن تحب ، وان تعرف كيف تحب من أعماق كيانك ، أن تعطى ولا تنتظر أجرا ، أن تمنح ولا تتوقع سوى الجحود ، أن تضىء الظلمة وانت تحترق مثل شمعة . فى الاسواق كل السلع ، كل الخدمات ، كل المتع ، ولكن شيئا واحدا أصبح اليوم نادرا : الانسان »
علقت أمينة على ذلك ، متمتمة لنفسها « ولكنه موجود » على تراب سيناء ، وفى مياه القناة ، لازالت من دمائه بصمات . والسواقى

ذات الانين ستظل تنعى كل يوم شهداء . اعلمت الكتاب برفق .
قرات عنوانه « الحب ، محاولة للفهم » ثم مضت به الى غرفتها .

- ٣٢ -

في السادسة من اليوم التالى دق ماجد باب شقة الهام . فتحت له . استقبلته بابتسامتها التى أضحت تقطر حزنا لا برء منه . جلسا فى الصالون صامتين برهة . ثم قال لها ماجد :

ـ ما رأيك ، يا الهام ، أن نخرج معا فى نزهة حتى تسرى عن نفسك قليلا ؟

اجابته كما لو كانت لم تسمع ما عرضه عليها . جاء قولهـا مبهما ، مشحونا بالاستغراق الشديد فى الموضوع الذى سـوف تحدثه فيه :

ـ بعد بضعة ايام ، سأحتاج الى البحث عن عمل ، واريد أن استشيرك فيما يجب أن افعل .

أراد ماجد أن يصرف ذهنها عن الانشغال بموضوع العمـل ، فقال :

ـ صحتك مازالت لا تسمح لك بمثل هذه المشروعات . انت بحاجة الان الى أن تستنشقى بعض نسمات المساء المنعشة .

اصرت الهام على الا تحيد عن الموضوع الذى يشغلها :

ـ الحياة ما عادت ترحم أمثالى ، يادكتور . يجب ان اتحامل على نفسى ، واخرج للبحث عن عمل . ربما من باكر . هل تعتقد انهم يقبلوننى فى المجلة التى كان يعمل فيها ابى ؟

قال ماجد معاتبا جزعا :

ـ اى كلام هذا الذى تقولينه ، يا الهام ؟

ـ سأرضى بأى عمل . فى أى مكتب ، وبأى مرتب . لابد أن أعيش .

نزعت سوارا فنسيا من حول معصمها ، واعطته له :

ـ هل تؤدى لى خدمة عاجلة يا ماجد ، بع هـذا السـوار واحضر لى ثمنه .

نحى اليد التى تحمل السوار جانبا ، وقال :

ـ دعك من هذه الهموم الان .. تعرفين جيدا انك لست فى هذه الحياة وحدك .

ـ اعرف أن ثقة ابى فيك كانت كبيرة ، وقد اوصاك بى خيرا .
ـ الهام ، لا داعي لاجترار الاحزان . انفضي عنك الماضي .
ـ ليتني تبينت ذلك من قبل . تأكد انني كنت احترمك كثيرا ، واكن لك تقديرا كبيرا ، بل كان ثمة مايجذبني نحوك ، لكنني فعلت كل ما بوسعي كي اتحاشاك واتجنبك ، بل وان احطم ما بيننا من جسور التقاء . كانت على عيني غشاوة ، لم اكن ابصر الحق . طاش صوابي وجرفتني الاعيب الحماقة بعيدا عنك ، بعيدا جدا . لكنك على الدوام كنت بداخلي . اسمع صــــوتك ، وازعم لنفسي انني لا اسمعك .

اجابها ماجد متأثرا :

ـ يكفيني قولك انني كنت بداخلك ، وانت تعرفين انك كنت بداخلي ، وانني ولدت من جديد عندما التقيت بك .

ـ كنت أشعر بما تكنه لي في قلبك ، لكنني كنت خرقاء طائشة .

ـ لنبدأ معا صفحة جديدة ، يا الهام . اتركي الماضي وراءك .

ـ ومن قال انني لا اريد ان اترك الماضي ؟ انني اكرهه . لكن هل يتركني الماضي وشأني ؟ هل يترك الوحش فريسته بعد أن انشب فيها مخالبه ؟ هل ينجو الغريق من الدوامة متى اخذت تجذبه الى القاع بشدة ؟

ـ يؤلمني أن اراك تفكرين وتتحدثين على هذا النحو اليائس . بينما تعرفين انني اقف بجوارك . ماذا تريدينني ان اقول لك ؟ هل هذا افصاح منك عن قلة ثقتك بي ، أم ماذا ؟

تناول معصمها في رفق ، والبسها السوار الذى كانت خلعته واعطته له . قال لها معاتبا وملاطفا :

ـ هذا السوار المحظوظ يلتف حول اغلى معصم في الدنيا ، ولهذا فانه لا يقدر بثمن ، ولا يجوز بيعه ..

تناول راحتها بين يديه وقال :

ـ ما كان يصح حتى أن يخطر ذلك ببالك . تعرفين كم احبك .

رفعت الهام رأسها ، وثبتت انظارها في عينيه ، ثم قالت :

ـ اعرف رغبتك ، ولكنها مستحيلة التحقيق . انى مضطرة أن ابحث عن عمل وأعيش وحدى .

تضايق ماجد من كلام الهام . لم يكن يساوره شك في انهـا كانت تعرف نواياه ، وتدرك جيدا رغبته في الزواج منها .

قالت له بصوت حاولت أن يكون متماسكا وان داخلته فى نهايته رعشة :

ــ أرجوك لا تتعلق بى . أنا لا أستحقك . ماعدت أصلح لك . آسفة . ابحث عن امرأة أخرى تكون أهلا لك ، وجديرة بك . اما انا ..

لم تكمل عبارتها .

زياراته الاخيرة لها ، كلماته وايمباءاته كلها كانت تنبىء عن تمسكه بها . وقد فهم الدكتور مراد شوقى وزوجته مقصده النبيل منها ، وباركا هذه العلاقة المشروعة . كانا يريان فيها خير الهـام المحقق ، فلم يكن ماجد بالرجل الذى ترفضه فتاة بسهولة . بل ان أولادهما ادركا أيضا بحسهما الطفولى الخالص ان « عم ماجد خطيب أبلة الهام . » واقترب راجح ذات يوم ، عندما كانت الهام تنزل ضيفة عندهم من أمه ، وسألها ببراءة :

ــ متى ستتزوج الهام من الدكتور ماجد ؟

ابتسمت السيدة نجاة ، واعتبرت ذلك بطيبة قلبها فالا حسنا ، وقالت لابنها الذى لم يتجاوز من العمر عشر سنوات :

ــ قريبا ، ياراجح ، قريبا .

عاد يقول لامه :

ــ فى الفرح اريد ان اتصور معهما .

ربتت الست نجاة على رأس صغيرها ، وقالت له :

ــ باذن الله ، ياحبيبى ، باذن الله ، وستكون الصورة جميلة جدا ، مثلك .

قال الصغير بلهجة الواثق من نفسه :

ــ لا ، ياماما ، مثل العروسة !

ضحكت الام ، وهى تحكى هذه النادرة لماجد ، عندما جاء للزيارة وقالت له :

ــ تصرفاتك ، زياراتك ، ودك ، كل هذا نراه يا دكتور ماجد ، ونقدره ، بارك الله فيك ، ونولك مرامك . صبرا يابنى ، صبرا ، وعلى رأى المثل « طول البال يهد الجبال . »

ولكن بعد كل هذا ، وقد تيقن من أنها أصبحت قريبة منه غاية القرب وان ارتباطهما الابدى وشيك التحقق ، بعد أن انسلخت من رفاق السوء الذين أعتقد أنهم هم الغشاوة التى تحول بين عينيها ورؤيته على حقيقته ، اذ بها تعود فتقول له ماسبق أن قالته له ذات

يوم اول ماعرفها « الزواج ؟ هذا مستحيل » كيف نعود الان ، ر...
قربت بينهما الظروف ، فتقول له « هذا مستحيل ؟ » انها اذن
لا تحبه . لا تستطيع ان تحبه ، مستحيل أن تحبه .

هل ظنت الهام انه انتهز فرصة محنتها ، ليستغل ضعفها ، ويلجئها الى الزواج منه ؟ يجب أن يطرد من ذهنها هذا الخاطر . ان لم يكن من اجل البلوغ الى قلبها ، فعلى الاقل ذودا عن كرامته ، فهو لا يقبل ذلك ، ويتقزز من مجرد ان يدور بخلدها مثل هذا الهاجس .

بعد برهة صمت ، قال لها :

ـ أود أن اقول لك انك لست ملزمة ان تفعلي ما لا تريدينه . وانا من ناحيتي ، منذ هذه اللحظة صرفت النظر تماما عن كل فكرة ارتباط بك . لكن ليس بامكاني ان اتركك هكذا في مهب الريح . انى ملتزم من قبل أبيك . ولن اخذل صديقا في مشيئته الاخيرة . اسمحي لي على الاقل أن اتصرف لمصلحتك ، حتى تقفي على قدميك . واريدك ان تتأكدى انك في اى وقت تحتاجين الى ستجدينني رهن اشارتك . والى أن تصبحي قادرة على تولى مقاليد امورك بنفسك ، ستتلقين مبلغا شهريا ثابتا منى . لن يكون ذلك تفضلا عليك ، بل هو دين اوفيه لصديقى القديم المرحوم أبيك . أو بعبارة أخرى ، اعتبريني بمثابة ابيك . وكى انزع من قلبك كل خوف من أن اكون مراوغا لك في موضوع زواجك منى ، سأبتعد عنك ، سأسافر وسأترك لك عنوانى وستتلقين منى خطابا شهريا . اتفقنا ؟

ـ تسافر بسببى ؟ كلا ، كلا .

ـ سوف يكون هذا حلا .

ثم وضع راحته على صدره ناحية قلبه ، وقال :

ـ كما انني بحاجة أن أشفى من الم داخلى ، يا الهام . كنت انت السبب في هذا الالم ، لكننى لا الومك . تأكدى من ذلك .

ـ ستلقى بنفسك بعيدا عن العاصمة ؟ القاهرة هي مكانك . اهتماماتك الفنية والادبية تحتم عليك البقاء هنا . الفنانون بحاجة الى نقدك . كلمتك هي رسالتك ، لا انكر انك طبيب ، لكن كثيرين يستطيعون أن يؤدوا العمل الذى ستذهب لتؤديه في الريف أو في الصعيد . اما حركة الفنون ، الوجه المشرق لبلدك ، فيدعوك ان تبقى هنا ، وتناضل الى جوار الفنانين ، لتقيم اعمالهم ، وتدفع بمن يستحق منهم الى الامام ، كلمتك امل بالنسبة للبعض ، وعزاء للبعض

الاخر ، وهى ايضا مطاردة للطفيليين حتى لا يخدعوا ويحتلوا اماكن غيرهم ، وهم اجدر منهم بها ».

ـ انت تبالغين فيما تقولين يا الهام . ثم انك تحاولين تحويل دفة الحديث عن الموضوع الرئيسى .

ـ كلا ، كلا ، ارجو أن تفهمنى . ربما أسأت التعبير ، لكن اعرف ان هذه اللحظة التى أحدثك فيها هى من اللحظات التى لست فيها مستهترة بل شجاعة ، ولتكلفنى الثمن غاليا . لا يهم ذلك . وانما المهم هو انت . اننى لا استحق منك اية تضحية . انت لا تعرف حقيقة الامور . انى مخلوق ضائع ، ساقط فى الوحل متمرغ فيه . تأكد اننى أعرف ما اقول ، واستحق جزائى . آه ، يا الهى ، لماذا لا أستطيع أن أسعد بالنعمة الكبيرة التى أرسلت بها الى .

بعينين مذعورتين نظرت اليه ، واردفت تقول :

ـ لا يمكنك يا دكتور ان تتصور الكارثة التى حاقت بى . ليس ثمة كارثة يمكن أن تكون أشد وطأة . لم أعد ملكا لنفسى . انا فى أعماق دوامة جذبتنى الى قاعها المظلم .

خيم صمت ثقيل ، قطعه ماجد سائلا بتردد وحيرة :

ـ هل تحبين رجلا آخر ؟

ابتسمت ابتسامة تقطر مرارة ، وقالت :

ـ الرجل الوحيد الذى أحببته ، ماعدت بقادرة أن أقول له انى احبه . فعلت كل مابوسعى ان افعله كى أخرب هذه السعادة . كنت أسير الى حتفى باصرار كأنى اتعمد ذلك وأريده .

نظر اليها محاولا ان يفهم ماذا تعنى بكلماتها :

أردفت تقول بصوت ملؤه الشجن ، وقد ازداد صوتها عمقا وتهدجا :

ـ اريد ان القى بذراعى حول عنقك ، واتشبث بك ، واهمس اليك متوسلة « لا تكف عن حبى » لكننى لا أجرؤ أن افعل . لم يعد من حقى ان اقول لك ذلك .

نهض ماجد من كرسيه ، وذهب ليجلس على الاريكة الى جوارها . استبد به تأثير شديد ، احس فى قرارة نفسه الالم الذى تعانيه حبيبته دون أن يدرك سببه . كانت تحبه اذن ، وها هى تبوح له بذلك ، ولكنها تريد أن تعترف بشائبة سودت ماضيها ، واثقلت ضميرها ، واعجزتها عن أن تتجه اليه بكل جوارحها . ثم حان الاوان لتبوح له

بها . ستفتح مغاليق قلبها ، وتطرح أمامه كل الحيات التى طالما
وتؤرق بالها . انها لاتعرف بعد أن الحب الكبير الذى يكنه لها قادر على
ان يغفر ، وان يواسي بتواضع واشفاق ورحمة . اخذ يدها الصغيرة
اللدنة بين راحتيه ، أحس ببرودتها ، وتبين كم هى ضعيفة ، بحاجة
الى حمايته ، وتهيب برجولته أن ينتشلها ، ويقبلها من عثرتها ، ويقف
الى جوارها .

قال لها بصوت حنون :

ــ افتحى لى قلبك ، يا الهام .

تركت يدها بين راحتيه فى استسلام ، كما لو كانت مشلولة عاجزة عن أن تمسك بيده وتتشبث بها ، ازداد وجهها شحوبا . واشتدت هالتا السواد حول محجريها قتامة . تحجرت نظراتها الشاردة ، وتدلت شفتها السفلى ، فى تعبير يجسم رعبا دفينا من ذكرى مهولة ارتسمت أمامها تفاصيلها الكابوسية ، وقد صوبتها من حب سحيق :

ــ ما عدت استطيع أن اكون لك . ما عدنا نستطيع أن نكون لبعضنا ، ما عاد لى الحق أن احبك . ولا تستطيع انت أن تحبنى .

سرحت عيناها بعيدا ، وتسمرتا فى بؤرة لا تستطيع منها فكاكا . الجم لسانها برهة . ثم أردفت تقول :

ــ لا أستطيع ، الامر مخيف . . . يجب ان اخبرك . من واجبى الا اخفى عنك .

قال مهونا عليها :

ــ لا تخشى شيئا ما زلات الصبا لا يمكن أن تلقى بظلها على الحياة كلها . عيبك انك مرهفة الحس ، وتبالغين فى نظرتك الى الامور ، وهذا يدل على مبلغ براءتك .

ــ أجل ، ببراءة وحسن نية كنت انظر الى الناس وآخذ الامور كلها . وقد أوردنى ذلك مورد التهلكة ، لا يمكنك أن تتصور كم هو فظيع ذلك الذى حدث لى ، اكاد أخجل ان أصارحك به ، لكن من واجبى ذلك حتى تفهمنى عندما أقول لك انه ما عاد من حقى أن أطلب حبك . دنس حرمنى من اغلى ما كنت اتمناه فى الوجود . انه يحول بينى وبين أنبل واعز رجل التقيت به ، ويمكننى أن أقول صادقة انه الرجل الوحيد الذى أحببته . والذى يجب عليه الان أن يحتقرنى ، ويكرهنى . لا استطيع أن ارفع عينى وانظر فى وجهك . اخجل من نفسى بل ولا أقوى على مواجهتها ، أخجل من نفسى اكثر من خجلى

منك . لقد خيبت امل أبى فى . وليس بمستبعد أن يكون قد مات حسرة على وتندما . لماذا ؟

فهم ماجد أن ما حدث لالهام خطير ، لكنه تصور أن الامر ما كان يتعدى حدا معينا . بأن يكون قد فرطت فى عرضها ، استهتارا أو خديعة ؛ وأن ثمة رجلا سلبها عفتها رضاء أو تحايلا أو اغتصابا . لم يكن ذلك مستبعدا . تصوره نتيجة للحياة التى انساقت لها هذه الفتاة ، سوف يكون من المجافاة للحقيقة الا يقول عنها أنها مستهترة . حزت هذه التصورات فى قلب ماجد ، فهى طعنة لاى محب تدنست حبيبته بالتردى فى احضان غيره . ولا شك أن الطبيعة قد غرست فى كيان الرجل النفور من جسد انثى استبيح لغيره . كظم ماجد غضبته ، وسألها :

ــ ومن الرجل ؟ هل وعدك بأن يصلح غلطته فى حقك ؟ هل تعهد لك بالزواج ؟

صعدت غصة الى حلقها منعتها من الكلام . أومأت براسها علامة النفى . ثم انفك لسانها بعد برهة ، فقالت :

ــ اسأت فهم الحياة . لم أدرك حقيقتها ولكنها . وهذا ما قلته لى فى البداية ، أول ان قابلتك . هل تذكر ؟

لم يجب ..

اردفت تقول :

ــ انا اذكر الآن كلامك جيدا . كنت مغمضة العينين ، ولم أكن ارى وعندما فتحت عينى ، وتبينت انك على حق ، كان قد فات الاوان ، تركت نفسي للأهواء ، تذهب بى أينما شاءت . كنت أفعل ما يعن لى ، دون أدنى تفكير فى العواقب ، كانت رغباتى هى القانون الذى يحتمنى ، وكنت مدللة . ولكى يخدعنى الحظ أعطانى كل شىء اول الامر ، كل شىء كان رهن اشارتى . ولم يستعص على شىء . لم استح من شىء ، ولا من أحد اعتقدت أن كل شىء مستباح . كانت اباحتى مفرطة ، وقد تماديت وتطرفت ، وتعديت الحدود ، ولم يصدنى عن نزواتى أحد . كنت أسخر من المتشدقين بالاخلاق ، ولم أستمع الى أى وازع من ضمير . كنت أقول ما دمت لا أضر أحدا فليس لأحد عندى شىء . لكننى لم أكن أتبين اننى بالاخص كنت أضر نفسى ، وأوردها مورد التهلكة . قد ينجو المرء مرة ثم مرة ، ولكن التردى فى الحمأة لمن كان على شاكلتى نهاية حتمية . لم أكن أتبين ذلك ، وقد تبينته متأخرا . لم يكن لى رجاحة عقلك ، بل كنت

اركب نزواني ، وكانت جوادا جموحا يقفز الحواجز ، ويركض بسرعة جنونية ، الى أن زلت قدمه ، وكانت كبوته قاتله . كم أود الآن أن تكون قد أمسكت بزمامي ، وكبحت جماحي ! لكن الخطأ كان خطأى !
صمتت برهة ثم مضت تقول :

— انى أعترف بذلك ، فلم امكنك من ان تمسك زمامي ، ولم اكن اسمح لأحد أن يمسك بهذا الزمام . كنت أومن ايمانا مطلقا بحريتي . كنت خرقاء . هذا ما نبت لى ، ولكن متأخرا . لا اريد ان ادافع عن نفسي ، ولا أن ألتمس الاعذار حتى تسامحنى أو تشفق على . فأنا أعرف فى قرارة نفسي اننى لا استحق اشفاقك ولا مسامحتك لكن دعني أكشف لك الامر كله ، حتى تعلو كراهيتك لى وتعلو ، فلا تعود تتعلق بى أو تؤمل فى ، بل وتحتقرنى ، فأنا استحققت نقمتى بنفسي .

كزت على أسنانها ، وجحظت عيناها وهى ترفعهما الى السقف تحدق فيه برهة لم تسعف ماجد الكلمات . وما لبثت أن أردفت تقول :

— كانت من حولى صحبة تهون على كل نزواتى . كانوا يقولون لى « انت فى وضع تحسدين عليه ، الدنيا كلها ملكك ، اما اذا تزوجت فستكونين ملكا لرجل واحد يفرض عليك ارادته » ولكن أسوأ ما فى الامر أن هؤلاء الصحاب بذلك فعلوا كل ما بالامكان لابعادى عنك . جعلونى اخافك ، بينما فى أعماقى كنت أنت وحدك الرجل الذى أحبه وأريده ، كنت احترمك ، وارهبك تصورت انك القيد الذى سيحد من حريتى ، وكان تشبثى بحريتى هو ما وضعته نصب عينى — عينى العمياوين — آنذاك ، كنت منجذبة اليك ، لكننى جاهدت كى أقاوم جذبك لى . لابد اننى كنت مريضة ، أو بلهاء ، أو مخدوعة ، كانت بداخلى قوتان تتنازعانى ، حرية ترقى الى حد الفوضى ، والتزام بك يقربنى على الخضوع لك . لو لم أمض بتحريض من صحبة السوء ، لرجحت كفتك ، ولأنقذتنى ، أعرف ، أعرف ، بذلك الكثير كى تقربنى منك ، وتنقذنى ، لكننى كنت كالطفلة المريضة التى تزم شفتيها ، ولا تفتح فمها لتجرع الدواء ، كنت اعتبر انجذابى نحوك ضعفا ، ولم ارد أن استسلم . كنت أعتبر — وهذا ما صرحت لك به منذ البداية ، سامحنى — ان العواطف ضعف ، وعلى المراة ان تدوس على قلبها من أجل حريتها ، لكننى لم اكن اتبين ان الصراع ما كان بين الحب والحرية ، بل بين سمو الروح وعبودية الجسد ، فالحرية على

كما أتبين الآن ، [illegible] من الالتزام . انها صعود الى ما لا نهاية ، بينما كنت أنا [illegible] مفهومي الخاطىء للحرية ، أنحـدر كل يوم وانحدر ، حتى بلغت الدرك الاسفل ، كم كنت مخطئة عندما اعتقدت أن الارتباط برجل ، برجل مثلك ، وبرباط شريف ، رباط الزواج ، هو بالنسبة لك عبودية !

صمتت الهام ، تسترد انفاسها . فقد راح صدرها يتهدج ، وصارت تتنفس بصعوبة

كان ماجد يريد أن يقول الكثير فى لومها ومعاتبتها ، ولكنـه احترم معاناتها فى هذه اللحظة الحرجة ، لحفلة الاعتراف ، الذى ربما اضحى الاعتراف الاخير ، فعلق على كلامها باقتضاب قائلا :

ــ وهكذا فتحت السعادة جناحيها ، وطارت بعيدا :

أخرجت الهام منديلا صغيرا ابيض من بين نهديها . وضعته على انفها ، واستنشقت ما علق به من عطر ، ساعدها على مغالبة الاغماء . ثم عادت بعد برهة صمت تقول :

ــ ثم جاءت الكارثة ، كانت ثقتى بنفسى أكبر مما قدرت ، كنت العب وأسخر من الناس والعواطف والمثل . كانت لى اهوائى . كنت اغير صحابى ، كما اغير فساتينى . لم تكن تربطنى بأحد قبلة أو مغازلة . كنت أحب أن أبدو فتاة بلا قلب ، يقع الفتيان فى حبى وأنا لا اكترث بأحد ، وقد كان هذا هو الدور الذى أردت أيضا أن أمثله فى السينما ، ووعدوا باسناده الى . وذات ليلة ذهبنا فى رحلة الى بحيرة قارون .

ــ اذكر ذلك .

ــ رجوتك أن تأتى معنا . ليتك أتيت . كنت جنبتنى الخراب ، وكنت كسبتنى ، كنا صحبة كبيرة ، خليط من الاصدقاء والصديقات واصدقاء الاصدقاء ، حتى اننى ما كنت اعرف جميع الحاضرين . كانت ليلة قمرية غنينا ورقصنا ، وشربنا ، شربنا حتى سكرنا . كانت الخمور منوعة وقوية ، وما عدنا نعرف ماذا نفعل . كنت مجنونة حقا ، فلم أقدر نفسى حق قدرها . افرطت ، واختل عقلى ، ووقع المحظور فى غيبة من وعيى .

ظل ماجد متصلبا فى جلسته ، تتصـارع بداخـله أحاسيس متضاربة ، من تقزز ، وعدم تصديق ، ورفض ، ودهشة . ايبلغ الانسان هذا الحد من فقدان الآدمية ؟! وعندئذ ماذا تنتظر من صحبة تحولت الى قطيع من البهائم ؟ اهذا ما توصل اليه اذن الحرية ، اذا

اسرة عنهما ، تجردت من مدلولها الانساني ، الذي يربطها بالمرام مثل امسى ؟ لم يعد يعرف ماذا يقول . أينسب ؟ أيثور ؟ أينسحب بدء من بدها ؟ ويصفعها ؟ أم يسكت ، ويستمع الى حديثها حتى النهاية ، ثم ينسحب مهزوما ؟ أيرثى لها ، ويشفق على هذه الضحية الحمقاء ، أكانت حمقاء حقا ، أم لئيمة شريرة سيئة النية ؟ الم تكن المقدمات في تسلسلها توصل الى هذه النتيجة ؟ الم تكن هذه النتيجة محتملة منذ البداية ؟ وكيف يمكن اذن التنصل من المسئولية ؟ اذا سكرت وركبت سيارتك ، ثم صدمت مارا وقتلته ، فهل يمكنك ان تدرأ المسئولية عنك بأنك لم تقصد قتله ، لانك كنت غائبا عن وعيك ؟

قفز امامه وجه الاستاذ شفيق بحزنه العميق ، أكان ألمه الشديد مما حدث لابنته هو الذى اوصله الى لحظة اليأس المطبق ، حين اظلمت الدنيا فى عينيه ، واجهز على حياته ، أم كان احساسه بأنه فقد كل شيء ، حتى ما حارب من اجله طوال عمره ، وتحمل فى سبيله العناء والاجهاد والمذلة ؟ انه ولا شك لم يطق ، كان العبء على نفسه ثقيلا لا يحتمل . ومن يحتمل هذا المصاب المشين ، اذا كان رجلا شريفا مثل شفيق ، بل ومثل ماجد نفسه ؟ بدت تسمات وجه الاب المسكين من خلال غلالة من الضباب الكثيف ، تحادث ماجد دون أن تنبس بكلمة . وادرك ماجد مبلغ الالم الذى مزق عقل شفيق ، وجعله يقدم على فعلته . خفض انطيف نظراته ، وقال لصديقه الشاب هامسا « ما كان يجدر بى أن اتخلى عن مسئوليتى مهما كان الى سمضا ، لكن الضعف الانسانى غلبنى . هل اطمع فى أن تفعل شيئا من اجلى لهذه المخلوقة التعسة؟ » هز ماجد رأسه ، وفى قرارة نفسه وعد الطيف الحبيب ، وهو يبتعد ويتلاشى فى الظلمات حيث يرقد الظالمون والمظلومون جنبا الى جنب — وعد الطيف الحبيب أن يبذل قصارى جهده .

لم تكن الهام قد فرغت جعبتها بعد ، فمضت تحكى ، مثل شريط تسجيل يدور وبلا حياة يتكلم :

— عندئذ فكرت أن اختفى . قررت أن اغادر القاهرة . رحلت الى قريبة لى فى بنى سويف . وددت ان تنشق الارض وتبتلعنى ، ان ينفتح رحم أمى ويجذبنى الى داخله ، وينغلق على الى الابد . وددت أن أروح وأرقد فى القبر بجوارها ، تلك الشقية المسكينة التى ماتت وهى تلدنى . وربما كان ذلك من اسباب قلقى فى حياتى ، وعدم استقرارى . كنت أحس بأننى هاربة على الدوام ، من نفسى ، من

مني ، من المثالية ، من المجتمع ، منك ، من كل ما هو ثابت ومستقر ، من كل ما هو جاد ومنطقي . كنت لا أجد ملاذى النفسي الا فى كل ما هو متطرف غير متزن ، فى كل ما هو شاذ أهوج مشوش غير منتظم. كانوا يصفوننى بالبوهيمية ، وكنت أطرب عندما ينعتوننى بالغجرية الحافية أو بالوجودية الجريئة . اترك السبل الواضحة المستقيمة ، واسلك الدروب الملتوية الجانبية ، مهما كانت وعورتها . كنت امشى حيث ينبت الحسك ، ويدمى الشوك المسنون الاقدام الحافية . أصدقت القول ، لم أكن فى وقت من الاوقات سوية هادئة . كان ثمة على الدوام ما يحرق كيانى ، ويقذفنى بعيدا وعاليا ، ولم أكن قد جربت بعد هول السقطة والارتطام بالارض الصلبة . وها انا ذى اسقط ، وتتحطم ضلوعى على صخرة الواقع ، وما عدت استطيع حتى على قدمى أن اقف . واذا قدر لى أن اسير ، فمنكسة الراس وفى خزى مماجرجر خطواتى . سافرت الى خالتى واخلفت موعدى معك . كان عارى يمنعنى من ان أحضر اليك . أتعتقد انه كان بامكانى ان أجيء اليك ، وان أرفع عينى الى وجهك ، وان ابتسم لكلمة اطراء تقولها ؟ !

نظرت اليه متوسلة . لم يجب . نكست راسها ، ومضت تقول :

ــ اعرف ما هو احساسك نحوى ، ولا اريدك أن تجشم نفسك عناء الاجابة . كنت قد فتحت عينى . افقت من استهتارى وعبثى ، لكن الوقت كان قد فات . ولو كنت جئت لمقابلتك ذلك اليوم ، هل تعتقد انه كان بامكانى ان اكذب عليك ، واتظاهر بالبراءة والطهر ؟ كلا ، صدقنى . صدق امراة ما عاد لها أمل فى شيء . كانت كل حياتى استهتارا ، لكننى كنت صريحة على الدوام . لم اكذب قط . لم أعرف الكذب ، ولم أمارسه . كنت اعتقد أننى لست بحاجة الى ان اكذب على أحد . كنت اعتقد اننى امارس حرية توفر على الحاجة الى الكذب . كنت قادرة على ان اقول لاى رجل يلتقى بى انه يروقنى ، او اننى لا اريده . كان الجميع يعرفون عنى جسارتى هذه ، وكثيرون كانوا يخشون صراحتى ، فيتحاشون أن يسمعوا رايى فيهم . انت تعرف أن الناس تحب أن تتملقهم والا تقول لهم عيوبهم ، اما انا فكانت كلماتى كطلقات الرصاص فى صدورهم . ولهذا فان ذلك الذى نال منى نالنى فى غيبة من وعى ، والا لسمع منى وأصابه ما كان سوف يطوح به بعيدا بعيدا الى اقاصي الارض ، لكن الاقدار تهزىء بنا احيانا ،

او ... ن الواقع تساعد من يسارعون الى حتفهم ، وقد سرت الى حتفي ، ولا ألوم الا نفسي ، لانني كنت شديدة الغرور ، ظننت انني صعبة الانخداع ، وبمنجى من كل الاحابيل ،

صمتت برهة ، تستجمع اشتاتها . ثم عادت تقول :

ـ لم احضر فى موعدنا ، سافرت ، لانني ما كنت أجرؤ ان ارفع عيني الى وجهك الوضاء برجولة جادة طاهرة .

نظرت اليه طويلا ، لكنه لم يجب .. مضت تقول :

ـ ولا حتى الى أحن الناس علي ، الى ابى ، لم اصرح بما حدث لي . كانت كارثة . وفضلا عن ذلك كانت فضيحة . وقد استغلها البعض فيما بعد ضدنا ـ أرأيت ، كم انا مدانة ؟ لقد ساهمت فى موت ابي ـ لكنه وافقني علي السفر الى خالتي . ادرك بحدسه أنني لست على ما يرام ، وأن ثمة اضطرابا جسيما اخل بأمني النفسي ، وارتج له كياني . لكن المصيبة كانت إكبر مما توقعتها . سرعان ما تبينت ان فى احشائي جنينا . كتبت لكاميليا أستنصحها ، اشارت على بتعاطي بعض الادوية . وعندما لم تجد ، ذهبت اليها أستغيث بها ، فالجنين مستقر فى أحشائي ويكبر . دلتني على امراة خبيرة بهذه الامور . ونصحتني بأن ألجأ اليها لتتولى اجهاضي ، وتخليصي من ثمرة عاري ، لكنني جبنت ونكصت . كان الخوف قد شل قدرتي على التفكير ، كما راح ضميري يمنعني من الاقدام على جريمة قتل مثل هذه . وها انا فى الشهر الخامس من حملي ، جبانة ، ذليلة ، مهانة ، واني بحاجة اليك .

طلب منها ماجد أن ترقد على الاريكة وتمدد ساقيها . جس بيديه بعض المواضع من بطنها . جمدت الدماء فى عروقه . فقد تأكد من وجود الجنين كان ينبض فى رحمها ، يرقد متكورا ، فى كل لحظة يكبر وينتظر الخروج بدوره الى عالم الالتزام والحرية ، الى عالم الخير والشر ، الى عالم الحب والكراهية ، الى عالم المواقف المانعة والصعبة ، الى عالم لا يفيد فيه دفن الرأس فى الرمال .

راح ماجد يذرع الغرفة مستغرقا فى التفكير . عالم ينعم الظالمون فيه بالجاه والمتعة ، ويموت المظلومون بعيدا عن ظلال الحب والرحمة ، لكن يجب الا يلوم المرء غير نفسه ، فهناك قوانين صارمة توقع الجزاء على من يخالفها ، وحكيم من لا يعثر فيها . انت حر فحسب ، عندما تؤدى بأخيارك ما عليك من واجبات . الحرية والالتزام بالقيم صنوان لا يفترقان ، ومن اعتقد خلاف ذلك واهم ، يضرب فى متاهات

المفعا . [illegible] ، ان الحرية ليست سلبا واستهتارا وانفصاما [illegible] بل هي اتجاه الشخصية الانسانية الكاملة نحو وسمو الى [illegible] تؤمن به للخير والعدل والجمال . [illegible] [illegible] كانت تدعو [illegible] فكان لا يفهمه أو لا يقدره في حينه [illegible] . كانت تفتح ذراعيها ، وترفع انظارها الى السماء وتقول « ربنا يوقف في سكتك أولاد الحلال . » هاهو يدرك الآن من خلال تجربة الهام مغزى هذه الدعوة الصالحة .

توقف ماجد عن سيره . سحق سيجارته في مطفأة على منضدة صغيرة . والتفت الى الهام التي لم تتحرك من موضعها ، كما لو كانت قد أصيبت بشلل سرى في جسدها كله ، وقال :

كان يجب أن تخبري اباك على الاقل ، كي يتصرف . كان سيرغم ذلك الذي اعتدى عليك بأن يتزوجك .

لم تلتفت اليه الهام . قالت وهي تنظر شاردة الى بعيد :

ــ لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا .

ــ ليس ثمة ما هو مستحيل ، يا الهام ، من هذا الرجل ؟

قالت بصوت أجوف :

ــ لا أعرفه .

اعتقد أنها لا تريد أن تبوح له باسمه ، وتريد الاحتفــاظ به سرا .

انحنى عليها ماجد ، وقال لها :

ــ يمكنني أن أساعدك . سأذهب اليه ، واطلب منه ما كان سيطلبه ابوك .

عادت تقول :

ــ لا أعرفه .

لم يستطع ماجد أن يتمالك نفسه . انفجر فيها صائحا :

ــ مستحيل ، الا اذا كنت اضحيت عاهرة ، تسلم نفسها لرجل بعد آخر ، دون احساس أو حياء ، وتنتقل في الليلة الواحدة من حضن الى آخر ، انت ذات الطهر والعفاف اضحيت مطفأ شــهوة لرجال لا تعرفينهم ؟ ماذا بقي منك ؟ جسد استبيح في أبشع صورة ؟ فاق الامر كل تصور ؟

ــ قل عني ما شئت . انت محق في كل تحقير توجهه الى . فأنا أستحق الموت على فعلتي . امضيت ليلة مثل عاهرة ، مخمورة ، فاقدة الوعي ، انزلقت من حضن رجل الى حضن غيره . يعانقني هذا ،

ويمتصرني ذاك . ولا اعرف بين أن احضان لعينة استقر جسدي التعس .

قفزت واقفة وقد تصلب جسدها ، وتخشبت ذراعاها ممدودتين امامها ، تتشبث بصخرة لا وجود لها . ثم اشاحت بوجهها ، وهوت راكعة على قدميها ، تتفادى رؤية بفيضة ، وتتوسل الى جلاد أن يطلق سراحها . وصرخت :

ـ لا أستطيع . لا استطيع . أريد ان انجو . النجدة . انهم يغتصبونني ، يقتالونني . يجثمون على صدري ، ويفرسون فى لحمى أنيابهم . ابعدوهم عنى !

تناول الدكتور ماجد يديها ، وحاول ان ينهضها . الا انها انكفأت على وجهها ، وراحت تضرب راسها بالارض الصلبة ، فى حركة هستيرية لا يمكن ايقافها أو صدها عنها . مزقت صدر ثوبها . وراحت تخربش جبينها وخديها ونحرها وذراعيها بأظافرها ، كما لو كانت تريد أن تنتزع عن جسدها ديدانا وهمية التصقت به أو تطرد حشرات مقيتة تزحف على بشرتها ، أو تمحو وشما بشعا انطبع على جلدها . انكبت تصرخ منتفضة ، وتقول :

ـ الدنس . ابعدوا عنى الدنس ! طهرونى من الدنس !

اسرع ماجد الى التليفون ، وطلب من الدكتور مراد أن يأتى على عجل . زحفت الهام الى ركن من اركان الغرفة . خرت الى الارض منهدة ، وتكومت هناك مادة ذراعيها امامها ، كما لو كانت تدافع عن نفسها ضد معتد غير مرئى ، وقد جحظت عيناها رعبا من عدو مبهم تحدس وجوده ، ولا يراه الا وجدانها الداخلى . خيل لها أن الغرفة امتلأت بمعتدين عتاة يضمرون لها الشر ، وينوون أن يجروها خارجا حيث يلقون بها فى بحيرة نار وكبريت . راحت تتوسل اليهم تارة بكلام مقطع ، وتتشبث بركنها الذى لاذت به . تدفعهم بذراعيها المتوترتين المخدوشتين بأظافرها مما اسال عليها خيوطا رفيعة متجمدة من الدماء ، وتارة اخرى تتأوه فى الم ، وتطلب من مغتصبيها الرأفة . تنادى أباها ، وتستنجد بأمها . تصيح فى الخواء ، بإيادة متهمة ، معلنة انها لو لم يتركوها فى حالها ستفضح سرهم ، وتقتل نفسها ، ثم صرخت :

ـ ماجد ، ماجد ، انقذنى !

جرى ماجد نحوها . راكع بجوارها . دفنت وجهها فى صدره ، راح يربت على شعرها وكتفيها ، مطمئنا اياها ، مواسيا . وفى نوبة

من البكاء الحارق : حوطت ذراعيها بعنقه ، وقالت له بصوت انهكه الصراخ والنحيب :

ــ ماجد ، لا اريد ان اموت بين ايديهم . انقذني !

قال لها بصوت متهدج من شدة رثائه لها :

ــ اهدئي ، يا الهام . أنا بجانبك . على الدوام ساكون الى جانبك اطمئني ..

رفعت الى وجهه عينين اتسعت حدقتاهما رعبا ، ولمعتا بخيال وامض ، ثم انفجرت في نوبة من الضحك الهستيري . وراحت تقول في لوثتها :

ــ انت تنقذني ؟ ما عاد لشيء جدوى . خلاص ! خلاص !

كفت عن الضحك الصاخب فجأة ، وقالت :

ــ أتعرف ماذا أريد حقا ؟

قال لها بحنان زائد ، من أعماق القلب صادر :

ــ اطلبي . كل طلباتك مجابة ، يا الهام .

قالت بصوت فقد كل سمات الحياة :

ــ أريد أن أموت . دعني .

ابتعدت عنه . اسندت خدها على ذراعهـــا ، وتكومت على الارض . ثم راحت من شدة الاجهاد في سبات عميق .

حملها ماجد من الارض برفق ، وأرقدها على اريكة وثيرة . جس نبضها ومن الغرفة المجاورة أحضر ملاءة بيضاء غطى بها جسدها حتى كتفيها . بعد قليل ، جاءت السيدة نجاة وزوجها على عجل . قص عليهما ماجد مأساة الهام باختصار ، فأبديا أسفهما لما وصلت اليه من حال .

انتصف الليل ، ومازالت الهام في غيبوبتها . ثم اخذت تفتح عينيها وتجيلهما فيما حولها ، لا تعرف أين هي . ظل ماجد والدكتور شوقي وزوجته الى جوار الهام تلك الليلة ، يحادثونها دون أن يتلقوا منها اجابة . يطيبون خاطرها ، ويواسونها لكنها لم تكن تعرف أيا منهم ، كأنهم غرباء عنها . فقدت ذاكرتها ، وما عادت تعي مغزى لشيء مما يدور حولها . ولزمت في اصرار صمتا ، لا تجيب على سـؤال ولا تستفسر عن أمر . وعندما حاولت السيدة نجاة أن تطعمها لقمة دفعت بساعدها الطبق فطرحته بعيدا ، وتناثر من حولها مافيه من طعام . جزت أسنانها ، وزمت شفتيها ، حتى عجزت السـيدة

ىجاة حتى أن تسقيها جرعة من عصير الليمون ، لتقيم أودها حتى الصباح .

قال الدكتور شوقى لماجد :

ــ تبدو هذه الاعراض أحيانا على المراة التى تتعرض للاغتصاب. ان الجنس اذا مورس علي المراة عنوة قد يؤدى بها الى أن تكره جسدها كراهية تزهدها فى الحياة . وهذا ماحدث لهذه الفتاة المسكينة .

بعد برهة صمت ، التفت الدكتور شوقى الى ماجد ، وقال لـه :

ــ سوف نرى ماذا سنفعل لها اذا لم تتحسن حالتها حتى الصباح .

ــ ٣٣ ــ

لم يتبدل حال الهام فى اليوم التالى . لم تفتح فمها بكلمة . غرقت فى صمت لا حيدة لها عنه . بدت غائبة عن الوجود من حولها . تحجرت نظراتها ، وازدادت هالتا السواد حول عينيها . اشاحت بوجهها عن كل طعام أو شراب يقدم لها . ظلت منكمشة على الاريكة ، شاردة الذهن ، مرتعبة ، منعزلة ، محبطة متوجسة من خطر متربص لها ، تتوقع أن ينقض عليها بين لحظة واخرى .

تداول الطبيبان فى أمر الهام . واستقر رايهمـا على ضرورة الاستعانة بأخصائى فى الامراض النفسية والعصبية ، حتى لا يستفحل أمرها .

ذهب الدكتور ماجد ، وأحضر معه فى المساء الدكتور ممدوح الجوادى صديقه مدرس الاضطرابات النفسية بكلية الطب . وبعد أن فحص الهام وسمع ظروفها ، قرر ان حالتها خطيرة ، فهى فى حالة غيبوبة عقلية وفقدان للذاكرة نتيجة تجربة اليمة ذات جوهر جنسي ، استبدت بها فى أعقابها مشاعر الاثم ، وأوصلها ذلك الى نوع من التحلل فى الشخصية ، وقد تزداد حالتها سوءا ، فتتعرض لشلل فى بعض أجزاء من جسمها ، وهو مايهددها ويهدد الجنين بخطر الموت.

أمسك الدكتور ممدوح يدها وسألها ليؤكد لزميليه مايقول :

ــ أود أن أعرف اسمك يا آنسة .

جالت نظرات الهام فى عينيها . وبشرود أجابت :

ـ انا ، انا أوفيليا ..
ثم اردفت تقول :
ـ أوفيليا الغريقة ! الست انا أوفيليا ؟!
التفت الدكتور مراد الى ماجد مستفسرا ، قال موضحا :
ـ مثلت هذا الدور علي المسرح فى رواية « هاملت »
سأل الدكتور مدحت :
ـ ماذا يقول شكسبير عن أوفيليا ، يا دكتور ماجد ؟ قد تفيدنا اقواله .
صمت ماجد برهة يحاول أن يستعيد بعضا من ترجمة الدكتور عبد القادر القط لأقوال هاملت .
ـ « ... ان سلطان الجمال يمسخ الشرف فيحيله داعرا ، باسرع مما تستطيع قوة الشرف أن تحول الجمال الى شرف مثله .. فليضمك دير من الاديرة . لم تكونين منجبة للخاطئين ؟ ... »
توقف ماجد ، فاستحثه الدكتور ممدوح قائلا :
ـ اكمل .. اكمل ..
استعاد الدكتور ماجد ما كان قد قراه من هذه المسرحية ، وقال :
ـ يمضى هاملت مخاطبا أوفيليا « سمعت مايكفى عن زيف وجوهكن . انكن تعتذرن عن الخلاعة بالجهل .. » وقد أصيبت أوفيليا بالجنون ، بعد أن مات أبوها بطعنة من هاملت .. وانتحرت غارقة فى بحيرة .
بدرت من الاريكة حيث ترقد الهام حركة ، التفت الإطباء الثلاثة نحوها . رأوها تنهض ، وتمشى كما يمشى النائم فى نومه ، وتقول كما لو كانت تمثل على المسرح :
ـ « واأسفاه ، وياللخزى وياللعار ! ان الفتية يأتون المنكر ان قدروا . هذى والله خطاياهم .. »
همس الدكتور ماجد :
ـ أوفيليا الحسناء !
مضت الهام منومة فى انشاد ابيات شكسبير على لسان بطلته :
ـ قبل مضاجعتك اياى ، كنت وعدت بأن نتزوج .
قال الدكتور ممدوح :
ـ فقدت عقلها « ذلك العقل الذى بدونه نصبح مجرد صور أو بهائم » كما يقول شكسبير .

انهارت الهام منكفئة على أريكتها . وراحت تغني غناء ملناثا :

ــ « مات وغاب .. وعلى الراس نما عشب أخضر ، وعلى قدميه حجر يرقد .. كفن أبيض مثل ثلوج الجبل .. الازهار الحلوة تكسوه ، لكن لم تدخل معه للقبر ، بدموع الحب الصادق . »

همس ماجد موضحا :

ــ عن أبيها تتحدث أوفيليا .

التفتت اليهم ، وقالت :

ــ أشعر برعشة .

هرول الثلاثة نحوها . تناول الدكتور ممـــدوح يدها كانت جامدة .

ضحكت وقالت :

ــ لا أشعر بالحزن على أبي ..

مدت اليهم يديها . وقالت :

ــ انظروا ، الدماء تخضب أصابعي .

صرخت :

ــ وأنا من الذى سيقتلنى ؟!

اختلج جسمها ، ثم فقدت الوعى .

قال الدكتور ممدوح :

ــ شعور بالاثم ينخر فى الروح حتى النخاع . ان كل عصابى ممثل يقوم بدور خاص . ومريضتنا تتمنى لنفسها الموت ، كأوفيليا .

لو تخلصت الهام من الدنس ! لو تطهرت وعادت الى براءتهـا الاولى ، يوم ان أرته صورتها زاهية الالوان وديعة الابتسامة ! رفع ماجد نظره الى هذه اللوحة التى نسيت ، وان كانت مازالت تشغل مكانها على الحائط بغرفة الجلوس . حقا ، كم يحاول الفن عبثا أن يقاوم عوامل الفناء والتحلل . يدب العطن الى النفوس والبلي الى الاجسـاد والقسمات ، وتظل اللوحة أو التمثال بمنأى عن كل ذلك . تمنى ماجد لو تطهرت الهام من دنسها . هل هناك وسيلة الى ذلك ؟ الالم بوتقة ينصهر فيها الانسان ، ويصفو معدنه فى ســـعيرها من شوائبه . القى ماجد نظرة خاطفة على بطنها ، واشتهى أن يموت الجنين . لو اجهضت الهام نجت . ربما امكن أن تعود فيصلح حالها ، وربما غفر لها ، ولكن فليمح ابن الظلال من الوجود اولا . لو حملته الهام فى حضنها بعد ولادته لبدا كل شيء بينهما مستحيلا . تملكته نوازع اجرامية ، ما لبث أن كبتها ، واسترد هدوءه عاد الشر يرقد

فى مكامن العقل الباطن ، فقد تمكن العقل الواعى المسيطر على الازمة ان يطرده الى المكبوتات المحرمة . وهو مايحدث للناس الاسوياء ، حيث يتوازن الخير والشر فيتحقق الصلاح الانسانى . ويكون كبت الرغبات ، وقهر الدوافع والحاجات هو وسيلتنا الى التصالح مع العالم الخارجى وقواعد السلوك التى يقرها . وكم نخفى من نوايا اجرامية . نتمنى الموت والخراب لكثيرين دون أن يحدث لهم شىء مما نتمناه ، ولكننا فى اعماقنا نمضى نتمنى لهم ذلك . وقد تبين علينا ايماءات أو حركات من أيادينا وأصابعنا ، مما يعد بديلا لفعل اجرامى، كالخنق أو الطعان أو الاغتصاب . وفى لحظة خاطفة رأى ماجد نفسه يلف الوليد بالاقمطة البيضاء ، ويلقى به فى هوة سوداء فى الجزء الخلفى من جمجمته ، بينما ظلت الهام مسجاة تحتل جبينه كأنه فراش ، وتنام فى أمان .

سأل ماجد الدكتور ممدوح فى قلق :

ـ هل تعتقد أن الهام ستموت ، يادكتور ؟

اجابه قائلا :

ـ فلندع الخوف جانبا الان . علينا أن ننقلها الى المستشفى ، وان نضعها تحت الرعاية المركزة الى أن تضع جنينها .

أشعل الدكتور ممدوح سيجارة ، وأردف يقول لماجد :

ـ أتعرف ، يادكتور ؟ فى بعض الاحيان يرفض الرحم فى مثل هذه الحالات أن يطلق الجنين ، ويعمل على خنقه . عندئذ تصبح الام بدورها فى خطر .

ان ثمة فكرة مسيطرة على تفكير الهام ، افقدتها القدرة على العزيمة والتحكم فى ارادتها . وراح ذلك الهاجس الممض ينوء بثقله على ضميرها . وعلى الرغم من خطورة الحالة ، وضآلة الفرض فى انقاذ هذه المرأة ، استبدت فى أعماقها كراهية شديدة لنفسها ولما فى احشائها من حمل مستكن يؤرقها الاحتفاظ به ، كما أرقها وارهبها من قبل الاقدام على التخلص منه . وازاء هذين الفكين المطبقين راحت الهام تنتظر الموت بين احضان هذه الكماشة القدرية الرهيبة ، وهى لا تدرى أتصرخ هلعا أم تتنفس الصعداء للخلاص الدموى المقبل عليها.

اختتم الدكتور ممدوح حديثه لماجد بقوله :

ـ على أى حال ، قد تشفى الهام .. فقط لو اجتازت اخطار المخاض .

نقلها ماجد الى المعادى بمصحة نفسية على مبعدة بضعة امتار من مستشفى للولادة ، مجهزة بأحدث التجهيزات لمواجهة الحـالات التى لا تجدى فيها وسائل التوليد العادية . وباعتباره طبيبا وزميلا فى المهنة سمح له مدير المصحة بملازمة الهام فى غرفتها ليلا .

لم يذق طعم النوم أول ليلة . انتابه احساس بالقلق والضيق. فتح نافذة الغرفة . انسكب اليها ضياء القمر . غمر وجه الهام بهالة فضية حانية . جذب ماجد كرسيه واقترب من فراشها . مسح من على جبينها حبات العرق . بدت ملامحها المتعبة ، وهى مغمضـــة العينين ، وعما حولها غائبة ، بدت مثيرة الشجن . من شدة اضطرابه وحيرته ، عادت نوازعه الاجرامية تستعر فى صدره ، وتؤجج أصابعه وتوترها . ماذا لو غرسها فى البطن المنبعج المتكور بالاثم ؟ جال ببصره من حوله جاحظ العينين . سوف تصرخ .. ستملأ المكان صراخا ، وسيأتون اليه ، يقبضون عليه ويدينونه . سوف يقول عن نفســه مدافعا « أردت أن أخلص ملاكى الحبيب من وصمة عار ، من دنس علق بها » لن يأبه به أحد ، بل سيسخرون منه ومن حبه المعقد . لكن الذى يجب أن يأبه له ، ويعمل له حسابا حقا ، أنه اذا انشب أصابعه فى البطن الدنسة ، لن يقتل الجنين فحسب ، بل سيقتل الحبيبـة أيضـــا .

مسح العرق المتصبب على جبينه ، وتمتم يهمس لنفســه « يا الهى ، أمازلت أناديها بعد كل هذا بالحبيبة !؟ » طرد عن عينيه قتامة هذه الليلة ورنا الى القمر ، يملأ من ضيائه الفضية خواء روحه. رأى الهام على أديم السماء تركب فرسا أحمر ، وتنطلق متطايرة الشعر الى القرص الشاحب دون أن تلتفت اليه . خجل من نفسه . كيف تسول له نفسه وهو الطبيب الذى يقدس مهنته أن تنجرف نوازعه الى هذا الدرك الاسفل ، ويرتضى أفكار الجريمة والقتل ، ليس الاجهاض معاقبا عليه فحسب ، بل هو أكثر الافعال خســة وانحطاطا .

سمع الهام تتمتم . التفت اليها ، نهضت من رقدتها ، اتكأت على مرفقها ، وقالت :

ــ أعرف من أنا .. أنا شفيقة التى قتلها متولى . واستحقت القتل . كانت تنتظره ، كما انتظره أنا . فقد كان فى ذلك خلاصها . هل تخلصنى ، ياحبيبى ؟

انكفأت بوجهها على صدره ودفنته فيه ، وانخرطت فى بكاء مرير . راح ماجد يطيب خاطرها ، ويطمئنها بأنها لن تموت ، وعلى خير مايرام ستكون .

رفعت اليه عينيها ، ونظرت اليه كأنها تتمنى لو تصدقه . ثم سألته :

ـ والجنين ؟

لم يجب . واشاح بوجهه .

قالت :

ـ اعرف لست أنت الذى ستخلصنى ، بل هو . هو سيكون قاتلى ! ابنى !

ألقت برأسها على الوسادة ، وقد انحلت جدائل شعرها الطويل، فبدا وجهها النحيل كشراع يسبح فى بحيرة من الامواج السوداء . وراحت المريضة فى غيبوبتها .

ـ ٣٥ ـ

اصبح ماجد واخته يتناوبان البقاء الى جوار الهام ، والسهر على رعايتها . وهى لا تدرى من امرها ولا من أمرهما فى كثير من الاحيان شيئا . وكلما تقدمت الايام ، واقتربت ساعة الوضع ازدادت حالتها سوءا . كلما دنت اللحظة التى ستجيء بوليد الى هذه الحياة ازدادت ايغالا فى العزلة ، ولاذت بفرار يلقيها فى شرود يكاد يعدم بين الاحياء وجودها .

وما عاد ماجد يحيا الا متفكرا فى أحوالها داعيا لها بالشفاء والنجاة من الخطر . ذهب فى صباح باكر الى قبر الاستاذ شفيق ، وجلس هناك متأملا حال الدنيا ، مؤكدا لصديقه الراحل أنه لن ينكص عن وعده ، مستمدا من السكينة التى تخيم على مدينة الموتى عزما على المضى فى سعيه من أجل الفتاة التى تصارع الان الجنون والموت والعار .

عاد من الجبانة الى المعادى . التقى بمدير المصحة وتباحث معه فى أحوال الهام ..

قال له الطبيب المحنك :

ـ لا اكتمك أن الخطر المحدق بها شديد ، ولكن الم نتعلم من مهنتنا يا دكتور ماجد أن الامل موجود دائما ؟

كلما اقترب وقت الولادة كلما استسلمت الهام لهدوء غريب . كانت كما لو كانت تنتظر قصاصا عادلا ينفذ فيها . ولكنها بالليالى

كانت غير قادرة على النوم ، فقد كان للظلمــة المحيطة بالحديقـــة الفسيحة للمصحة رهبة ثقيلة الوطأة على نفسها ، ولم يكن الامر على اى حال يخلو من بعض نوبات عنيفة من البكاء والصراخ وتهتف من خلال دموعها « كلا ، لا أريد أن أموت » ..

قال له طبيب المصحة :

ــ « هنا نكتشف أن ارادة الحيــاة مازالت باقيــة فى أعماقها ولو كانت ارادة ضئيلة . وهذه دلالة طيبة ، فمن سم الخياط هذا قد تكتب لها النجاة ، فمهما كره الانسان الحياة ، فهي لا تتخلى عنه وتدفعه الى بر الامان . هل رأيت نارا تشب فى دار ؟ أتعرف من هم احرص أهل الدار طلبــا للنجاة ، وأسرعهم جريا للهرب ؟ الشيوخ والعجزة . ان غريزة حب البقاء هذه سنة من سنن الطبيعة نعول عليها كثيرا نحن أطباء الامراض النفسية . »

قال له الدكتور ماجد « اللحظة الحرجة هى لحــظة الولادة يا دكتور رفقى فلنأمل ان تجتازها الهام . »

ابتسم الطبيب العجوز بجهامة ، وأجاب :

ــ فلنكن صريحين . هناك اربعة فروض فى هذا المقام . الفرض الاول : ان تموت الهام ويموت الجنين . وهذا أسوأ الفروض ، ولكن يجب أن نضعه موضع الاعتبار من الآن . والفرض الثانى أن يعيش الوليد وتموت الهام .. والفرض الثالث أن تعيش الهــام ويموت الوليد وكل من هذين الفرضين نجاح طبى ناقص ولكن لا بأس بأيهما ، وبخاصة اذا نجت الهام . والفرض الرابع أن تعيش الهام ويعيش وليدها . وهــذا غاية المرام . وسنرى قريبــا أى هذه الفروض سيتحقق ، فقد أزف ميعاد الوضع . وما أن تشعر الهام بآلام الطلق سنبادر الى نقلها الى مستشفى الدكتور مجدى القريب . ونحن على اتفاق معه على ذلك . »

ــ ٣٦ ــ

دخل ماجد غرفة الهام حاملا باقة من الورد . اقبل عليها . قبل جبينها . أحس به باردا . اصلح من وضع الوسادة خلف رأسها، وابتسم لها مشجعا . قال وهو يضع الورد فى الاوانى المعدة لذلك بالغرفة .

ــ حمدا لله . اراك جميلة جدا اليوم .

اخذت وردة ووضعتها فى يدها .
قالت منكسة النظرة ، وعلى شفتيها ابتسامة حلوة :
ـ أمازلت أعجبك ، رغم تدهور حالى ؟
لم يجبها .
اردفت تقول :
ـ ماجد انا بحر من شرور . انا حقل من آثام . كنت لئيمة ملتوية ، ولن اكون هذا بعد الآن معك . أعرف أخطائى . انها أثقل من صخور اليم .
رفعت اليه عينيها ، وقالت :
ـ وددت أن أرد اليك بعض افضالك .
ثم اضافت بصوت مجهد :
ـ ربما امكننى يوما ان أحقق لك سعادة ما .
تأملها ماجد صامتا .
اضافت :
ـ أتصور كم سأكون سعيدة فى بيتك .
نحل عودها ، وبرزت عظمتا الوجنتين ، فبدا محجرا العينين واسعين غائرين بنفسجين اللون . أسرعت سنوات العمر تنقل كاهلها ، وتطبع على وجهها تجاعيد وشحوبا . أضحت حركاتها وكلماتها آلية ، تصدر ثقيلة مجهدة ، بلا هدف محسوب أو روية . فقدت هذه الفتاة التى كانت تتفجر حيوية ـ متعة الحياة ، وصارت الحياة عبئا يرهق كيانها . وحتى اذا ابتسمت ، فابتسامتها لا تعدو أن تكون انفراجة شفتين . دون أن يكون لها من جوهر الابتسام شىء ، متعبة كالحة كشق مترب فى جداره لا تلبث نظراتها أن تسرح بعيدا ، وتضيع فى ظلمات هاوية سحيقة تبتلعها .
همت الهام أن تنزل ساقيها من السرير ، كى تذهب الى النافذة فما قويتا على حملها ، غلبها دوار فتعثرت ، أسرع ماجد الى جوارها يسندها . أصرت أن تذهب الى النافذة ، كى تريه شيئا .
اشارت الى شجرة فى ركن قصى من حديقة المصحة وقالت له :
ـ أردت ان اريك تلك الشجرة ، هناك .
تأملتها بألفة وقالت :
ـ تذكرنى بشجرة حبيبة كانت لى فى طفولتى . عندما كان ينهرنى أبى أو يغضبنى أحد كنت اذهب الى شجرتى وأجلس تحتها

وأشكو لها . كنت أعرف انها تسمعني . وتنساب أنفاسها تواسيني وتطيب خاطري . كنت اعتبرها امي .

التفتت الى ماجد ، وقالت :

ـ أرأيت ؟ جاءت ماما الى هنا لتكون بجانبي ، لتصد عني عدوان أولئك الذين يتربصون بي ، ويريدون لي شرا .

خفضت صوتها وقالت :

ـ انت لا تعرفهم . لكنهم يجيئون بالليل ، يملأون الغرفة ، وينكبون على سريري يخنقونني . أخاف عيونهم البراقة ، وأظافرهم المسنونة .

ربت ماجد على كتفها مطمئنا ، واعادها الى سريرها . ابتسمت اليه ، وقالت له وهو يصلح الاغطية الخفيفة حول جسدها الاعجف المحنى :

ـ أرأيت ماما ؟ أرأيت كم هي جميلة ؟ كانت معجبة بك كثيرا ، انى لا أشبهها فقد كانت هي وارفة الظل ، خيرة .

أسندت رأسها على الوسادة وراحت فى اغفاءة . جلس ماجد فى مقعد قبالتها وراح يتأملها . تبخر اشتهاؤه لها كجسد أنثوى ، وبرد بداخله ذلك العشق الذى كان يمكن أن يكنه لها . انه يتألم من اجلها الآن ألما غائرا حتى النخاع ، ويضمر لها اشفاقا ورثاء . يدخر لها عطفا انسانيا حفزه على الا يتأخر لحظة واحدة عن تلبية كل ماتتطلبه حالتها الصحية ، ولكن اذا ما اجتازت الإزمة وكتب لها الحياة ، فهل سيرغبها ؟

ـ ٣٧ ـ

لم يشعر ماجد بالوقت يمر ، وهو غارق فى مقعده وتأملاته . زحف المساء . السماء فوق أشجار الحديقة اكتست بلون برتقالى ارجوانى ، ينضح بمعاناة ولهفة نابعتين من حب انسانى دفين وسحيق فى أغوار الكون والزمان . نهض ماجد ، وفتح زجاج الشباك . تسللت نسمات رطبة دافئة ، انتفخت بها الستارة الخفيفة .

عاد ماجد يجلس فى كرسيه . لم تكن المسجاة أمامه الآن الهام الزوجة ، رفيقة الحياة وشريكة العمر .. وهل يمكن ان تكون كذلك ؟ نظر الى بطنها المتكور تحت الملاءة البيضاء . اى روح شريرة نفخت فيها ؟ ! . راح يتسمع انفاسها الثقيلة الرتيبة . أحس بالسكينة

الضيقة المريرة التى يحس بها من قتل عزيز عليه فى حادث ، واضحى يعرف أنه ما عاد بالامكان لقاؤه بعد ذلك . أصبح الفراق محتوما وأبديا ، سوف يحتفظ بالذكرى ، ولكن سوف يكون عليه بعد قليل أن يدير ظهره للجثة ، ان يبتعد عن الجيفة التى يدب فيها العطن سريعا ، وتلح أن يلقى بها الى القبر لتتحلل ، وتعود للتراب الذى جاءت منه . ان التى ترقد على السرير أمامه ليست الهـــام التى أحبها ، بل مريضة تنهشها العلة روحا وجسدا ، ابنة صديق له أوصاه بها خيرا ، وعليه أن يؤدى واجبه الانســـانى حتى النهاية .

ومهما كانت الاحتمالات التى قلبها الدكتور رفقى مدير المصحة ، فهو يوقن ان الاحتمال الاكبر ان الهام ستموت . لن تقوى ، وهى بهذا الضعف والاختـــلال ، ان تجتاز مشـــاق الوضع . سوف تمـــوت بهستيريا الرحم ، الذى يأبى أن يلفظ ثمرة العار المرفوض ، أو ربما لفظه وأبى الجسد الكاره لدنسه أن يبقى على قيد الحياة مع ثمرة دنسه . ما عاد يرى الهام سوى انسان محطم مهان ينتظر قطـــار الموت ليرحل ، وليس فى وداعه غيره . لقد دفعت هذه الراحلة أغلى ثمن لتذكرة الركوب فى ذلك القطار الكئيب المجلل بسواد أدخنتـــه وغبار عجلاته . أفلا تستحق منه هذه الراحلة المسكينة ــ ايا كان وزرها ــ أن يخفف من جهامة لحظة الوداع هـــذه ؟ عنـــدما يدق الناقوس ، ويعلو صفير ذلك القطار الذى يشق طريقه الى الظلام ، ويمضى الى أعماق ليل يرخى سدوله على الدنيا مهما أشرقت الشمس على المشاق والمحبين السعداء ــ الا تستأهل تلك الراحلة مهيضـــة الجناح ، كلمة رثاء ؟ « مع السلامة ، يا الهام . مع السلامة » عندما كان يقطف زهرة ثم تذبل ، لم يكن يلقى بها الى سلة المهملات ، بل كان يعنى بأن يحتفظ بها بين دفتى كتاب ، فهل يلقى بأغلى زهرة لقيها فى روضة الحياة الى حيث تدوس أقدام الاهمال الثقيلة أوراقها ، حتى ولو لم تعد غضة الاهاب ؟ فى مطلع شبابه انكب على قراءة الشعر الرومانسى ، حتى رق قلبه الى الحد الذى صارت عينـــاه تدمعـــان لمرأى زهرة ممرغة فى الرغام ، أو عصفور أردته حصاة . وها هو الآن يعاين المنظر فيه . أغلى زهرة ترقد أمامه منكسة كسيرة . أحلى عصفور خضب صدره بالدماء ، ولكنه الآن لا يبكى وان يبلغ عذابه منتهاه . لقد علمته ضراوة الحياة الا جدوى من الصراخ والنواح ، فالعدم لا يسمع ولا يجيب ، والخواء كما لا يكترث بالمسرات لا يكترث بالاوجاع . وكما أن « الآخر » مصدر الشقاء تأتى النجدة منه ايضا

والمواساة . وعلى الانسان ان يتخذ موقفا يجلو معدنه ، ويفضل ماجد أن يكون مهزوما سعيدا من أن يكون ظافرا تخضب الدماء اصابعه . المهزوم سعادة ؟ أجل ، انها ذلك الاحساس العميق بالسكينة ، والاقتناع الداخلي بأنه أدى واجبا ، وصعد في مدارج الانسانية خطوة .. انها شجن ، جوهرة بذل دون انتظار لمقابل ، ورضاء عن النفس ، وقناعة لا يقدر عليها غير الاسوياء . قد يظل هذا الشجن في النفس مقيما ، ولكنه يبعث في صاحبه سعادة ، هي سعادة المهزومين . اذا اداهمت الظلمات فالاجدى ان يضيىء شمعة مهما ضوءلت ، بدلا من أن يملأ الفضاء بزعيق أجوف ، فالعبث مهما كان ضاربا أطنابه من حولنا لا يواجه بعبث مثله ، بل بالتواضع وحمل العبء والاعتراف بالمسئولية والالتزام . يكفى أن نبصر به ، وبعد ذلك فلتمض الى الهاوية مفتوحى العينين . وهو لم يكتشف هذه الحقيقة الا بعد أن نضجت خبرته بالحياة . وليست كل من اعمال الفن الكبيرة الا نتاج تجربة عذاب . هل يصدق أن بيتهوفن ابتلى بالصمم ، وراح يصارعه حتى أطبق على أذنيه ؟ وان فان جوخ عانى الحرمان والاخفاق حتى تملكه الصرع واجهز على حياته ولم يتعد السابعة والثلاثين ؟ وابو العلاء الم يكن يحيا فى ظلام ؟ والبياتي الا يعاني من الغربة الطويلة ؟ وشوبان الموسيقى المصدور ، وذلك العاشق المخدوع الشاعر أبو لينير ، وغيرهم كثيرون ، الم يلقوا صنوف الهوان والحرمان ؟ ومع ذلك جاءت أعمال الفنانين المعذبين الكبار مواساة للانسان ، وشدا من أزره وعزاء ؟ ايها الشقاء ، كيف تنفجر ينابيع الجمال فى صخر الحياة ؟

نظر ماجد الى الوجه الشاحب والخدين المتهدلين والذراعين الناحلين الذين تمددا على الاغطية البيضاء بلا حول عاجزين . وفدت الى ذاكرته نغمات حزينة بطيئة من كونشرتو الكمان الذى كتبه جوستاف مالر عليل القلب . نغمات تنضح بشجن وقور ، وشكوى لا ابتذال فيها ، واستسلام بلا تخاذل . فن يصعد الالم الى قمة لا ترقى الى تذوقها الا روح تجردت من العطن ، فالروح فى الحق انما بالروح تعرف . سرح ماجد ببصره من النافذة . من وراء هامات الشجر المجللة بسواد الليل طالعه القمر ، قرصا فضيا كامل الاستدارة يصعد قبة السماء فى مهابة محاطا بهالة شاحبة . اهذا هو الذى ناجاه شيلي قائلا « اشاحب أنت من عناء تسلقك السماء ، والاشراف من عليائك على الارض متجولا وحيدا بلا رفيق بين النجوم

المختلفة المولد عن مولدك ، غائب التبدل ، كمين لا تجد من فرط احزانها ما يستحق ان تثبت عليه انظارها ؟ » تذكر البدر الضارى الذي يشرف في سماوات المصور هنرى روسو على الغابات التى تفترس فيها الظباء دون ان يهرع لنجدتها احد . احس ماجد برعشة من رعب دفين يتسلل الى أعماقه ، وهو يرى البدر يصعد السماء في سكينة ، لا يأبه لاحزان ، ولا يضطرب مساره لأوجاع . القمر لغز ، صرخة ، درهم لا تطوله يد المحروم ، تابوت مقفل يتجول ، يمر بالقبور والخرائب ، كما يمر بالقصور والمراقص . يطل على الاحياء ، كما يطل على الموتى . يطلع على الجوعى ، والعرايا ، والمساجين ، والتاعين ، والعشاق في مخادعهم ، ومن يلفظون على أسرة المستشفيات أنفاسهم الاخيرة . يسمع صراخ من يولدون ، وحشرجات من ينتهون ، ضحكات اللاهين المستهترين ، ونباح الكلاب ، وتشنج الأفعى ، وبكاء الاطفال الجوعى ، وصراخ من انفجرت فيهم دوامة الغاز ، والمقلوعين في المتقلات والسجون ، وأنين المجذومين والمشنوقين ، على المشانق يسطع ، وعلى كواهل الجلادين أيضا . يسمع ويرى بلا اكتراث ، ويمضي في مسيرته الهوينا أصم أعمى ، شهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام . الى متى ؟ عدم الاكتراث هذا ، الى متى ؟ أيها القمر ، كم أكرهك ، اكره حيادك وسلبيتك ! تسطع الان على رامز وكاميليا كما تسطع على وعلى الهام ! سمع من ورائه قهقهة مثل سحيق عظام بين حجرى الرحمى . يعرف انه ليس وراءه سوى الحائط . ولكنه راح يسمع الصوت الأجش في قسوة يقول من بين اسنانه الى متى مثاليتك هذه ؟ الى متى رومانسيتك هذه ؟ تحلق على الدوام عاليا . الا تضع في اعتبارك العفن والدود والجوع والعرق والدماء المتخثرة والصديد والعطش والقحط والدمار والعقارب والافاعى ، بل وما هو اسوأ من كل ذلك ؟ الا تترك الموتى يدفنون موتاهم ؟ الا تترك هذه الجيفة وتنصرف لحالك ؟ من الآخرين لن تلقى سوى جرعات جديدة من الألم . تفرغ لما هو جاد ، واد واجبك نحو الحفاظ على نفسك . وفر عليك المشاكل والفضائح . ماذا يجدى المرء لو خسر نفسه ؟ لا تنطح صخرا . صعب عليك أن تزفس مناخس . واتقو الشطى يمشون في الارض ملوكا ، وانت الى جوار هذه المرأة لن تسلم قدماك من العثرات . ابعد عنها . انج بجلدك . انج . اغلق أبوابك ونوافذك ، واسدل الأستار . » ولكنه في اصرار صرخ بلا صوت « وماذا يجدى المرء لو ربح العالم كله ؟ » ازداد اشفاقا على

[illegible] ، ورعبا من مصيرها لو تركت [illegible] الامراض . نظر
الى القمر بأعلى السماء ، والى الحائط ورائه [illegible] طبع على جبين
الهام قبلة حنان . هذا هو الفارق بين الانسان وغيره من الكائنات .
عليه هو ... وهو وحده ــ أن يختار موقفا ، ولن يتراجع عن أن يكون
انسانا . اذا ما شفيت الهام سيتزوجها ، وسيأخذها معه . ووليدها ؟
سيرتضيه . ولم لا ؟ واذا ماتت الهام وظل الوليد ؟ تردد لحظة . ثم
قال بحزم « سأتبناه . ما ذنبه ؟ » هل يتركه [illegible] ضحية تتقاذفها
اقسام البوليس والملاجيء . نهض يغلق النافذة . لقد بدأت رطوبة
الليل تتسلل الى الغرفة . ورفع عينيه الى القمر ، وقال له مبتسما
« كم انت كاذب . خدعت شعراء وفنانين ، وانت مجرد ارض جدباء ،
من نفسك لا تضيء » انبسطت امامه لوحة جوستاف كوربيه « القمر
والبحر » لا يشعر المتفرج بمدى صدق عمل فني قدر ما يشعر به
اذا وجد في حالة مثل تلك التي عبر عنها مبدعه . وها هو في لحظة
الم وشجنه هذه بغرفة مريضته ، يدرك كم هي موحشة وشرسة
لوحته تلك المعلقة بالدور الثاني بمتحف « مجمع الفنون » بالزمالك .

ــ ٣٨ ــ

راحت منذ ذلك اليوم الذى وقع فيه الكتاب ذو الغلاف الاحمر بين يديها ، تبحث عن كتب ماهر جلال ، فى مكتبة اخيها تارة ، وتطلبها منه تارة أخرى . كانت تجد بين سطورها اجابة لتساؤلاتها المكبوتة ، وحوارا يبدد سحب القلق التى تغيم على روحها فى بعض الاحيان .

ذات صباح ، لقيها ماجد متوترة تنتظر خروجه من غرفته ، اندفعت الكلمات من فمها ، وهى تصب له القهوة ، لائمة غاضبة :

ــ قل لصديقك ان نوال مثل سيء بين النساء ، ولم يكن يجدر به أن يتخذ سقطتها سلاحا يغمده فى صدر المراة عموما .

وضع ماجد قدحه فى الصحن الصغير وسأل اخته :

ــ عمن تتكلمين ؟

مضت مستطردة :

ــ ليست من تفرط فى ابنها وبنتها وزوجها بعد عشر سنوات من الحياة الأسرية المستقرة ، وتهجر البيت لترتمى فى احضان رجل

آخر ، ايا من كان هذا الرجل ، بمستحقة لصفة المراة ، بل ولا لصفة الانسان . أن الشوارع مليئة بالكلاب الحبالى .

بلغ انفعالها الذروة وقالت :

ــ نوال كلبة شوارع ، وليست اما ولا زوجة . نوال كلبة !

هدأ ماجد من روعها ، واستوضحها فيما استرسلت في قوله بحنق واندفاع :

ــ من تقصدين ؟ ولمن تريدين أن اقول ذلك ؟

ــ قل لماهر جلال . ان روايته « هكذا خلقن » اثارت تقززى!

اجابها ماجد :

لكنى أعرف انه استقى روايته من واقعة حقيقية .

ــ مهما كانت واقعيتها ، فهى تتصف بسوء اختيار . انه جعل من الاستثناء قاعدة .

ثم سألت باصرار :

ــ لماذا يقلب الاحجار ليبحث عن الحشرات تحتها ؟

ــ انه مخلص ، أكثر مما يتصوره أحد عنه ، وان كان يخفى ذلك وراء ستار من اللامبالاة أحيانا ، ومن تلمس الاعذار لزلات البشر ، أحيانا أخرى .

فتح باب الشقة . وقبل ان يهم بالخروج . التفت الى اخته ، واطال النظر اليها مليا . ثم قال :

ــ سيسر ماهر عندما يعرف أن هناك من تهتم بكتاباته .

ثم ابتسم وقال :

ــ وبخاصة اذا كنت انت .

سألته :

ــ ولماذا أنا ؟

تراجع ماجد وقال :

ــ كل أديب يحب أن تكون له قارئات ..

ــ ٣٩ ــ

أوصله التفكير الدائب فيها الى حالة من القلق والاكتئاب . ما عاد يتعلق بشيء أو يتوق الى متعة ، وكدت مشروعاته للمستقبل ، وفترت همته فى العمل . ذات ليلة عاد الى بيته متعبا . لم يتسن له أن يمر بالمصحة . القى بنفسه على فراشه بملابسه ، ورفض أن

بذوق من العشاء الذي جلبته له ابنته لقمة . راح في نوم عميق ، ما لبث أن استيقظ منه على طرقات بالباب ، وصوت الإمام ، يقول له هامسا مجهدا « أبحث عنك . عن ذراعيك القويين أسند اليهما ذراعي المتعبين ، كي أرسخ قلبي المرتعش . واقيل جسدي من عثرته . في الطين وقعت ، وفيه أزحف بحثا عنك ، كي أضع يدي في يديك ، واشبك اصابعي بأصابعك ، وبها أتشبث ، واصلب عودي ، وارفع الي وجهك وجهي المنكفىء . رأسي المنكسة اريدها أن ترتفع ، أن تشمخ من جديد ، وانظر الى الناس بلا رجل . انا بحاجة الى وجودك الوطيد كي أوطد وجودي . لا تسألني عن عثرتي ، بل أسألني كم تعذبت في عثرتي . ارتعد احيانا ، ويقول قلبي كان الخطأ خطأي انا ، ولكني أسمع صوتك - أهو صوتك حقا ، ذلك القوي الواثق من نفسه ؟ أم هو الصوت الذي يأتي الى كل الهانين المتعبين منكسري القلوب ؟ - يقول « امسكي بي . تشبثي بي . » انتشلني . انهضني. وعندما أرفع وجهي الي وجهك ، وتضيء عيناي سترى كم هو جميل وجهي ، وكم كان ظلما أن ألقي في الطين واترك . كان الوجود سوادا الى أن وجدتك ، فسعيت أزحف اليك ، أبحث عن ذراعيك . وعندما وضعت يدي بين راحتيك ، واحسست بذراعيك ترفعاني وتقبلاني من عثرتي ، عرفت أنه كان يجب أن أسقط لا كي أتلوث ، فالطين لا يلوث ، بل كي أجدك ، ومن جديد أجد نفسي ، ومعك امضي مرفوعة الرأس ، نجوس هذا العالم معا ، الى صفاء السماوات الزرقاء ، وقواقع البحور اللازوردية ، ورمال الشطئان التي تداعبها في أيام الصيف الامواج الوديعة . أبحث عنك . أبحث عنك ، فلا تغب عني . لا تضع مني . أكان كل شيء مرسوما ومقدرا ، من أجل سعادة أبقى ، من أجلك ومن اجلي ؟ اني أبحث عنك . تعال . . تعالت الطرقات الخافتة ، فتح الباب . لم يجد احدا . أكان وهما تجسم ؟ أم أن صوابه هو بدوره بدأيختل ويتأرجح ؟ كلا ، ان باله مشغول بهــا فحسب . ولابد انها بحاجة اليه . ولا يستطيع ان يرفض نداءها مهما بلغ به التعب أو نال .

وضع رأسه تحت صنبور الماء البارد ، وهرع الى المصحة . وجدها مؤرقة ، وأخبرته الممرضة انها تعرضت بعد الظهر لقيء شديد هد قواها . « كانت دائبة النداء عليك وطلبك ، واتهمتنا باننا نخفيك في مكان ما قريب . واننا نتواطأ على أن نفرق بينك وبينها . وكانت شديدة الاستياء لذلك وتقول أين فرسي الابيض ؟ . »

عندما دخل غرفتها ، مدت اليه ذراعيها ، وقالت « ادركني . لا تتركني . اشعر أنك تضيع مني . انى بحاجة اليك . السست زوجتك ؟ »

هل كان سهلا على ماجد ان يظل متعلقا بالوهم ؟ هل يقدر رجل أن يولى حبه امرأة منحت نفسها لرجل ، بل لرجال آخرين غيره ، والى اى مدى يقدر الرجل المحب أن يظل مشدودا الى تلك المرأة ؟ ان رجولة الرجل تقيم حاجزا بينه وبين امرأة يعتصرها آخر بين ذراعيه .

تراجع ماجد عما كان قد اتخذه قرارا ، وتردد . مضى ينفث دخان سيجارته وقد استغرقه التفكير . تاحكمه على نفسه ؟ ماحكمه على علاقته بالمرأة المسجاة على الفراش منتهكة محطمة مهانة ؟ هل بقى فيها من صفات المرأة المحبوبة المشتهاة شيء ؟ هذا الحطام الادمى، كيف يمكن أن يبقيه تمثالا بديعا مرغوبا فيه ، كما كانت فى نظره من قبل ؟ وما السبيل الى ذلك ؟ هل مازالت لديه بقية من رغبة نحوها ؟ راح يسترجع علاقته بها ، منذ أول لحظة عرفها فيها . لاحظ أنه ما أرادها باشتهاء ، أو ان شاء دقة التعبير ، فليقل ان الشهوة لم تكن ما جذبه اليها أصلا ، فتعلق بها كل هذا التعلق . غاص تفكيره الى أعماق أبعد ، وتذكر أول لقاء جنسى بينه وبين امرأة . كان فى الثامنة عشرة من عمره . لم يكن الصيف قد أقبل بعد . وكان شاطىء الشاطبى خاليا من المصطافين يكاد يكون مهجورا الا من بضع كبائن معدودات ، جاء اليها من أهالى الاسكندرية الذين ينتهزون حلاوة الجو فى بعض الايام ، وبخاصـــــة فى أخريات الربيع أو فى أوائل الخريف . تطلع الشمس وشمس الاسكندرية التى لا تعادلها شمس . مثل أميرة شرقية ترفل فى ثيابها الوردية والبرتقالية والحمراء . وتلمع قلائدها وأساورها وخواتيمها وخلاخيلها الذهبية . تحتجب تارة وراء سحب تتخذ أشكالا متغيرة متداخلة متهاترة عابرة فى أديم ســـــماء صافية الزرقة ، تثير فى الرائى خيالات وخيالات . يفتح عدد من الكبـــائن القليلة أبوابه ، وتتناثر على الرمال الصفراء الممتدة بعض الشماسى تصمد فى وجه الهواء الذى يهب من ناحية البحر لاذعا ولا تحتمله الا الاجسام الفتية لشبان لا يعتكفون فى البيوت ، ولا يتدثرون بالمعاطف والكوفيات ، مثل أهليهم الكبار . فى كابينة صديقه نصحى التلميذ الصعلوك بمدرسة المرقسية الثانوية اجتمع عدد من الصحاب ، وربما كان عددهم ستة ، ولكنه يذكر منهم على الاقل فتحى وسالم . جلب

لهم صبحى امراة عاهرة من المتسكعات على الكورنيش ، هزيلة عجفاء ، ملطخة الوجه بالاصباغ ، صفراء الشعر بفضل غسله بماء الاوكسجين . وفى عجل أدخلها الكابينة ، وأغلق الباب ، ثم دعا الصحاب واحدا واحدا الى مضاجعة تلك المراة لقاء خمسة وعشرين قرشا . كان فتحى اذا ما استبدت به اللذة يضحك ضحكا عاليا وقد سمع ماجد ضحكاته مجلجلة من داخل الكابينة ، عندما فرغ مع المراة . عندما التصق بدنه ببدن المراة المستهلك عافها ، وخرج دون ان يجيب على سؤال نصحى كيف الحال ؟ » كان يلبس المايوه . جرى على الرمال الصفراء والقى بنفسه فى مياه البحر الزرقاء الباردة . واحس عندما صفعته اول موجة بأنه يفيق ، ويتطهر . سبح ذلك الصباح وقتا طويلا الى ان ناداه بقية الصحاب من الكابينة ينبؤنه بانهم قرروا الانصراف . راح يضرب اللجة بساعديه فى قوة ، ويغوص الى أعماق الماء . يستنشق الهواء النقى . يملأ رئتيه ، وينظر الى اديم السماء اللازوردى ، كى ينسى جو العطن والزخامة داخل تلك الكابينة الخشبية التي سرت الرطوبة فى اليافها . لم يكترث بأنه لم يشعر بقدر ولو ضئيل من الشهوة الجنسية تجاه تلك المومس ، بل على العكس ، كان راضيا عن نفسه ، وقرر ألا يكرر هذا الفعل بعد ذلك . ولكنه شعر فيما بعد عندما بلغ طور الرجولة أنه مع النساء على مايرام وان لم يكن مستعر الشهوة . كان يقال له أحيانا باعجاب « كيف تستطيع أن تسيطر على نفسك الى هذا الحد ؟ » وعندما عرف الهام ، احس بأنه منجذب نحوها بعاطفة ، ربما لا تخلو من اشتهاء ، لكن غلب عليها تسام ، رفع علاقته بها ، فى نظره على الاقل ، الى مصاف أعلى من العلاقات اليومية الرثة . ألا يكون تمنعها ومداومة الابتعاد عنه ابتعادا يكاد ينبه الفرار ، هو الذى زاده اصرارا على التعلق بها ؟ أو ربما كان استشعاره أنها تلعب بالنار ، وتكاد تحرق اصابعها ، وتودى بنفسها ، هو الذى جعله أكثر امعانا فى ملاحقتها ومحاولة اقحام نفسه فى حياتها ، وفرض رجولته على كيانها . كان يهوى خصال المصلحين الابرار . وفيه منها ماليس بالقليل ولكن اى رجولة هذه التى يتكلم عنها رجل راحت المراة التى احبها لتلقى نفسها بغير ما توخ لأى اعتبار ، وباستهتار يفوق التصور ، فى أحضان رجال آخرين فى ليلة خمر ؟ تدينها العمر كله ؟ تساءل هل الخطيئة موت ، ولا تساهل مع الخطاة ؟ كان المصريون القدماء يشوهون وجه المراة الزانية ، حتى لا تعود الى اقتراف اثمها . سمع بداخله صوتا

يهمس « من اجل خطاة جئت » واذا كانت الهام قد تردت فى الخطيئة ، وهذا لا جدال فيه ـ وان كانت فى الحق قد اغتصبت مسلوبة الارادة ـ فهذا أدعى الا يتخلى عنها ، وربما من اجلها جاء ، وبسببها كان لوجوده الانسانى معنى . فليدع رجولته جانبا الان ، بل ان رجولته تدخل فى الحق اختبارا جديدا صعبا . ليس بلازم أن يكون لوقوفه الى جوار هذه الخاطئة ثمن . ليس بلازم أن تصير الهام له زوجة ، حتى يقدم لها عونا وحماية « فليفعل الخير لجمال الخير ، ولن ينتظر اجرا » سيرافقها ربما الى مثواها الاخير ، أو ربما الى حياة جديدة تواجهها بامكانات ضعيفة ، مما سيزيد حولها الذئاب والطامعين ، وسوف تظهر رجولته هنا ، فليست الرجولة كلها جنسا ، بل هى أيضا وعلى الاخص شهامة ونخوة . ربما ولدت طفلا ، وسيتضاعف بذلك العبء عليها الى جوار وليد لا تعرف له أبا . سمع ماجد بداخله قهقهة خشنة . انه القدر الذى يتربص له ويطعنه فى أعز مايحب . وهذا شأن الالهة تطعن الانسان فى محك سعادته . الم تطلب من « رئيس البنائين » فى الاسطورة اليونانية القديمة ، كى يقوم للجسر الذى يبنيه قائمة ، أن يدفن فى أساسات ذلك الجسر زوجته الغالية الحبيبة ؟ توسل أن تطلب الإلهة منه اى طلب غير ذلك . أن تطلب منه عينيه أو صحته أو كل مايملك ، لكنها رفضت لانها تعرف انه ما من شىء أعز على رئيس البنائين فى الدنيا من زوجته الوفية البارة . حقا من أحب ابنا أو أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى » ما أحوج الهام اليه اليوم . لن يتخلى عنها . عاد يسأل نفسه « هل يحبها ؟ » طرح من رأسه بعيدا هذه الفكرة ، فما أسخفها فى هـذه الظروف المدلهمة . الافضل أن يكون السؤال « هل تستحق عطفا ؟ » الافضل أن يكون المرء انسانا ذا حنان على ان يكون عاشقا أو أى شىء اخر . تذكر ماجد الطبيب قسم هيبوقراط .

نهض ، وفد اليه عبير الزهور من الحديقة . ذهب الى الهام ، ورتب الغطاء على جسدها المتعب . سيمضى بجوارها دون نظر الى أى شىء . فليفترض أن الهام كانت اخته ، فهل كان سيتنكر لهـا ويتركها ؟ هل كان سيختار الطريق السهل ويتبرأ منها ؟ هـل كان سيقول « انا لا أعرفها ، وليست لى أخت مثل هذه ابدا ؟ » رأى كثيرين على هذا النحو تصرفوا ، بل وسمع عن أسر يخرج رجل منها يغسل مثل هذا العار ، ويقتل اخته .

فتحت عينيها . رأته جالسا فى مقعده صامتا قرب النافذة . ابتسمت له ابتسامة متعبة وقالت :

ـ أنت هنا ؟ مازلت هنا ؟

أسرع الى جوارها . ربت فى حنان على شعرها المتناثر ، متهدلا على كتفيها ، اغمضت عينيها وتنهدت . قالت ، وكأنها تزيح عبئا ثقيلا عن كاهلها :

ـ لا اشعر بالاطمئنان الا معك .

بعد قليل شردت نظراتها ، وسألته :

ـ هل ستشفى حبيبتك ، ياماجد ؟

قال لها بيقين :

ـ ستشفين ، وتعودين الى بيتك .

هزت رأسها فى حسرة ، وقالت :

ـ ليس لى بيت . ليس لى أى مكان أذهب اليه .

اشارت الى حقيبة وهمية على الارض ، وقالت :

ـ كل حاجياتى فى هذه الحقيبة هناك .

اغمضت عينيها وخيم الصمت . ثم فجأة فتحت عينيها وامسكت بيده ، قالت :

ـ اسمع ! اسمع !

لم يسمع شيئا .

اردفت تقول :

ـ أسمع طرقا من الجانب الاخر للجدار ! انها امى تناديني اليها .

قال لها مشفقا :

ـ نامى .. استرخى .

قالت له :

ـ لا اريد أن انام . ربما نمت طويلا فيما بعد .

جلس على حافة السرير الى جوارها . سرح بصرها بعيدا ، وقالت :

ـ عندما كنت صغيرة كنت اطلب من أبى أن يترك باب غرفة نومى مفتوحا ، حتى يدخل الى النور من الردهة ، كنت اصنع بظل يدى على الحائط اشكالا . كنت أرسم عليها هيئة امى ، وأراها تخرج

من الجدار . تبتسم لي وتنحني على تقبلني . تحكم من حولي الغطاء ، وتهمس الي في حنان «تصبحين على خير ياحبيبتي » وكم كانت عذبة كلمة « حبيبتي » في فمها . بينما انا قتلت أمي ساعة ولادتها لي . على حساب حياتها كانت حياتي . ولهذا ، لم أكن أشعر على الدوام بالاستقرار ، ولا براحة البال . كنت قلقة ، مضطربة ، مطاردة . انا أطارد نفسي . اثم بداخلي يجب أن أكفر عنه . وجدت في حريتي مسكنا ، واعتقدت أنني بها أسكت الصوت الصارخ بداخلي « أنت ، أنت قاتلة » « انت ، أنت السبب » « لن تحصلي على السعادة أبدا » .

هون ماجد من همومها هذه . وطلب منها أن تخلد الى الراحة فأجابته باصرار :

ــ راحتي في أن اتكلم معك . اني بحاجة الى ذلك . الا ترى .

تركها ماجد تسترسل على سجيتها . تأججت الجمرة الخافتة تحت الرماد ، وقالت :

ــ انا لا أستحق الحب ، منذ ولادتي . على الدوام ، لا أستحقه ، وبالاخص ، حبك انت ، حب رجل جاد مرموق نظيف مثالك . انا حثالة ، قطعة من الصفيح الصدىء ، جلابة نكد على أقرب أقربائي . الم أقتل أمي ساعة ولادتي ؟ منذ تلك الساعة ، وأنا قاتلة . لهذا كان يجب أن أنفذ في نفسي حكم الاعدام . كان يجب أن أقتل سعادتي . بنفسي أعدم وجودي . وصرت أعيش يوما بيوم ، بل ساعة بساعة . أضحك ، وأقول « انا لا أفكر ماذا سيكون أمري غدا » ومن كان يقول لي « فكري في مستقبلك » اجيبه باستخفاف قائلة « يكفيني يومي » الان ، اكتشفت الحقيقة . لم يكن ذلك استهتارا ، بل كان تعذيبا ذاتيا . اني تحت ستار الحرية التي لا حدود لهـا ، كنت اعذب نفسي ، كنت أقتص من نفسي .

صمتت برهة . ثم التفتت اليه ، ومضت تقول :

ــ وانت ، أيها المسكين ، ماذنبك ان عرفتني ، او احببتني ؟ انني اجلب الندم لكل من المسه . منذ ولادتي ، اردت أو لم أرد ، اسبب لأحبائي الشقاء والهموم ، وذلك مهما تعالت ضحكاتي ، وتزايد اقبالي على المتع . أفهمت الان ، من انا ؟ انا بدات افهم . كنت من قبل احس بذلك احساسا مبهما ، دون ان اعي مدلول هذا الاحساس . لكنني الان ، والجنين يتحرك في أحشائي وانا مقبلة على ان آتي به الى هذا العالم ، أفهم بوضوح تام حقيقتي . لكن انت

لا أفهمك . مازلت لا أفهمك . ما الذى يجعلك ترتبط بذئبة مثلى ؟ بعد كل هذا الذى عرفته عنى ، مازلت تريدنى ؟ أنت طيب القلب ، لكن ما اقل نصيب طيبى القلوب من الحظ . أتعرف ماذا يجدر أن اسميك ..؟

انتظر أن يسمع .. قالت بالفة شديدة :

ـ « الفرس الابيض » .. الذى ينقذ ، ويحلق عاليا ، ويحط فى حدائق خضراء بعيدة .

خطر ببال ماجد جواد البرخت دورير الذى يحمل راكبه فى لوحات ذلك المصور الالمانى الجهم القدير الى وديان الصمت والموت .

عادت الى تيار تفكيرها الاول ، فمضت تقول :

ـ سوف اغرس فيك أنيابى ، ويسرى منى اليك السعار . لماذا لا تبتعد عنى ؟ إشفق عليك . فعلت الكثير كى أقصيك عنى . كنت موقنة اننى لا أستحقك ، وحاولت ان انقذك من غصتى ، لكن مخلبى مسك على مايبدو ، ومن الخدش سرى اليك لعابى . أنت مسعور اذن مثلى .

مالت اليه جالسة فى سريرها وقالت :

ـ انج بجلدك . ابعد عنى .

عادت . فالقت بجسدها الى الخلف واسـندت ظهرها الى الوسادة ، وقالت :

ـ انى بحاجة اليك ، بحاجة شديدة اليك . ليس لى غيرك ، لكننى افضل أن أنقذك براثنى . ربما كانت هذه نقطة الشرف الوحيدة فى ، ولا يمكن ، الا أن أكون شريفة معك . افضل ان تنجو . ارجوك، انج منى ودعنى . أنا لا أستحق ــ وعلى الاخص منك ــ سوى الاعراض والهجر . دعنى اغوص فى عزلتى ، حتى يقضى نحبى . انى لا أستحق منك حسن المعاملة . استل خنجرا واطعنى . أريد ان يسيل دمى فأستريح . حبك نفسه يعذبنى . اشفاقك يقض مضجعى . ابعد ، عنى ، واتركنى لمحنتى ، لشيطانى ، أنا غولة . الم تر طوال هـــذا الوقت أنيابى ؟ اشعل فى النار بكراهيتك ، حتى أحترق واضحى رمادا وأخلص . أما حبك ، حبك هذا النبيل ، فهو عذاب جديد ، نعمة لا أستحقها . احس بأننى سارقة ، مغتصبة ، كيف تكون لى أنا ، انا الدنسة ؟ انثر رمادى فى مهب الرياح الاربع ، حتى أتبدد ، فارتاح ، ومنى وجودك يتطهر .

تهدج صدرها . زاد شحوبها . وانهدت على الفراش . من

الحديقة ، أطلق كروان فى ظلمة الليلة صيحته . ثم خيم الصمت .
انحنى ماجد يلمس جبينها . قالت هامسة :
ــ ماما ، سامحينى .
وغرقت فى النوم .

ــ ٤١ ــ

أخطر ذلك الصباح من المصحة بالحضور فورا . فقد شعرت الهام بآلام المخاض ، ونقلت بسرعة الى مستشفى مجدى . وقال له الدكتور رفقى « هى الآن هناك ، تحت رعاية مركزة »
هرع ماجد الى مستشفى الولادة ، ما أن دفع الباب الزجاجى ، ودخل يسأل عنها ، حتى وفد الى سمعه صراخ طفل وليد . قالت له ممرضة الاستعلامات مبتسمة :
ــ ولدا كان أو بنتا ، فهو يبكى لأنه يغادر لأول مرة مهده المريح . انها صرخة الحياة ، يطلقها الامير أو الاميرة ، اذ يفاجأ عند خروجه ببيئة خشنة جافة ، مختلفة تماما عما كان عليه داخل الرحم .
بعد قليل ، عرف ماجد انه ابن . وقد أجريت لالهام عملية قيصرية لتعثر اجراءات الطلق ، وتم اخراج الطفل الى عالم الاحياء بلا مضاعفات . وعندما نقلت الى سريرها من غرفة الولادة ، كانت غارقة فى نوم مجهد ، ولكن وجهها زايله كثير من امارات التوتر ، والقلق السابقة .
راحت الام تسترد عافيتها يوما بعد يوم ، ويكسو اللحم الطرى العظام التى كانت قد نفرت مثل اغصان شجرة جردها الشتاء من أوراقها . مضت سحب الهموم تتبدد من مخيلتها . صفاء ذهنها ، وانصرف اهتمامها كله الى طفلها . ترضعه فى الميعاد ، بل وما أن يرتفع صوته الرفيع بالشكوى ، وتتلوى بطنه الضامرة حتى ترفعه الى حضنها ، فاذا ما نبهتها الممرضة الى عدم جدوى ذلك ، ابتسمت وقالت « لا أريد لابنى الحرمان من شىء أبدا . »
دخل ماجد غرفتها ، فوجدها ترقد فى الفراش ، وقد أسندت راسها وظهرها الى الوسائد البيضاء . كانت مثل ثمرة شهية . وقد لملمت جدائل شعرها الى الوراء بشريط من حرير وردى . فى حضنها رقد الطفل كملاك مستسلم للسكينة والدفء ، مغمض العينين غائبا

عن هذه الدنيا . بيدها الاخرى أمسكت يده الصغيرة البضة . راحت تتأمل بحنان بالغ قسماته الوديعة ، وهو نائم بسلام على السرير الى جوارها .

عندما سمعت خطوات ماجد ، التفتت اليه وابتسمت بالحنان ذاته الذى أولته لطفلها ، ورحبت به قائلة :

ـ أصبح لى طفلان الآن . أرايت كم يحبنى الله ؟

ثم أردفت تقول له ، وقد انحنى يقبل جبينها :

ـ انت واحد ، وهذا الصغير هو الثانى .

اجلسته على السرير الى جوارها ، واشارت الى الرضيع :

ـ أترى شفيقا يا ماجد ، كم هو جميل ؟

رف طيف ابتسامة على الشفتين الصغيرتين الورديتين المتلثتين .

قالت الهام جذلة :

ـ أترى كيف يبتسم ؟ اخوته الملائكة يداعبونه فى نومه ، ويحادثونه .

ضغطت بيدها على يد ماجد فى الفة ، فرفع أناملها الى شفتيه ، وطبع عليها قبلة .

قالت بكل الدفء الذى فى قلبها :

ـ الامومة شىء رائع . أتعرف بما كنت أحس رغم آلام الوضع ، بأننى أتحرر من شىء . أتخفف وأجرى فى حقل قمح فسيح . أمسك فراشات ، واضحك من فوقى سماء صافية الزرقة ، أقفز اليها ، فتطولها هامتى . واعود فاهبط ببطء فى بحر من سنابل القمح الاصفر . كنت لاول مرة بطلة حقيقية فى فيلم سينمائى ملون .

امتدح ماجد قدرتها على الوصف . ولاحظ كم صفت رؤاها من الشوائب الماضية . تناول مقاس اصبعها وقال سعيدا :

ـ سوف أشترى دبلتين قريبا وهدية .

ربتت على خده وقالت :

ـ كلا ، كلا ، مصاريفك كثيرة الآن . وفر ثمن الهدية لشىء تكون اليه أحوج .

سحبت يدها ، أسندتها على الغطاء ، وسرح بصرها من النافذة .

بعد برهة صمت ، قالت :

ـ جاء رامز يزورنى هذا الصباح .

لم يكن ماجد يتوقع سماع هذا الاسم . انفلت الكلام منه غاضبا :
ـ ماذا جاء هذا النذل يفعل هنا ؟
واجهته بلهجة شكسة :
ـ مالك محموق كده ؟ !
أردف يقول :
ـ الإسطوانة ذاتها من جديد ؟
اشاحت بوجهها ، وقالت بجهامة :
ـ اعمل حسابك .. انا لن أتزوج .
غلبه الانفعال ، انتفض واقفا ، وقال لها :
ـ وانا لا أستجدى الزواج !
ادارت له ظهرها . ضمت رضيعها بين ذراعيها ، وقالت :
ـ ابنى بحاجة الى .
كطلقة رصاص قال لها :
ـ ليس هذا هو السبب !
بعناد قالت :
ـ سأكرس حياتى له .
لان قليلا . عاد يجلس الى جانبها ، وقال :
ـ لا يمكن أن يكون ذلك قرارا .
واصلت اصرارها ، وقالت :
ـ لك ان تفهم ما تشاء .
نهض ببطء ، وضع يده على كتفها على أمل أن تدير وجهها اليه . لم تفعل . ارتعشت شفتاه ، وهو يقول :
ـ أهذا جزاء طيبتى ؟
أدرك قبل أن ينهى عبارته أنه ما كان يجب أن يقول ذلك . تلقى الجزاء على خطئه بأسرع مما تصور ، وبأقصى الكلمات :
ـ لا أريد طيبة من أحد . كان أبى طيبا فافترسوه ، ولن اسمح لأحد أن يفترسنى .
ركع الى جوار السرير ، وقال بصوت متوسل متهدج :
ـ أرجوك .. أوضح لك ..
نحت طفلها ، واستدارت نحوه . كان وجهها متأججا . أحس انفاسها تلهب بشرته وهى تقول :
ـ وعندما سأخرج من المستشفى ، سأسدد لك ما انفقته على .

انفجر البركان بداخله ، وانسكبت فى اعصابه حمية ، فاعمت بصيرته . اخذها بين ذراعيه بشدة والصق شفتيه بشفتيها القريبتين منه . التصقت به وقالت :

ــ تعال .

جذبته الى الفراش ، وقالت :

ــ بالراحة على .

فى ثوان أفرغ فيها كل شهوته .

ابتعد يصلح من هندمه . ويقول معتذرا :

ــ آسف يا الهام . آسف .

قالت له :

ــ كلا ، كلا ، انا التى كنت أريد .

نكس رأسه ، وانسحب من الغرفة . استدارت ، وبسطت ذراعها على شفيق . اغمضت عينيها ونامت .

عندما عاد ماجد الى البيت فى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، دخل غرفة اخته ، وجدها نسيت المصباح موقدا . وعند متناول ذراعها الممدودة على السرير فى استرخاء كتاب ماهر جلال الجديد . اشفق على امينة أن يوقظها .

اطفأ المصباح برفق ، وانسحب .

الفصل الرابع

الحرباء المسكينة

ـ ٤٢ ـ

احضرت الشاى . صبته ساخنا . تصاعد من القدحين بخاره . وقدمت لأخيها قطعة من كعكة صنعتها بنفسها . قلبت السكر بمعلقتها الصغيرة . ثم قالت لأخيها بعد أن فكرت قليلا :

ـ ماقولك فى شاكر ؟

أجرى عملية شاكر سريعة ، وابتسم قائلا :

ـ لابد انه أحد شخصيات ماهر جلال .

ـ لن يتعاطف معه الناس فى علاقته المتساهلة بنجوى . كيف سيرتضيها بعد أن تورطت مع غريب وحملت منه سفاحا ؟ هل يعتبر ذلك طيبة ؟ ان جهنم مليئة بذوى النوايا الطيبة .

امتدح ماجد الحلوى التى صنعتها اخته .

ـ هذا كله صحيح . والطيبة من بعض الزوايا مرتبطة بالعبط . وكثيرون اذ وصل عطاؤهم الى أقصاه ، يثيرون فى العقل المتزن الرفض ، وضرب الكف بالكف اشفاقا .

تناول رشفة من قدحه ، ثم اردف يقول بعد تأمل :

ـ ولكن يرد على ذلك بأنه لا يمكن أن يقدم على قرار شاكر الا من بلغ درجة من النضج عالية ، وكان وعيه بالخير عميقا كبيرا . ان شاكر من هذا الصنف من الرجال . آه ، دعينى اتذكر احداث رواية « للحب اقنعة كثيرة » حسنا . انه لا يضعف ولا يتخاذل ازاء استهجان الناس لسلوكه . لقد أيقن من سلامة قراره ، واقدم عليه ومضى ، أو أراد أن يمضى فيه حتى النهاية ، اليس كذلك ؟

نهضت أمينة تحمل الصينية والاقداح الى المطبخ . وقالت :

ـ على اى حال ، اذا كان هذا حكم ماهر جلال على الأوضاع ، فكان يتعين عليه أن يزيد الأمر ايضاحا فى الرواية ، حتى يزيدنا اقتناعا بشاكر .

منذ ذلك اليوم ، الذى استباح ماجد لنفسه ما لم يكن قد أصبح حقا شرعيا له بعد ، أضحى أكثر شعورا بالالتزام نحو ابنة صديقه المرحوم شفيق . قرر أن يسعى حثيثا لابرام عقد الزواج

منها ، كي تعود السكينة الى نفسه ، ويهدأ الاضطراب الذى أحدثته مضاجعتها فى أعماقه ، ويقوى على ان يرفع من جـديد عينيه الى وجهها ، فلم يكن من شيمته أن يستغل فى امرأة ضعفا ، ولا أن يتسلل الي مخدع تحت جنح الظلام لصا . لم يعد مسئولا عنها قبل أبيها بصفة عامة ، بل وأيضا عن فعلته هذه مسئولية خاصة . وهو على استعداد لتصحيح الاوضـاع ورد الاعتبـار للفتاة التى جعلت موازينه فى لحظة غير متوقعة تختل ، فانحرف الى ما كان لا يليق به ان يفعل .

فى الصباح الباكر ، ذهب الى المستشفى . واذا كان قد تأخر عن زيارتها بضعة أيام ، ولم تتصل به ، فلأنها ولابد غاضبة ، وتنتظر منه بعد الخصام مصالحة .

حمل باقة من الورد عنى بانتقاء ألوانه ، كي تعبر عن مكنون صدره ، وتتكلم بما يعجز عن الافصاح به لسانه . دفع البـاب الزجاجي بالدور الارضي ، ودخل . استقبلته عاملة الاستقبال فى ثوبها الابيض وابتسامتها الباعثة فى القلوب الامل . مضى نحو الدرجات الصاعدة الى الجناح الذى ترقد فيه الهام . من وراء ظهره سمع العاملة تقول له :

ــ الست تركت المستشفى .

ماتت خطواته على رخام الارضية الباردة . استدار اليها غير مصدق ، وسأل :

ــ الهام تركت المستشفى ؟ !

اجابت عاملة الاستقبال ، واثقة مما تقول :

ــ أجل ، يا دكتور . دفعت الحساب أول أمس ، وخرجت .

ــ وحدها ؟

ــ كلا ، جاء شخص ، نزلت معه الى سيارته ، وانصرفا .

ــ من هذا الشخص ؟

ــ لا أعرفه . يمكنك أن تسأل فى الحسابات عن اسمه .

ترك باقة الورد على منضدة . هرع الى الحسابات . رامز سليم هو الذى دفع . استخرجت قسيمة السداد باسمه . قرأ ماجد القسيمة ، ودقق النظر فى الاسم أكثر من مرة غير مصدق . أحس بالمهانة تقصم ظهره . نكس رأسه ، وشرد فكره ، لم يكن يعرف ماذا يفعل . أشعل سيجارة ، والقى بنفسه فى مقعد من مقاعد بهو الاستقبال . كان ما حدث أبعد بكثير مما فى الامكان توقعه . المفاجأة

مذهلة ومثيرة للغضب . حقا ، لكنه تمالك زمامه حتى يكتشف ابعاد الموقف . بادر بمقابلة طبيب المصحة ، وساله تعليلا ، فأوضح قائلا :

ــ صدمة الولادة ، اعادت الهام الى صوابها .

تمتم ماجد لنفسه « بل اعادها الى طيشها ! » وقرر أن يذهب الى بيتها .

ــ ٤٣ ــ

قالت له :

ــ لم اكذب عليك فى شىء كنت صادقة معك .

ــ على طريقتك . ذكر جزء من الحقيقة ليس الحقيقة .

ــ انت رايت . لا تلمنى . حاولت كثيرا . فى المستشفى كان ثمة احساس قوى بداخلى اننى سأتزوجك .. بل احسست انى زوجتك فعلا . الم تر منى ذلك ؟

ــ وقد جعلنى ذلك اشد التزاما نحوك ، واقوى شعورا بالمسئولية .

ــ لا أريد أن يهتم أحد بأمورى . اريد أن اترك وشانى . لا اريد احسانا انا آخذ وأعطى .

ــ تغلقين الباب فى وجهى ؟

ــ انا افعل ذلك من أجل مصلحتك .

ــ تعرفين مصلحتى أكثر منى ؟

ــ وما هى مصلحتك ؟

ــ ليس منك فحسب ، بل ولا من احد على الاطلاق .

ــ ان أكون بجانبك .

ــ فلنكن اذن أصدقاء . قلت لك ذلك مرارا منذ أول الأمر

ــ انا لا اريدك صديقة ، بل زوجة . انى احترمك .

ــ لا أستطيع . آن الاوان ان تفهم .

ــ ما عاد هناك أمل ؟

ــ انا أعيش حياتى الآن يوما بيوم .

ــ لا تدفنى رأسك فى الرمال . لا يعنى هذا سوى انك تتحاشين الاجابة .

ـ تريدني ان انشغل طوال اليوم بالطبخ والكنس والغسيل . واشترى لك اللحم والخضار من السوق .

ـ ليس هذا ما سأطلبه منك .

ـ بل ستطلبه ايها السيد المطاع . الست انت الرجل ؟ وعندما ستألفني وتشبع مني ، ستعرض عني ، وتتركني أعاني الملل في بيتك حتى اختنق ، كلا ، كلا ، لن أطيق ذلك . على الاقل أنا الآن حرة .

ـ ٤٤ ـ

لجأ ماجد الى الدكتور شوقي . استنجد به . وتجد منه انتصارا لقضيته ، ومن زوجته انحيازا لجانبه . وعدته الست نجاة أن تتحدث اليها ، وتعرف رأيها وقالت له انها ستعاتبها وتعيدها الى صوابها . فهذا الذى تفعله « لا يرضى حبيبا ولا صديقا . » ورحبا أن يعود ماجد يوم الاثنين ليسمع ماسوف تدلى به الهام ، وليطمئن تماما أن كل شيء سيصير على ما يرام .

في الموعد المحدد جاء . قالت له الست نجاة :

ـ لا تريد أن تتزوج .

سألها :

ـ هل هذا قرارها ؟

تقول انها لا تريد شيئا لنفسها . مسكينة ، بتضحي بسعادتها من أجل ابنها . تقول انها لا تستطيع ان تتخلى عنه في هذا السن التي هو أحوج فيها اليها . ليس للطفل اب ، فهل لا يكون له ايضا ؟

تنهدت الست نجاة ، واردفت تقول :

ـ مسكينة ، أعانها الله على بلائها !

احس ماجد في عبارات الست نجاة تراجعا عن موقفها السابق من الهام ، وتعاطفا معها . بل انها استطردت تقول له بلهجة تضمنت نصحا . ولوما مسبقا اذا لم يستجب له :

ـ يجب أن تقدر وضعها ، يا دكتور ماجد ، وتتلمس لها العذر .

ثم انضم زوجها اليها ، وقال :

ـ ربنا يسهل لها ، ويسهل لك انت ايضا . ابحث لك عن زوجة اخرى ، يا أخى .

ثم أضاف بلهجة متبرمة :

ـ الذى خلقها يا دكتور ماجد ، الم يخلق غيرها ؟ لماذا تعذب نفسك ؟

نظر الدكتور شوقى فى ساعته واستأذن فى الانصراف ، فبعض الأصدقاء ينتظرونه فى النادى .

لاحظ ماجد ان الناس تعرض عنه وتنصرف . واذا تحدثوا اليه فبلا اكتراث حقيقى بآلمه . أحس بأن الصحراء تتسع من حوله . وأن قوافل البشر تمضى مبتعدة لتتركه وحيدا . وقالت له السمت نجاة مقطعة حبال التواصل . « والطفل ماذنبه أن يحرم من امه ؟ نفس بريئة جاءت الى هذا الوجود . » سدت بهذه الكلمات فى وجهه الطريق . وقال له زوجها « ماذا تتوقع منا أن نفعل ؟ » نفضا اذن ايديهما من الموضوع كله ، وهما أقرب الناس الى الهام ، لا يعنى احد بأن يغوص فى مشاكل غيره ، ويتضامن معه . الكل يتجنب المتاعب ، ويبتعد عن وجع الدماغ . يترك المهزوم وشأنه . وقد يتخذ فى النهاية مادة للتندر . وجد ماجد نفسه يجيب على الدكتور شوقى قائلا « لا اتوقع شيئا وانصرف موطدا العزم الا يطلب من الغير عونا . » فالشكوى مذلة . والاستجداء لم يكن من شيمته يوما .

ـ ٤٥ ـ

اتقنت الهام الديكور من حولها ، لتخفى العطن الذى بداخلها ، ولا يمكن لأحد أن يلاحقها الى الحقيقة . الحقيقة مخفية باتقان وراء ستار رائع من الاخلاقيات والمثاليات والتضحيات . هى تضحى ؟ مسكينة ! اذن ، هى ترفض الزواج ، وتريد الاحتفاظ بوضعها هذا من اجل الطفل ! الديكور ممتاز حقا ، فهو يخدع ويقنع ، ويمنعك من أن ترى ما وراءه . فليبق الحال على ما هو عليه وأما ما تريد أن تفعله حقا فمن وراء الستار . « صورة دوريان جراى » مقصية فى المخزن المظلم . والمهم هو تلك الصورة ، وليس الوجه الوسيم البادى للعيان تحت المساحيق والاصباغ الزاهية . تلك الصورة المليئة بالبثور والتجاعيد ومعالم النذالة واللؤم وآثار السنين هى الحقيقة ، ولنقل « الحقيقة الحقيقية » انه وضع فى الحق يغيظ ، ولكن اى بهجة اذن يعطيها مواصلة الكذب على النفس ، وعدم اسقاط القناع ؟! من اين تستمد تلك القوة على المخاتلة والازدواجية ؟ والى متى يدوم هذا التماسك ، ولم النقيضين فى جعبة واحدة ؟ شىء مبدع ومحير معا ان

تضم الذئب والحمل طليقين فى قارب واحد . كم تذكر هذه الاوضاع بحكاية من أيام الطفولة ، فيها افترس الذئب الجدة العجوز ، ثم ارتدى ملابسها وتدثر بشالها ووضع علي عينيه نظارتها ، ودس نفسه فى سريرها . وقبع هناك منتظرا الحفيدة الشهية ذات الرداء الاحمر ، كي تنخدع فيه هذه الصبية الصغيرة فاذا ما اقتربت منه كى تمارس حنانها البرىء ، وقعت بين مخالبه ، ولا نجاة لها بعد ذلك من أنيابه. ولكن اذا كان هذا ما يحدث فى حكاية من حكايات أطفال الزمن الغابر ، فهل ما زال يحدث فى هذا الزمان الذى تتحكم فيه الآلات الحاسبة وأجهزة الاستشعار عن بعد وعن قرب وصواريخ الفضاء النارية ؟ يبدو أنه يحدث فعلا ، فنحن أيضا فى زمن الديكورات والصبغات والمساحيق والرموش والاثداء والارداف والاظافر الصناعية . لم لا ؟

— ٤٦ —

مرض ماهر جلال . نزيف حاد من المعدة فاجاه بعد منتصف الليل تقيأ ثم تقيأ وفى النهاية تقيأ وتبرز دما اسود . ما من أحد كان الى جواره . فى تلك الساعة المتأخرة فتح باب شقته التى يعيش فيها وحيدا ، وهرع الى جاره حسنى عبد الصبور المهندس باحدى شركات المقاولات . دق الباب . وعندما فتح جاره الذى أيقظته الطرقات المتخبطة على الباب ، وجده منكفئا على الارض أمام عتبته وبكل عناء طلب منه ماهر جلال أن يحضر له طبيبا . ولما رأى حسنى عبد الصبور جاره بهذه الحالة السيئة بادر هو وزوجته فحملاه ونزلا به الى مستشفى « الامل » القريبة ، حيث أجريت له الاسعافات لوقف النزيف .

ظل فى غيبوبة يتغذى جسمه بالجليكوز ثلاثة أيام ثم أمره الطبيب بأن يلازم فراشه بالمستشفى ونهاه تماما عن الحركة والانفعال حتى يهدأ ما اتقد فى جوفه من سعار .

جزع ماجد على صديقه أشد الجزع ، ولم تقل عنه أخته أمينة جزعا . مرض ولا احد يقوم على رعايته ؟ لا احد الى جواره فى لحظات محنته ؟ تخلت عن فرديتها وعزلتها . قررت أن تذهب اليه . هو بحاجة اليها . فلتنزل الى الجحيم ، وتصعد به .

حملت اليه باقة من الزنابق البيضاء . ابتسم لها ، وقال :

ـ كيف عرفت انني أحب هذه الزهور ؟
اجابته :
ـ اكتشفت حبك لها فى فقرة فى كتابك « زهرة النسيان »
ـ محظوظة كتبى ، اذن .
ـ أجد فيها عزاء ، حتى فيما لا اوافقك عليه .
ـ ستة عشر كتابا اصدرت ، ولم يلتفت اليها .
ثم ببساطة اضاف :
ـ فى بعض الاحيان ، اقول العيب فيما أكتب . تنقصنى الموهبة على ما يبدو .
حملت اليه كتبا وحلوى ، وأشياء صغيرة أخرى . وقبل كل شيء حملته اليه ودا ..
كان يفتح عينيه فى الصباح عليها تنسق فى الاناء زهرا ، تقرأ له الصحف ، وتشعره بأنه ليس وحده فى الدنيا . ان لمرض قرحة المعدة اسبابه النفسية كما له أسبابه العضوية . وانه لمما يسارع فى شفاء المريض طرد الاكتئاب من أعماقه ، وليس بلازم أن يكون هذا الاكتئاب ظاهريا . وقد فهمت أمينة من واقع ما قرأته من كتبه مدى حاجته المبهمة اليها .
وما كانت تتركه فى المساء الا بعد ان تطمئن عليه ، وتدعه يخلد للنوم وللراحة .
ذات مرة ، قال لها وهى تهم بالانصراف من الغرفة :
ـ أتعرفين بمن تذكرينني ؟
نظرت اليه مستفسرة ، قال :
ـ ببطلة « عرس الزين » .
تاقت أن تذهب اليه . منذ أول لحظة جاءها نبأ استشهاده . بيتت العزم على لقائه هناك . كانت تسمع فى قرارة نفسها صوته من بعيد عبر تلال الرمال يناديها ان تأتى اليه . كان يريدها كما أرادها على الدوام الى جواره . تمنت ان تذهب الى سيناء . بل وأن تغرس جذورها فى رمالها ، وتنمو نخلة من نخيلها ، أو صخرة من بدن جميل صلب من جبالها ، أو اذا من الله عليها بنعمته تضحى شعاعا من الضياء المشرقة عند أعلى القمم .
عبر الخلاء يفد اليها النداء ، ولا يمنعها عن تلبيته سوى المحاذير المفروضة على تحركات الافراد الى قلب الصحراء . ما كان مسموحا لأحد أن يجتاز القناة الى الضفة الشرقية ، ومن يفعل ذلك كان يضع

نفسه محل الشبهات ، ويتعرض لاسوأ صنوف الاستجوابات ، وقد يتهم بأكثر الافعال جسامة . ولكن الامينة جمرة متقدة ، تنتظر أن تسنح الفرصة يوما ما ، ويتحقق الامل بعيد المنال . وتبقى الجمرة تحت الرماد متقدة يؤججها ذلك النداء البعيد الوافد من وراء الفيافى والقفار ، يتسلل احيانا رقيقا ناعما ، ويعصف أحيانا أخرى مثل اعصار ..

تتطلع كل صباح الى أديم السـماء معاتبة . لماذا تخلت عنه قبضتها ، فهوى على رمال الصحراء وتحطمت الطائرة ؟ وتسأل أين أيتها السماوات سقط ؟ أين فى بحر الرمال التى روتها الدماء الطاهرة ؟ ومن الشرفة تجول بعينيها فى السحب البيضاء التى تسير الهوينا ، وترجوها أن تقودها الى مكان مثواه . ثم ما يلبث أن يهب فى قرارة النفس تمرد وعدم تصديق . كلا ، كلا ، انه لم يمت . انه مفقود فحسب . هكذا قالت التقارير عنه أول الامر ولأمد غير قصير . وما دام مفقودا فلابد انه هنا أو هناك . غائب عن عيان الناس فحسب ، لكنه ماثل على الدوام فى عينيها هى ، وليس عليها سوى ان تزيح الغشاوة وستراه ، ولكن بداية الطريق لكل هذا هو أن تضع قدميها على الأرض التى سقط عليها . وسوف تجده فى انتظارها ستنبش الرمل كله بأظافرها ، وتقلبه كوما كوما ، وحبة حبة . ستدخل المغارات وتنادى . ومع رجع الصدىَ سوف تسمع الصوت الحبيب يرد عليها . كانت تعلق أنظارها فى الصباح الباكر على أديم السماء بأسراب حمام يطير الى أن يختفى عند الافق ، فتستبشر خيرا . وفى الليل كان ثمة نجم وضيىء يتلألأ عاليا ، ومن عليائه يرنو اليها . فكانت تقول لنفسها لا يمكن أن يكون كل هذا الغياب والخواء والعدم خاتمة المطاف . ومن ثم كانت تؤجل الى غد الامل . وحتى لو لم يجىء اليوم ، فانه سوف يجىء غدا .

تقصت عن امكانية الذهاب الى سيناء .

صحبها العقيد مرجان الصفتى الطيار المتقاعد الذى كان زميلا فى العمليات لزوجها .

ذهبت ..

قادها الدليل الى هناك ، الى بقعة تقريبية للمكان الذى سقطت فيه طائرته فى مثل هذا اليوم منذ أكثر من عشر سنوات مضت . فيها عثر على الحطام ولكن على جثة الطيار لم يعثر . ومن هنا جاء

الاعتقاد بأنه فقد أو ضل الطريق فى الصحراء بعد أن هبط سالما .

شعرت بالصحراء مترامية الاطراف من حولها .

اربع ساعات من الصعود عبر دروب وعرة ، فى عتمة الغسق كى تدرك لحظة الشروق ، لحظة استشهاد حبيبها على قمة من قمم « جبل موسى » . راحت تصعد فى رحلة حجيج الى « منابع النور » سمعت هسيس الريح يهمس اليها بشتى الترانيم والاهازيج ، معبقة بأريج الخلاء . لثمت الريح يديها ، طبعت على شفتيها قبلة . جف الرضاب فى حلقها . لفحت النسمات البرية المتوحشة جبينهـــا ووجنتيها وجيدها . وتسللت من تحت جسدها الوفى ، كأن المكان كله قد تجسم رجلا . رجلا اسمر ، جعد الشعر ، قوى الساعدين ، حنون الصدر ، أخذها باشتياق بعد طول غياب بين أحضـــانه . اغمضت عينيها ، وتمتمت باسمه « راضى .. راضى .. راضى » علا الصـــوت فى أعماقها ثم دوت أرجاء المكان باسمها « أمينة .. أمينة .. أمينة » كأن الصوت مارد حبيس قمقم انفتحت فوهتـــه فجاة . ثم ابتعد الصوت وتلاشى ، وعم الصمت من جديد .

سجدت أمينة بكل اجلال على الارض وقبلتها . بدا جمـــال الطبيعة من حولها ضاربا . والقمم الشوامخ تلامس هامات السحب ، وتتحاور معها حول « لغز الابدية » ما عاد التساؤل « أين تذهب الارواح ؟ » سؤالا بلا اجابة ، فالمنظر بجلاله وسكينته أعطاها اجابة طرحت عن كاهلها الهموم . شعرت أنها تولد من جديد ، فقد انحسر عنها جرمها الطينى ، وأضحت بدورها أثيرا تسبح لخالق السموات والارض . ومن أعماق هذا المنظر الذى بدا كما لو كان لا ينتمى الى أرض البشر بزغت شمس الصباح ، تنفث ضياءها حانية فى أرجاء السحب ، وما لبثت ان كست سفوح الجبال بلمسات الذهب .

ظلت أمينة هناك وقتا لم تدر كم طال بها ، الى أن ربت الرفيق على كتفها مستأذنا اياها التأهب للعودة ، فالجمال يريد أن يؤوب قبل الغروب الى أهله .

كل الاوقات تنقضى ، للاحزان كانت او للفرح . كل الازمان تصب فى بعضها ، مثلما الليل والنهار كل يوم . فليس من لقاء الا ومن بعده فراق .وما الفراق الا ايذانا بلقـــاء غير مرتقب . لو استطعنا أن نهتك حجب الغيب للمحنا الفرج الاتى مهما ادلهمت من حولنا غيوم الالم ، والحزن الوشيك مهما تفجرت من الاشـــداق والقلوب الضحكات . ان المجهول يغلف المصائر ، فلا يدرى المحبون

ماذا سيكون أمرهم غدا . وماذا سيكون شأن من لم يطرق كيوبيد بعد بابهم .

انحنت .قبلت الارض من جديد .

حملت فى قبضتها حفنة من الرمال .

ظلت قابضة عليها طوال الطريق .

فى طريق العودة سمعت من ورائها الصوت الحبيب يقول « حتى لو زحزحت صخرة القبر ، لن تجدى فى الحفرة جثتى » هنا فى سيناء ، الضوء نابع من الداخل ، من الاعماق . كان الليل قد بدأ يسدل سدله . الليل رغم رهبته ، مضىء . فالقمر واضح ومنير ، والنجوم فى عليائها أيضـا لامعات . الجو صاف خلا من كل تلوث وعوادم . وفى ضوء القمر تشكلت الموجودات . شعرت أمينة أنهـا تحيا فى أحضان « طبيعة انسية » تحولت الصـخور من بعيد الى « هيئات آدمية » تحرك شتى الخيالات فى نفسها المرهفة .

اختلطت خواطرها بهدير محرك السيارة يبطىء وهى تدخـل نفق الشهيد أحمد حمدى ليعبر بها تحت قناة السويس ، كأنه عنق رحم يجتازه الوليد من بطن أمه الى دنيا الاحياء . سيناء أرض النور الان خلفها . من هناك تحرك ركب الحضارات يوما .

نكست رأسها ، ومسحت من على خدها دمعة . لاحظ العقيد مرجان ذلك . كانت هذه أول مرة تفقد فيها زمامها منذ أن بدأت الرحلة . لم يقطع عليها عواطفها بأى مجاملات معادة . تركها لنفسـها ولبيدائها .

تغيرت بداخلها أشياء . صعب أن ترفس مناخس . احست بأن زوجها فعلا ما عاد له وجود بشرى . ربما تحلل وانمحى . صار ريحا ، أو رملا ، أو صخرة أو شعاع نور ، أو سحابة ، ولكنهـا احست برودة الوجود من حولها .

لاذت بغرفتها . أخرجت من الدولاب اغطية ثقيلة . وضعتها على السرير ، ودست نفسها تحتها طلبا لدفء مفتقد ، ودرءا لرعشة استبدت بأطرافها . أغمضت عينيها كى تهدأ . سارعت باضـاءة النور طردا لعنقاء انتزعتها بمخالبها وأجلستها على جناحيهـا المبسوطين طائرة بها .

سمعت دقا على الباب . نهضت تفتح . لا أحد . حواسـها مرهفة . هى بحاجة الى اغفاءة ، والنعاس لا يطرق جفنيها الليلة . ماجد سوف يتأخر فى المستشفى ستبقى وحيدة مع هواجسـها

الخرساء . أمواج من رمال سرت في عروقها . ومضى وعيها يغوص في تيه العزلة .

تحاملت على نفسها . يجب أن تقاوم ، نهضت . تناولت كتابا لماهر جلال . كثيرا ما تلقت من صفحاته العزاء . كان كتابه المترجم « المختارات » راحت الكلمات تتراقص أمام عينيها ، ولا تثبت على سطورها . وبعد عناء التقت بالكلمات التى شدت انتباهها ، وأدخلت على قلبها السكينة .

« محظوظون هم الموتى ، ينسون مرارة الحياة . فلا تبكوا عليهم مهما استبدت بكم الاحزان .

لا تبكوا عليهم عندما تغرب الشمس ، وتنبسط على الارض ظلال المساء .

تكون الارواح عطشى ساعة المساء ، وتذهب الى نبع النسيان ، فاذا انسكبت من أحبائهم دمعة ، تلطخ ماء النبع بالاوحال . واذا شربوا ماء عكرا ، عاودتهم الذكرى ، واستيقظت بداخلهم الاوجاع .

واذا لم تستطع فى المساء أن تغالب البكاء ، فلتذرف عينــاك الدموع على الاحياء ، فهؤلاء يحاولون النسيان »

تقدمت بأمينة ساعات الليل وأوغلت . تنهدت . كسر حدة شجنها لمسة عزاء ، عزاء من ذلك النوع الذى يجلبه الفن الرفيع الى القلوب الكليمة . طوت الكتاب ، ودسته تحت وسادتها ، اطفأت النور ، ونامت حتى الصباح .

ـ ٤٨ ـ

طلبها فى التليفون . سالها فى توجس :

ــ فاكرانى ؟

ــ ياخبر !

ــ نسيتينى ؟

ــ وهل أقدر ؟

ــ تريدين أن أحدثك ؟

ببرود أجابت :

ــ تكلمنى اذا شئت . ولا تتكلم اذا شئت .

ــ هل تريدين أن أزورك ؟

ــ هذا شأنك وليس شأنى . انت حر .

مرة أخرى الحرية . الحرية فى غير موضعها ، الحرية الجوفاء . أحس بداخله شيئا يكسر .

قالت له « تعال متى شئت » لكنه اذا لم تشأ هى فهو لا يذهب. لم يمر عليها . عاد الى غرامه القديم يغرق فيه همومه . زار معرض محمد حسنين على

العيون واسعة نجلاء ، الوجوه نحيلة ممطوطة مثل أقنعة زنجية . ورغم الدموع المستترة التى تترقرق على الخدود الشاحبة فالشخصيات لا تستجدى ، ولا تطلب اشفاقا . انها ربما ـ وعلى الاخص ـ تعاتب وتدين ، ولكن فى صمت دائما . عالم سحرى طقسى ، يتأتى من الجو ونظرات المغناطيس التى تسلب بعضا من وعيك وانت تطيل النظر اليها ، فتتحول قسمات الحزن فى بعض اللحظات الى قسمات ساخرة مكيرة . على أنه عندما تمتد يد فتاة بزهرة الى فتاها يضىء فى هذا الظلام شعاع أمل .

خرج الى الشارع . وقد أحس أن جزءا من الثقل الذى رزح تحته قد انزاح عن قلبه . هل سيستطيع اذن بول ديلفو ان ينسى الهام ؟ هل سيقصيها من مخيلته يوما ، ولا يكاد يذكرها ؟

ـ ٤٩ ـ

ذلك المساء زارها فى بيتها .

لم يقاوم رغبة ملحة جاشت فى صدره للقائها . تذبذب وغالط وراوغ . وجد نفسه يدحض الحجج القديمة الوطيدة ، رغم شديد اقتناعه السابق بها ، ويستجيب لحجج جديدة . لهذه الذرائع الواهية كتبت الغلبة ، وانتهى تردده .

وجد سبابته تمتد ، وتضغط على الجرس . لم يفد اليه رنين الجرس القديم الذى ألفه ، بل سمع تغريدا مصطنعا من حنجرة بلبل آلى . بعث . هذا الصوت الجديد فى أعماقه احساسين متضاربين مختلطين معا : احساسا برجاء يبعث فيه من ناحية ، واحساسا بسخرية خفيفة من ناحية أخرى ، سرعان ما نفضها عن كاهله ، فهى لم تغلق بابها دونه ، بل تركت الخيار له .

« تعال ان شئت »

وها هو قد أتى .

كانت ترتدي ثوبا حريريا من قطعتين « جونلة زرقاء داكنة ، بكشكشة عند الخصر ، وبفتحة من الامام ، وبلوزة أرجوانية بياقة مرتفعة وأكمام طويلة فضفاضة . ويضم القطعتين عند الوسط بحزام عريض من جلد الثعبان .

تناثرت من حولها على الاريكة والارض والمنضدة كتالوجات بيوت الديكور الايطالية والفرنسية والامريكية ، وعينات من ورق الحائط ، والموكيت ، والسيراميك ، وقماش التنجيد والستائر . كانت تفحص هذه العينات وتدقق وتختار .

قالت له ضاحكة :

ـ الاغلى هو الافضل على الدوام .

أشارت بيدها الى أرجاء البيت وقالت :

ـ سادهن الشقة كلها بالزيت ، واكسو الحوائط بالورق المستورد من أغلى الاصناف . سأهدم بعض الحوائط الفاصلة بين الحجرات ، حتى تتاح لي الرحابة والاتساع . اكاد أختنق في هذا الحجر العتيق ، وبين هذا الاثاث القديم .

جال ماجد ببصره من حوله . كانت حجرة المرحوم شفيق قد اخليت من اثاثها لابد أن ابنته المرفهة قد استغنت عن حاجياته أول ما استغنت . القت بها خارجا ، ولابد انها قد آلت الان الى مخزن أحد تجار الاثاث القديم ، وانزوت مثل ذكرى صاحبها في ركن معتم مترب رطيب ، حيث تعاني الاهمال والنسيان وسوء المعاملة .

فهمت الهام ما دار بخلده . وقالت متأففة :

ـ ما عاد البيت يتسع لهذه الكراكيب . ارم . ارم . ارم . هذه سياستي احتفظت من متاعه بكرسي من القطيفة الحمراء فحسب . كان يجلس عليه المرحوم ، ويجلسني على ركبتيه ويحكي لي الحواديت . أليس في ذلك الكفاية ؟

تمتم الدكتور ماجد لنفسه متحسرا ساخرا « والله فيك الخير برضه يا الهام . »

مضت تقول :

ـ سأسافر الى الاردن لبعض العقود ، وعندما سأعود ..

ضحكت وأردفت تقول :

ـ سأتخلص أيضا من جماعتي القديم
تقلب ماجد على خرجه ، وسأل :
ـ ومنذا الذى سيدفع ؟
نفثت دخان سيجارتها الى السقف ، وأجابت :
ـ ليس المهم الفلوس . هناك ما هو أهم . من قال ان الفلوس تعنى شيئا ؟ هل تشتري السعادة بالفلوس ؟
لمعت عيناها ، وقالت بحزم :
ـ بل ليست حتى السعادة ما أبحث عنه ، انما أريد أن ارتاح .
قال لها ، وهو يثبت أنظاره فى عينيها :
ـ لعب رائع بالكلام .
أجابته بهدوء وتحد :
ـ بل هو حقيقة يضيق فهمها على الكثيرين . انت رجل طيب. هذا كل ما فى الامر .
غضب ، وقال :
ـ لا أسمح لك بأن تصفيني بأنى « طيب » . الطيبة نعمة لايحظى بها الا قليلون ، لكنها أصبحت فى قاموس من عميت قلوبهم من أمثالك تعادل الغباء .
ـ ألم أقل لك ؟ انى ذئبة !
ـ بل حرباء مسكينة !
تراجعت . وقالت له :
ـ لم يخب ظنى . شيء ما يدفعنى ألى ايذائك ، والى ايذاء نفسي .
خيم الصمت بينهما ، مثل هدنة بين جيشين متحاربين . ثم عاد فى هدوء يسأل :
ـ لست أدرى ، ماذا ترين فى كل ذلك ؟
قالت له بيقين :
ـ على الاقل رد اعتبارى . أصدقاء أثرياء لا يردون لى طلبا . وانا مبذرة أنفق بلا حساب . أزياء ، مجوهرات ، رحلات الى الخارج ، دعاية واعلانات . أتعرف كم من سيناريوهات الافلام معروضة على ؟

لى ان انتقى من بينها واختار ما أشاء . المنتجون تحت أمرى ، وانا امارس عليهم دلالى .

ربط ماجد بين لوحة أجيه وبين الهام . رآها مثل القديسة الفانية رافلة فى أفخر الثياب ، محاطة بأنفس الرياش ، تضوع بالعطور ، وتزهو بالحلى والجواهر .

قرر أن يتحرش بها ، حتى يكشف اوراقها . سألها :

ـ أهو رامز الذى وراء كل هذا ؟

استشاطت غضبا ، ولكنها عادت تتمالك أعصابها ، وتتحكم فى لسانها . فما عادت تلك الطفلة الغريرة التى تقذف بالكلام صريحا وساخنا فى وجه كل من لا يروق لها . أضحت الان امرأة ناضجة ، حنكتها التجارب ، تعرف كيف تراوغ وتساوم وتزن من أمامها بميزان سوق المال والتجارة . أضحى ماجد الان بكل ما قراه وتزود به من علم وثقافة أضأل حجما منها ، واخف ثقلا . واذا كان هو لا يعترف الا بالعلاقات الابدية بين الرجل والمراة ، فهى لا تعترف الا بالعلاقات المؤقتة . هى غانية يتهافت المعجبون عليها ، وهو مجرد رجل مثقف ، عقله عمران وجيبه مفلس . وما عادت بحاجة اليه ، بل على العكس أضحى وجوده فى حياتها معوقا لها ، ضارا بمصالحها.

قالت له بهدوء :

ـ انا لا اتلقى الاوامر من أحد . انا سيدة نفسى . اما عن رامز وكاميليا والاخرين فهم شلتى . أعرفهم قبل أن اعرفك . ولا أستطيع أن انفصل عنهم

كانت أعصابه متوترة منذ البداية . وما عاد الان بقادر على ضبطها ، وقد أضحى على حافة الهاوية ، ولا احد يمد اليه يده ليحول دون سقوطه . فصرخ فيها قائلا :

ـ انى أدعك اذن لشلتك القذرة ؟

ونهض لينصرف .

مدت يدها اليه ، وامسكت بيده . وقالت بمنتهى الحنان والحصافة والرقة :

ـ لا اريدك أن تنصرف من عندى غاضبا . صدقنى انت الرجل الوحيد الذى أردت أن أكون له زوجة . وقد بذلت فى سبيل ذلك قصارى جهدى ، لكننى حقا لا أصلح لك .

لم يقو على سحب يده من يدها . نكسا رأسيهما ، وظلا صامتين برهة . أنه لا يستطيع أن يبكى ، ولكنه بالتأكيد يتعذب . ثم عادت تشد قامتها . وقالت له :

ــ الحرام ، الحلال ، كلمتان نرددهما كثيرا . ثم اذا بنا نصدقهما . اسمع منى ياحبيبى ــ وانت حبيبى فعلا ــ لا شيء اسمه حلال أو حرام . افعل ما بدا لك أن تفعله ، ولا تفكر فى تقييم افعالك أبدا .

دق جرس الباب .

سحب يده من راحتها سريعا ، كما لو كانت لدغة عقرب .

ابتسمت له وقالت :

ــ على كل حال ، سأظل رهن اشارتك فى كل ما تطلب .

استأذنت منه . وغابت تفتح الباب . سمع من آخر الردهة صوت رامز يقول « تأخرنا عليك ، ياحبيبتى » ومع وقع الخطوات المقتربة وكان صوت رجل آخر يقول « الذنب ذنبى أنا » وعاد رامز يقول « فهيم بك أصر ألا يحضر الا ومعه الخاتم السوليتير الذى كان قد وعدك به » .

دخلت الهام ، ومعها رامز وضيفهما الثرى ، غرفة الجلوس . عندما وقعت أنظار رامز على ماجد لم تطرف له عين . التفت الى الهام ، وقال بمنتهى البرود :

ــ آه ، أرى عندك ضيوفا .

ثم تقدم الى ماجد ، ومد يده مصافحا :

ــ لم نرك منذ دهر يادكتور .

شعر ماجد بحرج شديد ، وتردد كثيرا قبل أن يضطر أن يمد اليه يده ، يرد التحية ..

قام رامز بمهمة التعارف الشكلية بين الضيفين . فهيم النادى صاحب شركة « صحراء » للانتاج السينمائى . قصير القوام ، مدكوك الجسم ، ثلجى الشعر ، شاحب مجعد الوجه ، حاجباه عريضان ، وعيناه تدوران فى محجريهما ذكاء ولهفة على ملذات الحياة ، كما لو كان قد نزل توا من لوحة لرسام علب الليل الفرنسى تولوز لوتريك .

اشار رامز لالهام وقال :

ـ اعدى لنا كأسين وشيئا نأكله .
القى رامز وفهيم النادى بجسميهما على الاريكة . أما ماجد فظل واقفا فى مكانه فجذبته من ذراعه برفق . وقالت للاخرين :
ـ بعد اذنكما سآخذ الدكتور معى ، كى نكمل ما كنا قد بدأناه من حديث قبل حضوركما .
سارت معه الهام الى باب الشقة . وهناك قالت له :
ـ تذكر ماقلته لك .
أجابها ماجد بحسرة قائلا :
ـ وددت ألا أكون سمعته قط .
قالت الهام :
ـ هكذا أنتم يامعشر المثاليين . تســـمعون ما يروق لكم ، وتعرضون عن سماع كل ما هو واقعى .
بعد قليل ، عادت الهام الى غرفة الجلوس نشيطة متفتحة ، تحمل صينية فضية كبيرة عليها زجاجة وثلاثة أقداح واناء معدنى لامع لقطع الثلج . وضعت الصينية على منضدة صغيرة واطئة بجوار الرجلين . ثم مضت تختفى فى المطبخ لتعود بعد هنيهة حاملة بعض الاطباق من المأكولات الخفية وضعتها الى جوار الصينية .
هتف بها رامز قائلا :
ـ تعالى ، ياقطتى المطيعة ، اجلسى معنا .
افسح لها فهيم النادى مكانا على الاريكة بجانبه . أشار اليه رامز وقال :
ـ وافق حضرة المنتج على زيادة المشاهد العارية فى فيلمك الجديد « المتع المحرمة »
قالت الهام وهى تقضم شريحة من الخيار بأسنانها اللؤلؤية ، وتنظر الى الضيف نظرة اغراء :
ـ لم لا ، مادام ذلك يفتح الشهية ؟
رفع المنتج قدحه وقال :
ـ فى صحة الايرادات !
قالت الهام :
ـ لابد من لفت الانظار الى الفيلم من الان .
قال رامز :
ـ سنشن دعاية ساخنة . سأكلف كاميليا برسم الاعلان .

ما رأيكما فى رسم لامرأة مسجاة على السرير ننتظر ؟
قال فهيم النادى :
ـ عليك انت يارامز أن تمرر التعديلات فى السـيناريو من الرقابة .
أجاب :
ـ ليس هذا بالامر الصعب .
رفعت الهام قدحا نحوه ، وقالت :
ـ ليس ثمة يا رامز ما هو صعب عليك بحال .
مد ذراعه ربت على خدها ملاطفا ، وقال :
ـ وهل ستكون المرأة بالانتظار ؟
ضحكوا جميعا .

الفصل الخامس

زهرة النسيان

- ٥٠ -

كانت فرحة ماجد كبيرة عندما طلب منه ماهر يد أمينة . تابع منذ وقت ليس بالطويل خطواتها نحو التقارب ، وحدثته نفسه بأن ثمة ما هو نبيل ووطيد يغزل خيوطه حولهما ويربط مصسائرهما برباط حريرى مقدس . ولكنه كان على الدوام يخشى أن تنكص أمينة على أعقابها ، فقد كانت خيوط كثيرة فى كيانها تشدها الى الماضى ، وتحرم عليها الاستمتاع بالحياة على هدى من نداءات ضمير مرهف ، يكبلها بواجب لم تكن ملزمة به حقا وفعلا . كانت تستعذب الالم ، كما لو كانت تشارك بذلك فى مصاب تتحمل نصيبها منه .

ليلة زواج صديقه بأخته شعر ماجد بفرحة حقيقية تدخل قلبه ، وتستقر فيه لاول مرة . لم يكن من قبل يذوق طعما لغير القلق . أما الان وقد اطمأن الى سعادة أمينة بجوار ماهر جلال وفى كنفه ، فقد راح يقول لنفسه « حقا ان الدنيا كما تأخذ تعطى أيضا . » ويكفيه أن أمينة وجدت فى النهاية سعادتها . وقلل ذلك من عبء تعاسته ، فهو وأن لم ينل السعادة التى كان يرجوها مع الهام . الا انه لو خير بين نفسه وبين أمينة لفضل بالطبع أمينة ، وها هى توهب ما يعتبره ماجد أغلى بكثير مما حرم هو منه .

انصرف المدعون القلائل بعد الحفل العائلى الضيق الذى أقيم ببيت الدكتور ماجد ، وركب العروسان سيارة مزدانة بأشرطة حريرية ملونة أقلتهما الى شقة ماهر جلال بحلوان حيث بيت الزوجية .

جال ماجد ببصره فى أرجاء البيت الذى خلا من أخته أمينـة التى لم تفترق عن أخيها قط أحس بالبيت فسيحا خاويا موحشا . كجسد نزعت منه الروح ، فبدا مثل كهف أجوف . ارهف السمع فسمع سكون البيت ، لكن ماجدا ما لبث أن استرد توازنه ، وفكر بعقله . ان ماهر جلال أشد حاجة الى أمينة كزوجة ، مما يحتاجها هو كأخت . من ثم فحياتها مع زوجها اكتمال ، وحياتها معه هـو

نقصان . ومن حق أمينة أن تتحول حياتها من النقصان الى الاكتمال.
واذا انتفى من جواره أخته ، أصبح الوضع الجديد معززا لسفره ، فهو لن يترك وراءه احدا بالقاهرة ينشغل عليه ويقلق . واصبح النداء البعيد الذى يتردد فى أعماقه ، ويشده صوب النجوع والكفور فى الجنوب ، مستحوذا والان ، وفى كل أوان ، ماذا لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه ؟!

ـ ٥١ ـ

وقف ماجد أمام الواجهة الزجاجية لمحل بباب اللوق يبيع منتجات مزرعة بناحية الهرم . الفراريج الصغيرة تملأ الحيز داخل البيت الزجاجى . أحنت رءوسها وانكبت تبحث عن الحب المتناثر تحت السيقان . تلتقطه المناقير الصغيرة مصوصوة . يعج بأصواتها المكان الذى ليس على أى حال بأرحب من « دنيا البشر » على الاخص فى مدينة « الكبارى العلوية » هذه .

تجرى الكتاكيت . تتدافع بالمناكب . تدوس بعضها . تنهض التى وقعت تحت المخالب الدواسة . تخفق بجناحيها الصغيرين . تعاود الجرى والتخبط بين البطون وبين السيقان . وترتفع برهة لتزدرد الحبة المعثور عليها . ثم سريعا تحنى الرءوس من جديد متعبة بعيونها المستديرة ، غير هيابة للمخالب النابشة من حولها . تعاود البحث باهتمام . أمواج من الفراريج تعلو على بعضها ، وتهبط تحت بعضها . تقعد وتقوم فى حماسة وحمية .

الكل ارتضى قانون اللعبة ، منذ الخروج من البيضة . ولكن قانون اللعبة أيضا أن من دب المرض فى جسمه ، وخانته ساقاه ، فوقع ، يداس بالاقدام ، وتمزقه عشرات المخالب النابشة عن الطعام . وليقص الرجاء من القلوب فى أن أحدا سيفسح له المجال لمساودة الوقوف اذا كبا .

استغرق ماجد فى متابعة هذه المخلوقات الصفراء الصغيرة ، التى لا تختلف فى تصرفاتها عن البشر . بدرت منه التفاتة الى الرجل الذى جاء الى جواره ، ووقف يشاركه تأمل البيت الزجاجى . كان يرتدى عباءة سوداء ، وأحاطت بوجهه لحية جعداء كثيفة . نظر كل منهما الى الاخر . ثم أطلق ماجد صيحة قصيرة .

ـ غير معقول . الدكتور يوسف مراد ؟
ابتسم الآخر بمودة واجاب :
ـ هو بعينه ، زميلك فى دراسة الطب ، يادكتور ماجد .
ساوا جنبا الى جنب متجهين الى ميدان التحرير . سأله ماجد من اخباره . اجاب :

ـ ليس ثمة حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه . وقد تفتحت عيناى على هذه الحقيقة عقب تخرجى فى الكلية . والحق اقول لك . ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض ونمت فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت فانها تأتى بثمر كثير .

ـ ألم تشفق على نفسك ، وقد كنت الطالب المتفوق اثناء الدراسة ، عندما اخترت طريق المعاناة هذا ؟

ـ كنت من قبل كمن يسير متخبطا فى الظلام . اما الان فلى فى خدمة الانسان حياة .

ـ اصبح بعض من امثالك المتفوقين فى دراسة الطب يمتلكون العمارات والحسابات الكبيرة فى البنوك ، وينعمون بالحياة الرغدة .

ـ من يحب نفسه ، يادكتور ماجد ، يفقدها . ومن يبغض نفسه فى هذا العالم يحفظها للحياة الابدية .

ـ دعك من هذه المثاليات ، يا دكتور يوسف . اتذكر زميلنا الدكتور عجيب ؟ لقد صار يعلق فى عيادته بميدان التوفيقية لافتة كتب عليها « الكشف عشرون جنيها . ويمكن الدفع بالدولار » ارأيت ؟

ـ هؤلاء الذين حولك اغلبهم مزيفون . افضلهم يكتفون بالصلاح الظاهرى الذى يراه الناس . وما عاد بالامكان فى المدن الكبيرة التمييز بين الصالح والشرير .
سارا برهة صامتين . ثم اردف يوسف يقول :
ـ هم بخار يظهر قليلا ويضمحل .
توقفا عند مفرق الطريق امام مبنى الجامعة الامريكية . التفت يوسف الى ماجد . نظر اليه نظرة عميقة وقال :
ـ مبارك من اوفى الدين وسدد .
ارتبكت اعماق ماجد ، وقال :

ـ الا ترى أن الله تخلى عن العالم .؟
بابتسامة متسامحة ، أجاب يوسف قائلا :
ـ المهم الا يتخلى الانسان عن الله !
عندما أطلق الشرطى صفارته ، واضاء النور الاخضر ، عبرا الشارع الى الرصيف الاخر . اشار يوسف الى مبنى المجمع ، وقال لصديقه :
ـ سعدت جدا اذ التقيت اليوم بزميل قديم .. على الان أن أذهب لمقابلة بعض المسئولين لامدادنا بالبطاطين والامصال والمحاليل وألبان الاطفال نحن بحاجة الى الكثير من أجل رفع المعاناة .
ابتسم ماجد ، وقال له :
ـ لعلك لا تدرى أننى تخصصت فى طب الاطفال ، وانى على وشك ان أحصل على الدبلوم .
قال له يوسف :
ـ مرحى ، مرحى ، هذا اللقاء اذن لم يكن مجرد مصادفة .
ـ ان لله سبله التى قد تخفى على البشر .
ـ اذكر أيضا أن الغليان الذى كان بداخلك أيها الصديق ماجد . لو وجهته للعمل الاجتماعى لحققت الكثير .
ابتسم ماجد والتفت الى الدكتور يوسف قائلا :
ـ تقصد جمعية « أصدقاء المرضى » التى الفناها أيام الكلية ، وكنت زميلى فيها . كانت أياما باكرة .
ربت يوسف على لحيته السوداء وقال :
ـ أتذكر ماذا كان يقول لنا استاذنا العظيم الدكتور محمد كامل حسين ؟. « اذا ادلهمت من حولك الظلمات أضىء شمعة » .
أجاب ماجد مداعبا :
ـ علب الكبريت اليوم أعوادها لا تشتعل .
لمعت عينا الدكتور يوسف وقال :
ـ يكفى عود واحد كى تشعل نارا . نارا تضىء ولا تحرق .
قال ماجد :
ـ بل أريدها ان تحرق .
بعد برهة صمت قصيرة ، سأل يوسف :

ـ لماذا لا تنضم الينا هناك ؟ لا شأن لك بالسعداء . تعال معنا . ستشعر كم كانت همومك فى المدينة تافهة وحقيرة . ستعرف معنى الحرية التى يتشدقون بها ، بل ستعرف ما هو أبعد من الحرية . ستعرف ما وجدت الحرية من أجله .

ضغط يوسف على ذراع رفيقه . قرب شفتيه من أذنه . احس ماجد بأنفاس زميل دراسته تحرق جلده وأعماقه . قال هذا الاخير بصوت هادىء خافت نفاذ :

ـ ستعرف أن مصير الحرية الحقة هو الالتزام ، واى التزام اسمى وانبل من الالتزام بالانسان ؟!

بدا على الدكتور يوسف أنه نسى ميعاده فى بعض الدوائر الطبية الاجتماعية بالمجمع . ومضى يقول لماجد ، وقد لمعت عيناه :

ـ ستعرف ما لم تكن تعرف من قبل . وستحصل على ما كان ينقصك ، ستحصل على الوفاق مع الذات . ستعرف ربما لاول مرة أن قلق الحرية انما هو من أجل الاهتداء الى غاية تستأهل ان يرتبط بها الانسان . القلق لا يمكن أن يكون منهج حياة بل هو لحظة عابرة ، اما المنهج الصحيح فهو الارتباط بهدف . وبقدر انسانية هذا الهدف يتعاظم قدر الحرية ويزداد ثراؤها ، فهى تكون عندئذ قد تحولت من السلب وهو عدم ، الى الايجاب وهو عطاء .

وقف ماجد يتابع يوسف مراد وهو يشق طريقه الى المجمع ، وقبل أن يختفى عن العيان استدار ، ولوح لماجد ، الذى مضى بدوره مندسا بين الجموع يسير تائها يفكر فى لقائه العرضي ـ وما كان بعرض ـ بزميل دراسته الذى شق طريقه فى الصخر ، متعلقا بابتسامته الاسرة المهذبة ، وبعينيه ـ على الاخص عينيه ـ مثل فحمتين متقدتين فى ظلمة ليلة شتائية باردة . وأيا ما كان كلام يوسف مراد ، فقد نبه ماجدا الى أن للحب ألوانا وألوانا ، وهو ليس على الدوام مجرد حب امرأة ، بل قد يكون ذلك أدنى مراتب الحب ، واضيقها معنى ، وأبهتها لونا . انت تطبق يدك باعتزاز على ما بها . تعتقد أن فى راحتك جوهرة ، لكنك تفتح يدك مذعورا ذات لحظة ، وقد أحسست بلدغة . كنت اذن تمسك عقربا . أليس هذا ما حدث لك ؟ الق بالعقرب أرضا ، ودس عليه سيأتى اليوم الذى تنظر فيه الى الوراء وتقول « حمدا لله . انزاح عن كاهلى كل شهوة ، وكل هم .

تحررت واسترحت » اعتبر انك مت بالنسبة لهذا العالم . يجب أن تموت البذرة حتى تنبت الشجرة . يجب أن يموت الماضي حتى ينبت المستقبل . كن حريصا وحذرا . لا تتورط . لا تنفعل . لا تصدق . لا تثق . لا تقاوم الشر ، بل اهرب منه . الناس جوف . لا تنخدع . تجاهل . لا تشك . دافع عن نفسك فحسب . لا تأمل . امض فى طريقك . ابتعد . يجب أن تتعلم كيف تكره هؤلاء من حولك هشيم . هذه الحياة قد صنعت من مادة صلبة خشنة . تدق الاعناق اذا ما ارتطمت بها . لا أحد يرحم . يجب أن تبصر جيدا موطىء قدميك قبل أن تقفز . اشدد عودك . وارفع راسك . لا تبك . ولكن ايضا لا تخف . مما تخاف ؟ لا تخش الغيلان والمردة . لن تقابل غيلانا ولا مردة ما دمت لم تجلبها معك ، ولا تحملها بداخلك . اقتلع عن اعماقك كل ضعف وكل رجاء . اريدك أصلب عودا وأشد بأسا . فالخير من الاقوياء يأتى . من أولئك الذين لا تبهرهم الاضواء اللألاءة ، بل يحدقون فى الهاوية ، وعلى الرغم من ظلمتها يمضون اليها بقلوب راسخة . لقد ذرفت دموعك كلها . نضبت مآقيك . هذه هى بداية الطريق . اذا لم تعرف كيف تغفر ، فانك لا تعرف كيف تحب حبا كبيرا سامى المرتبة ، عميق المعنى . ابدأ بجراة . اجحد شهواتك من أجل حب ، ليس بحب جسد ، ولا مادة ، ولا ذات ، اسلم حياتك بكل ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، تسليما كليا ، بلا رجعة ، والى الابد . كرسها لخدمة الانسان . ابذل ذاتك الترابية النجسة ، ومشيئاتك الغبية ، ولا تطلب عن ذلك اجرا . يجب أن تقف على قدميك ، وتقول « انتهى الماضى . ما عدت اذكر شيئا منه » تجاهله لمجرد أنه ماض ، ولا ترسم صورة للمستقبل الا فى اطار العزلة . اغلق بابك ونوافذك ، واسدل الستار . ثم ابحث عن السلم الخلفى . تنزل عليه الى البئر العميقة الدفينة بداخلك . ومن هذه البئر ارو كل عطشان محروم من مخلوقات ربك جميعا .

— ٥٢ —

كمحاولة اخيرة ، بائسة ، كان قد وسط مشيرة صبرى كى تتحدث اليها . فخير من يفهم المراة امراة مثلها ، وحتى لو كان يعرف الا امل فقد ظل يتشبث كالغريق بأوهى قشة للنجاة . ضرب لها اجلا للقاء فى « لاباس » كى تطلعه على اخبار لقائها بالهام .

جاءت مشيرة . جلست . طلب لها ماجد فنجانا من القهوة ، وطلب لنفسه قدحا آخر . نكست مشيرة رأسها هنيهة ، وراحت تلعب اصابعها بحافة حقيبة يدها الجلدية الموضوعة على المنضدة . لم تكن تعرف من اين تبدأ . ثم بعد هنيهة قالت :

ــ أى لغز هذه المرأة . كيف يمكن أن تكون الى هذا الحـــد بريئة ومشبوهة ، ساذجة ومستهترة ، ملساء مثل القطيفة وجارحة مثل مخلب نسر ؟ هى فى الوقت ذاته بحر هائج الموج وشط ساج ، جحيم وجنة فيحاء معا . امرأة زئبقية حقا . وازاء محب عنيـــد مثلك ، استحال الامر من جانبك الى مطاردة ، الى اصرار على الامساك بما هو فالت . على الدوام لا ثوابت . كل شىء قابل لشتى التحولات.

احضر الساقى قدحى القهوة . رشفت مشيرة رشفة من قدحها واردفت تقول :

ــ قد تكون هذه الحالة مرضية . تقول انها ودت لو تزوجتك، لكنها خائفة . خائفة منك ، من الاخفاق . انت رجل جاد ، جهم على الدوام مهموم بما هو أبعد من صغائر كل يوم . وهى تعتبر الارتباط بك عذاب . سوف تعذبك وتعذبها ، ولا تريد لك أنت على الاخص ان تتعذب . انها تفكر فيك أكثر مما تفكر فى نفسها .

نظر اليها ماجد حائرا . قالت :

ــ الم تفهم بعد ماذا تخفى هذه الفتاة الغامضة ؟ انها عاجزة عن أن تحب ولكنها فى قرارة نفسها تحبك انت ، لو أمكنها أن تحب . تقول انك لو أردت الزواج فسوف تجد أفضل منها ، اما هى فتستطيع أن تجعل عشرات الرجال طوع بنانها ، وتغيرهم مثلما تغير جواربها . انك عندما تتركها تصرخ فى طلبك ، فاذا ما التفت بك تعمدت ايذاءك.

دارت فى عينى ماجد نظرات حائرة . وقال :

ــ يبدو كلامك متناقضا ، يامشيرة . ماذا تعنين ؟

قالت :

ــ انت لا تستطيع أن تجبرها على شىء . ولابد أن تعترف بأنه ليس من مصلحتك أن تتزوج ممن تكرهها الظروف على ذلك .

استردت مشيرة صبرى خيوط نفسها وقالت :

ــ تأكد انه ما من ظروف أقوى من ارادة الانسان الســـليم

المخلص . انه يستطيع الا يرضخ للظروف مهما كانت شرسة . قد تصيبه من جراء ذلك متاعب ، لكنه متى استقر عزمه فانه يستطيع الا يتركها تخرب مافيه من فضيلة . أما اذا تركها ولم يقاوم ، فاسمح لي أن أقول لك أنه لا يكون فاضلا . وما من نفع فى امرأة غير فاضلة .

غرقا كل منهما فى صمت ، قطعته مشيرة قائلة :

ـ حتى الهداية لا تكون جبرا ، والا كان تأثيرها واهيـــا ، سرعان ما يتبدد وتعود النفس الى سابق حالتها . وعندئذ تأكد من انها تعود الى ما هو أسوأ وأشد بشاعة ، وفجرا .

ـ الشمس لا تشرق احيانا .

هزت رأسها بحزم وقالت :

ـ هناك فجر جديد كل يوم .

ـ ٥٣ ـ

احس بحاجة الى زيارة صديقه العزيز ، وان ثمة واجبا يلح عليه بهذه الزيارة . وكما كان يذهب اليه فيما مضى فى مكتبه يجلس يستمع اليه ويتحادثان فى شأن شخص يهمهما أمره ، عليه الآن أن يذهب اليه فى مثواه الاخير ليحدثه فى شأن هذا الشخص ذاته . سيبث صديقه القديم شجونه ، ويجلس يصغى فى الصمت المخيم على مدينة الموتى الى الصوت الحبيب يفد الى قلبه من وراء القبر ، وليس هذا الحديث بحاجة الى شفاه تنبس بالكلمات أو آذان تلتقط هذه الكلمات . بل هو مناجاة يتواصل فيها روحان اليفان مهمـــا تفرقت بينهما السبل ، قريبان مهما نأت الشقة . هناك عند قبر المرحوم شفيق أحس ماجد بالحاجة الى أن يقف يدلق كثيرا مـــن همومه . سوف يطلب من صديقه الكبير النصح ، سوف يعتذر اليه عما بدر منه فى غيابه من أخطاء واخفاقات ، ويعتذر له عن عجزه عن مواصلة ما التزم به . فى حضرة الموت سيتعرى من كل كبرياء وغرور . وربما تناقشا . وفى النهاية ربما تعزى ، وتخفف من معاناة الضمير ، وأرق الحنث بالقسم .

بدافع الوفاء شد الرحال الى هناك . انها طقوس تحتمهـــا

الصداقة بين الرجال ، ومراسم يجب أن تؤدى كى تبرأ الذمة من التزام دونه كل التزام .

مضى الى « البساتين » ، أسوار القاهرة القديمة عن يمينه . الطريق يصعد ويهبط . مساحات فسيحة على الجانبين . رحابة تشعرك بالسماء كقبة لازوردية ، كفقاعة شفافة أثيرية تحيط بك . بالأعالى فوق راسك بعض الحداة مثل أسماك سوداء تسبح بعيدا فى الفضاء المترامى . ثم يضيق الطريق ويتعرج . تبدو على الصفين عمائر وحوائط ذات شبابيك وأبواب مقفلة . بالداخل تبين فى بعض الاحيان أحواش ، اذا حدث أن كانت بعض الابواب مفتوحة أو مواربة . ثم يصل ماجد الى المزار المنشود ، وجلا ، ملجم اللسان ، مستنفر الحواس .

لقد هزت الهام ثقته بنفسه ورجولته . لماذا رفضته ؟ أحس بعد أن ضاجعها تلك المضاجعة الخاطفة بالمستشفى أن به شيئا غير سوى . أحس بالمهانة . تمنى ان يعود فيجرب معها ، لكنها تصده الآن . الا انه لم يرق لها ؟ ما الذى جعلها تتحول ذلك التحول المفاجىء ، بعد أن كان كل شىء بينهما قد استوى ؟ وأصبح الى الزواج موصلا ؟ ألم تكن تقول له أنها تحس نفسها زوجة له ؟ ألم يكن هذا هو الشعور الذى أعطته له طوال اقامتها بالمستشفى ؟ ألم تكن تبحث عنه ، وتناديه ، وتتشبث به ؟ ألم يكن لها بالفعل رجلا وزوجا وحماية ؟ ألم يكن حصنها الحصين آنذاك ؟ ما الذى جعلها بعد تلك المضاجعة تتخلى عنه . بل وتطرده من جوارها ؟ انها رفضته من قبل ايضا . هذا صحيح ، لكن كل ذلك كان قد انتهى ، وحل محل الرفض رضاء به وتشبث . ألم تتعلق ذات يوم قريب برقبته ، وفى صدره دفنت وجهها ، والى كتفه أسندت رأسها ، وقالت له بصوت يقطر صدقا « نفسى ارتاح » ؟ ما الذى جعلها اذن تتغير بعد تلك الليلة ؟ أكان السبب نفسيا ، بتأثير الظرف الذى حدث فيه الالتقاء ؟ أكان المكان غير مناسب ، والوقت غير موات ، مما أحدث صدعا فى العلاقة وتمزقا ؟ أكان ثمة رهبة من شىء ، وربما كان هذا الشىء من الاعماق يبسط سطوته ؟ أكان ضميره ساهرا ، يحاكم ويدين ويؤنب على الخطأ المرتكب ، وسوف يحطم الجانى نفسه بنفسه ؟ هل سيسمح بذلك ؟ هل سيسمح لامرأة أن تدمره ؟ أحس

بالغثيان . فات الاوان . لقد دمر فعلا . صار حطاما . ما عاد يمضي رائق الخطى . في كل لحظة تراوده الشكوك ، ويتزلزل يقينه . السبب من جانبه اذن . العيب فيه هو اذن . هذا ما جعل الهام لا تريده منذ تلك الليلة ، وبخاصة ان له منافسا وغريما يتسقط منه الزلات . وها هي الزلة جاءت ، وبشكل دامغ وعلى غير انتظار . كلا ، انه على خير ما يرام كرجل . وهو يعرف علاجات كثيرة . لكن أمازال الأمر يحتمل علاجا ؟ لقد أقفل الباب على كل علاج . الضرر بداخله ، والتحطيم من داخله ، وهو لن يقاوم التدمير الذاتي . وليس لهذا الداء دواء . كيف ؟ ! كيف ليس ثمة دواء ؟ ! الدواء أن يطرد هذه الفكرة عن خاطره ، ويزيح عن نفسه الارهاق الذي يثقل كاهله . كيف ؟ كيف ؟ متى ؟ هل من خلاص ، يا صاحبي ، من هذه الغولة مصاصة الدماء ، ابنتك ؟

منكس الرأس مضى الهوينا بين أسوار وأضرحة وشجيرات صبار . لاحظ بعد هنيهة عن يمينه شخصا لابسا حلة بيضاء كالثلج . اخذته الحيرة والرعدة ، لكنه لم يكن خائفا . كان أليفا اليه ، كما لو كان يتقابل مع نفسه ، مع ذاته الاخرى .

من شدة الاجهاد وفرط المعاناة ، اتكأ الدكتور ماجد على شاهد القبر . وبعد هنيهة نفذ الصوت الحبيب الى صدره ، وسمعه يقول :

ـ الذي من الله يبقى ، والذي من الشيطان يزول .

رفع ماجد أنظاره الى السماء ، وكأنه يخاطب سحابة خفيفة تمشي على صفحة السماء الهوينا . قال متمتما :

ـ ما عدت أستطيع أن أزج بنفسي في حياتها أكثر من ذلك . سامحني .

ماذا يفعل كي يبرأ من ألمه ؟ كيف يسترد توازنه ؟ استند الى جذع شجرة نمت بين القبور . حلل مؤخرا وجد أن السكر لديه ارتفعت نسبته في الدم . انه السكر الانفعالي المفاجيء . ماذا يفعل ؟ هبت نسمة ، اهتزت لها على الاغصان الاوراق الخضراء الكالحة يقولون له « انس » ولكن هل باستطاعته أن ينسى بسهولة ؟ يقولون له « لماذا لا تتزوج غيرها ؟ » ستكون حائلا بينه وبين أية امرأة أخرى من

يبعدها . لو حاول أن يتلاشى مع غيرها سيصحبه طيفها ، فبعد أن يبتعد الجسد الحبيب تبقى ذكراه .

وفد الصوت الحبيب الذى الف ماجد من صاحبه المصارحة :

ـ لا يتعلق القلب بهذه الذكرى الا امدا .

بادر ماجد الى الرد على ذلك قائلا :

ـ وقد يرتبط به الى الابد .

ـ العلاج الامثل الذى فى الاحلال . وليكن هذا الاحلال عملا متواصلا .

سيحملها بداخله ، أينما ذهب ، وحيثما استقر .

ـ كنت تنصحنى بالبقاء بالقاهرة فيما مضى . لكننى الان سأبتعد . الى الصعيد قررت السفر .

ـ كن أكثر جدية ، ولا تجعل سفرك لمجرد الهرب .

ـ ظهر هناك وباء يقضى على الاطفال . سأنكب مع فريق من الباحثين فى بعض القرى على العثور على السبب ، علنى امسح الدموع من العيون ، ومن الاجساد الهزيلة انفض الالم .

سقطت من الشجرة ورقة صفراء الاطراف ذابلة . تمايلت فى الهواء مليا ثم بين التراب استقرت . انحنى ماجد ، والتقطها من الارض . امسك بها بين انامله . تحسس بشرتها الجافة ، ومد بها يده الى القبر ، وقال :

ـ انظر يا استاذ شفيق . هذه الدمعة التى سكبتها عند قدمى الشجرة ؟ عشرات الامهات هناك يذرفن الدموع ، وينادين .

وفد الصوت الحبيب يترنم بالاشعار :

ـ « الحمد لنعمته من أعطانا الا نختار رسم الاقدار .. »

اجل . هذا صحيح . واكمل ماجد البيت :

ـ « فلو اخترنا ، لاخترنا أخطاء اكبر ، وقتلنا انفسنا ندما » .

ـ كيف ستعيش فى شك لا ينقطع . اذا تأخرت خارج البيت أرقتك الظنون . واذا تحدثت فى التليفون ، او دقت جرسه فرفعت انت السماعة ، ولم تجد من يجيبك ، وخزتك الشكوك . سيتجه ذهنك على الدوام الى رامز ، فهو ليس بالذى يترك فريسته بسهولة ،

سيحوم حولها حتى ، وهى متزوجة منك . وليس من المتعذر أن يتسلل اليها ، فأنت رجل مشغول فى مستشفاك وعيادتك ، وبين مرضاك تقضى وقتا اطول مما تقضيه فى البيت . سيتوعك مزاجك ، وتضحى متواترا على الدوام ، وسينعكس ذلك على علاقتك بها . سينقلب الوجود الى جحيم . من كلمها ؟ من قابلها ؟ من نظر اليها ؟ وحتى لو اقسمت لك ألا شىء هناك ، فستتوجس من نبضة كذب تحت ركام الاقسام ، وسيأتى الوقت الذى ستقول لك فيه « ما عدت قادرة على المضى معك » وسترد عليها أنت قائلا « ولا انا اصبحت قادرا » ستصير حياتكما الى زوال ، أو تبقى حياة مهددة بلا استقرار .

خيم الصمت مليا . ثم أردف الصوت الخفى يقول :

ـ فكرت فى الامر مثلك . ولئن كانت الهام ابنتى ، فنحن هنا تجردنا من الخوف والانسانية ، أصبحنا نرى الامور بنظرة مجردة صافية . واقول لك ليس هذا بالجو الذى ينمو فيه الحب ويزهر . ثقتك بها الآن مردها أنك مشدود اليها ، وبأى ثمن تريدها ، لكن لو نلتها ، فلابد أن يعقب ذلك مرحلة الدوام والمواصلة وهو أمر مشكوك فى تحققه .

سمعت من القبر تنهيدة ، واردف الصوت يقول أسيفا :

ـ اذن ، ما الجدوى من العناد والمكابرة ؟

فى الصمت المحيط ، أحس ماجد بالخلاء من حوله فسيحا ، وبكيانه صار حبة رمل فى صحراء مترامية الاطراف . ضؤل شأنه حتى تجرد من كل كم ، وأضحى هبة ريح فى فضاء ، صار بلا جسد يمضه القلق ، يرقد على أجنحة ملائكة بيضاء تطير عاليا . شواهد القبور ظلالها على الارض ساكنة .

الحزن سهل ، فلا تترك نفسك له . انهض يا ملاكى المكلوم . انهض . عطشت عيناك الحالمتان للنور فى الظلمات .

يد تربت على كتفه .

انتشرت بداخله سكينة مثل تلك التى تنبسط على الحقول بعد سقوط المطر . سالت من مقلتيه دمعتان لذكرى الصديق .

سرت فى الهواء رعشة . الشمس زهرة تغرب من جديد . الناس

دن بعيد اشكال مبهمة . اى لغز ذلك السكون الذى ينبسط على الوجود . ومثلما يسمع لجرس فى هدوء ليلة صيف من رنين خافت وئيد وفد الصوت الحبيب .

ـ لا تنبش الجراح . ستهدأ الآلام . ولتكن جمرة متأججة بنار حمراء ، من أجل الذين فى النجـوع والكفـور ينتظرونك . لتـكن يا صاحبى صخرة يتكىء عليها المحيط .

ارتعد صوت ماجد ملتاعا :

ـ كيف المسك ، يا أيها الروح العزيز . جئت اليك ايها النور الضائع لتبدد ظلمتى .

وبصوت صلد قال الصوت :

ـ انى احلم من وعدك ايها الحبيب ، فالأسى الذى يمزق قلبك يجب الا يسمع له أنين .

كست الشمس الغاربة الوجود بظلال بنفسجية . وامتلأ المكان بهمهمات شديدة الخفوت ، لا تكاد تلحظها الاذان البليدة . انفاس النهار المختزنة تنفثها الارض من مسامها هدية لليل الزاحف ، تحية ترحيب رطيبة لأطياف سوف تحتشد غير مرئية فى هذا المكان ، تتخذ من القبور آرائك وتكايا ، تسمر فى ود . ترثى لحال الاحياء . وعلى الباحات والطرقات سوف ترتع فى لهوها الأثيرى غناء صامتا ، ورقصا ساكنا .

وقبل ان يغادر ماجد أسوار الجبانة ، اجتهد ليخفى الحزن الذى بداخله ، والذى لا يريد أن يبارح جوانحه . استدار يلقى على قبر الحبيب نظرة أخيرة . محياه الشاحب فى اعماقه اضاء . نسمات المساء طبعت على الجبين الاسمر المقطب قبلة ، ورحلت الى اعماقه صوتا حنونا مفعما بشجن نبيل ، ظل يرافقه طوال الطريق .

وبينما هو مستغرق فى التفكير . اقترب منه ، وراح يمشى معه . قال له :

ـ ما هذا الذى تفكر فيه ؟ الق نظرة على هذه القبور اذا شئت كى يهون حملك . مئات الجميلات وافاضل الرجال غدوا فتات عظام ورمادا . لم تحمهم حتى عواطف حبهم من المصير المكتوب للبشر أجمعين . ارم بصرك الى هذه القبور لتعرف قدر الهام وقدرك . هنا تنتهى اعمال الحب ، وتصاريف الزمن .

قال ماجد :

ـ كنت أرجو ان أفديها .

اجابه الوديع ذو الثياب البراقة :

ـ التصق بالواقع . تألم ولا تبك . واعطه من دمك مضمونا انسانيا .

ـ وددت ان اتخلص من الالم . ان اخلد الى سكينة لا يعكرها شيء .

وفد اليه الصوت الحبيب :

ـ الروح الواثقة المطمئنة لا تضارع . والانسان ما اعظمه حينما تكتمل انسانيته .

اقترب ماجد من المكان الذى كان قد ترك فيه سيارته . دعا الرفيق الى الركوب معه . تظاهر بأنه منطلق الى اتجاه آخر . عندما ابتعد انفتحت عينا ماجد وعرفه . صارت الدنيا من حوله مثل كلمات فى موال .

من عند مفرق الطـريق ، استدار اليه الملاك . كان منظـره كالبرق ، ولباسه أبيض كالثلج . وفد اليه صوته من بعيد يقول :

ـ ماجد ، ارع اولادى .

واختفى ..

ـ ٥٤ ـ

مساء الجمعة قرر ان يكون « اغنية وداع » ففى تمام السابعة من صباح الغد سيستقل القطار الى الصعيد ، حيث ذهب من قبل عباس « البوسطجى » وعن « كوم النحل » بأسيوط النائية قال « من ساعة ما حطيت رجلى فى البلد ما طقتهاش .. حسيت انى محبوس .. فين مصر وشوارعها وناسها ؟ فين الليل مليان نور وحركة ؟ لكن هنا تلاقى ايه ؟ شوية طين مكوم . وتوما يدق المغرب كل واحد ينام فى بيته . والعتمة ؟ ياباى على العتمة ، يا باى . طول الليل حمير تنهق وكلاب تعوى . » ولكن ماجد واثق انه مهما كانت الصعوبات فهو لن ينهار مثل عباس ، فهو على أى حال يسافر الى الصعيد فى ظروف أخرى افضل ، وله هدف ما كان لعباس مثله .

ذهب ماجد أول ما ذهب فى أمسية وداعه للقاهرة الى عشقه القديم ، توجه الى المركز الثقافى الفرنسى بالمنيرة حيث أقام كمال السراج معرضا لأعماله . وقد بنى هذا الفنان لوحاته على استخدام حرفا من الحروف التي يتألف منها اسمه ، وهو حرف « السين » واستطاع على مدى عدة سنوات أن يثبت فى وجدان جمهوره شخصية يظل يتابعها بألفة شديدة ، هى شخصية « س » ومثل أى شخصية لعبت أدوارا ممتازة فى ماضى حياتها آن الاوان على ما يبدو كى تفارقنا هذه الشخصية الحبيبة . لقد استنفدت ما لديها ولم يعد عندها ما تقوله . وها هى فى لوحات المعرض تكاد تطل علينا بتحية وداع ، وتتراجع حتى تصبح خلفيات أو تتداخل مع أشكال أخرى غير محددة تتعقبها وتسحقها . وأخيرا تدير لنا ظهورها مبتعدة الىغياهبالتبدد. وبحزن تابع الدكتور ماجد بقايا هذه الشخصية فى لوحات السراج . ولاحت له من ثناياها صورة انسان عزيز تتراجع بدورها . وتتوارى فى الكواليس . وكممثل كبير أخذ نجمه فى الافول نجد « سين » يقبل ادوارا صغيرة ، بل ومبتذلة ، حتى يصبح فى احدى اللوحات مجرد طرطور على رأس مهرج ذى شوارب طويلة .

خرج ماجد الى شارع القصر العينى . قابل ماهر جلال . اتفقت وجهتهما ذهبا الى مقهى « ريش » حضرا « ندوة نجيب محفوظ » فى تمام الثامنة انصرف الروائى الكبير ، وتفرق الادباء الشبان على المناضد التى أخذت تخلو من غيرهم .

جلس الدكتور ماجد مع جميل . حدثه عن روايته « أصيلة » التى كتبها بالمغرب حيث اشتغل بالتدريس فترة ، ويرفض الناشرون نشرها لخشونتها وعميق صدقها .

قال جميل :

ـ ليس لدى الصلاحية الروحية لعمل المعجزات . لذلك فضلت أن الغى كل تفكير ميتافيزيقى ، وأن أطرح كل حكم قيمى أو مثالى . وانى ادعوك الى أن تحذو حذوى يا دكتور ماجد . اعتد بالواقع فحسب ، وبالوضع الظاهر فحسب ، فقط لا تنخدع .

فتح حقيبته الجلدية المتهرئة ، ودس اصابعه ينقب بداخلها .

اخرج مخطوطة مكتوبة على الآلة الكاتبة . دفع بها الى ماجد ، واردف قائلا :

ــ هاك نسخة ، سوف ترى كيف أن بطل روايتى غير قادر على الاتيان بحلول رغم انه مهموم بالواقع من حوله . ولكن أى حلول سوف يكون لها جدوى ؟

انضم الى منضدة ماجد بعد ذلك آخرون .

قال الطاهر بلهجته العصبية التى لا تعرف المهادنة .

ــ ورثنا تركة ضخمة من ظلم وقهر ، فادحين للملايين الذين يشقون من مطلع الشمس الى مغربها .

قال مبروك :

ــ ومع ذلك نسمع غن اصحاب الملايين الجدد !

قال جميل مؤكدا :

ــ التطلع المحموم الى الثراء الفاحش السريع اضحى شيمة الكثيرين .

قال ابراهيم بلهجته الساخرة :

ــ عينت وزارة التموين مفتشين من خريجى كليات التجارة الشبان لتشديد الرقابة على الجزارين بالاحياء الشعبية . أتعرفون ماذا حدث ؟ تزوج المفتشون من بنات المعلمين أصحاب محلات الجزارة ، بل وحتى المتزوجين من أولئك الشبان تزوجوا مرة ثانية . لا مفر . المال والسلطة ، يا اخوانى يتلاقيان .

قال ماهر جلال بنزعته التبريرية معلقا :

ــ اننا نعيش عصرا يعاد فيه ترتيب القيم . وصارت محظورات الماضى فى طريقها الى الاندثار . وأضحى الناس يتحدثون بطريقة ويتصرفون بأخرى . يؤمنون بالمسلمات القديمة ، لكنهم عملا يطبقون المفاهيم الجديدة . وبعبارة ادق فانهم يختارون ما هو مناسب لهم .

قال ماجد :

ــ ولكن يجب الا ننسى ، هناك على الدوام ما هو أبعد من الخير والشر ، من الثراء والفقر .

سأل جميل :

ــ وما هذا الذى هو أبعد من هذا وذاك ؟

قال ماجد :

ــ لا أعرف . ولا يستطيع أحد أن يعرف ، ولكنه على أى حال شىء هنا . أشار الى صدره .

ــ فى القلب ! بل وفى أعمق أعماق القلب !

نهض جميل ويحيى وابراهيم واستأذنوا فى الانصراف . وتمنوا لماجد فى موقعه الجديد حظا طيبا .

جاء برهام وجلس الى منضدة ماجد . صفق ماهر جلال يطلب له مشروبا . التفت ماجد الى برهام ، واستفسر منه عن أحواله مع كاميليا . اجابه برهام بكلمات غامضة قال :

ــ عندما ينهمر المطر تذوب أجنحة الملائكة .

تصفح ماهر جلال صحيفة المساء ، وقال :

ــ أحسن القضاء اذ حكم فى قضية « بيت الغواية » ان الرقابة على المصنفات الفنية لاحظت بعد الترخيص بعرض الفيلم استياء الجمهور لما احتوى من مشاهد فاضحة وعبارات ساقطة ، الامر الذى جعل منهما معولا لهدم القيم الاصيلة فى المجتمع .

قال برهام :

ــ جاء هذا الحكم ضربة لمنتج الفيلم ، لكنه جاء على الاخص ضربة لرامز الذى سهل استصدار الترخيص ، ولزوجته الهام بطلة الفيلم .

بوغت ماجد وقال غير مصدق :

ــ كيف تقول ان الهام زوجة لرامز ؟!

ابتسم برهام وقال :

ــ ان رامز لا يرضى بها ، لانه رجل شره ، يضع المال نصب عينيه على الدوام ، وهو يتطلع الى الزواج من ابنة ثرى أو صاحب نفوذ يسنده فى مشاريعه الطموح ، أما الهام فهى فى قبضته من الان يشدد عليها هو وأخته الحصار ، ولا تستطيع أن تفلت منهما ، فهناك عقد زواج عرفى بينها وبين رامز . ألم تلاحظ يا دكتور ماجد انها

لا تقبل ان يخدش احد اسم رامز أمامها . هى على الدوام كانت تريده زوجا لها . وهو يريد استغلالها . أحالَ شفتها الى وكر للعب القمار .
بدا الاكتئاب على قسمات ماجد . أطرق ولم ينبس بشىء .
قال برهام :
ـ تماسك . انها تضحك ملء شدقيها عندما تسمع أن ثمة من يتعذب من أجلها . وكانت على الدوام فى غيبتك تقول عنك انك لا تصلح لها ، فأنت على علاقة غرام قديمة باحدى الممرضات .
فوجىء ماجد ، وانقبض قلبه :
ـ سكينة ؟!
ـ تقول انها مجروحة ، وما كانت تحتملْ منك الاخفاء .
ـ وهل تخشى من ذكرى ميتة ؟
سرح ببصره بعيداً .
ـ لو كان فى الدنيا عشر نساء مثل سكينة لما بدت الدنيا بهذه الكآبة .
صعدت الى حلقة غصة . خنقها :
ـ اتعرف كيف ماتت ؟
هز برهام كتفيه بغير اكتراث .
ـ الحمقاوات لا تعنيهن مثل هذه الامور .
تنهد ماجد وقال :
ـ كانت ممرضة بقسم الجذام . من فرط تفانينها فى خدمة المرضى ، علق بها المرض ، حتى قتلها فى ريعان الشباب .
ذكرى بعيدة من بواكير شبابه . مضيئة فى ليل الحياة الجهم . لماذا لا هم لهذه المرأة ، الهام ، الا أن تطفىء كل الشموع ، وتهوى الظلام ؟
قال برهام :
ـ تقول انها كان يمكن أن تحبك ، لكنك كذبت عليها وهى لا تحتمل أن يخدعها أحد .
قال ماهر جلال معلقا :

ـ حبيبك يلحس لك الزلط ، وعدوك يتسقط لك الغلط .
قال برهام :
ـ تقول عنك انك رمرام لا تنفعها .
نهض ، وهم بالانصراف قائلا :
ـ أتعرف ما الفرق بينك وبين رامز ؟ أنت تنظر الى من هن ادنى منك ، وهو يتطلع الى من هن أعلى منه .
قال ماهر لماجد وهو يتابع خطوات برهام يبتعد :
ـ لا تعر هذا التافه اهتماما .
غرق ماجد فى صمت ثقيل .
افاقه ماهر جلال بصوت حازم :

ـ فات الاوان ، يا ماجد . لا تصدق ، ولا تثق . لملم أشلاءك وامض بلا رغبة ولا أمل . فالرغبة على الدوام اخفاق ، والامل فى النهاية عذاب ، وانت لقيت ما يكفيك . فكرت ، وأملت ، واشتقت ، ولم يأت مسعاك بنتيجة . كفاك انخداعا . . فلن تلقى منها الا جرعات جديدة من الالم . كفاك .

ـ ٥٥ ـ

جاءت أمينة لتقضى مع أخيها الليلة قبل الرحيل . اعدت له حقيبة ملابسه ، اعتنت الا ينقصه شىء منها لمدة ثلاثة أشهر فلا يحتاج الى الشراء حتى يستقر به المقام هناك فى البلد الجديد ويفرغ من المشاكل الاولية لتغيير محل الاقامة . كان باديا على أمينة السكينة وهدوء البال ، لم تجد مشقة فى الانتقال الى حياتها الجديدة . على أن ماجدا الذى كان يعرف اخته جيدا ، كان يلمس فى قرارة ضحكتها رنة حزن قديمة ، لا تستطيع اى سعادة جديدة أن تمحوها ، نبرة أسى خافتة ؛ شوائب ذكرى قديمة تبددت ، وان كان مازال راسبا منها فى قاع الكأس قدر ولو ضئيل .
تجاوز الليل منتصفه . اطفأ ماجد مصباحه . وهجع الى فراشه .
رأى فى منامه حمامة سوداء ملوثة وملطخة بالقذارة ظلت تطير

فى الغرفة من حوله ، وبصعوبة كان يطيق نتانتها ووسخها . ظلت هكذا بالقرب منه . تحوم حول فراشه . ثم اختفت ، لتعود بعد قليل فى وسخها كله . أخذت مرة أخرى تطير حوله . لكنه مد يده وامسكها ثم غطسها فى صدره الذى استحال فى الحلم الى جرن مياه . حينئذ تركت كل القذارة التى كانت ملتصقة بها فى المياه وخرجت من صدره بيضاء كالثلج . ثم طارت الى فوق ، حملها الهواء خفيفة ، واختفت عن أنظاره فى الفضاء .

على الدوام ينتاب ماهر جلال فى محطات القطارات لهفة الى عدم البقاء ، فقد عانى فى صباه من أسفار ، كانت كل مرة تكبل قلبه بالاحزان . وعندما تخرج فى الكلية واشتغل ، بدات حياته العملية بأسفار عانى أيضا من مشاقها أبلغ معاناة ، وكانت البدايات الاولى لتكون القرحة فى معدته . لذلك فقد أوصل اليوم ماجدا الى « مجرى » الوجه القبلى على الرصيف القصى من المحطة واطمأن الى جلوسه فى مقعده الجلدى الى جوار النافذة . ثم استأذن منه فى الانصراف .

تبادل ثلاثتهم قبلات الوداع ، وشد ماجد على يد صديقه ، وقال ملتفتا الى أمينة التى اغرورقت عيناها بالدموع ، فقد كانت هذه أول مرة يفترق فيها الاخوان :

ــ اوصيك خيرا ، بأغلى انسان .

اجابه ماهر مبتسما مطمئنا :

ــ هى فى عينى على الدوام .

تابعهما ماجد ، وهما يشقان طريقهما وسط الجموع التى يزدحم بها فناء المحطة وأرصفة القطارات ، عائدين الى بيتهما . وقال لنفسه :

ــ صبرت أمينة طويلا ، وما كان يجدر بها الانتظار اكثر من ذلك .

*

اشترى الجرائد . جلس فى مقعد ، بالقطار يتصفحها . على غلاف مجلة « الكواكب » صورة لالهام من رسم كاميليا . وبأسفل الغلاف كتب بالخط الاحمر « اقرا بالعدد : النجمة الصاعدة الهام فى

دور جديد » وعلى صفحة الفن بالمجلة تقول الهام لمحرر الكواكب « الفن هو اكتشاف الشهوة المكبوتة التى تفضحها العيون ! »

جاءت تحمل حقيبة سفرها . رفعت ذراعها بصعوبة كى تضعها على الرف . أدارت نظرها تبحث لها عن مكان . نهض ماجد . أخذها منها . زحزح حقائب أخرى ، منها حقيبته ، وافسح لحقيبة المسافرة الشابة مكانا . قرأ اسمها على بطاقة مربوطة بيد الحقيبة الجلدية الانيقة « الدكتورة ياسمين عرفان » .

شكرته ، فأجابها :

ــ عفوا ، يا دكتورة .

اختلجت أهدابها الطويلة برهة ، وابتسمت له فى حياء ، وباعجاب لسرعة ملاحظته .

جلست فى المقعد المجاور له .

دق ناقوس المحطة .

تحرك القطار .

سرح ماجد ببصره من الشباك .

ستة أجنحة قوية رفرفت فى السكون غير مرئية . اكانت فى الفضاء أم فى أعماقه الدفينة ، ترفرف بأغنية هزيمة وزغرودة خلاص؟ على الحقول المترامية انبسطت شابورة كغمامة نعاس رقيقة فى أعقاب عشاء روحى ، مضت تتبدد بدفء النهار الذى يخطو مع قرص الشمس الصاعدة من الشرق عبر سماء مسالمة ، مثل لوحة فسيحة تنتظر أنامل فنان فرعونى ليخط عليها من خياله رسوما ، وبحبر خفى يسطر فى الفضاء صرخة بلا أمل .

دوت عجلات القطار يقطع المسافات ، يشق الحقول والقفار عبر الشريط الاخضر الذى تتاخمه الصحراء ، عن بعد تارة ، وتارة أخرى تقترب ، تصاعدت مع الدوى المعدنى الرتيب كلمات الزميل القديم الذى دخل نجوعا لم يدخلها من قبله طبيب « اى ارتباط بامرأة أكثر من المعتاد مراهقة عاطفية » لاح له من النافذة ، ابتسم ، وقال لنفسه « كان ذلك فى أزمان أخرى ، أما فى زماننا فالمعجزات

لا تحدث مهما تقنا الى حدوثها . عهود مضت ، قيم قديمة داست عليها اقدام خشنة بالاوحال ملطخة .

مثل قلب كبير يتمزق ، اندفع قطار من الاتجاه المقـــابل . أستمر لديه الاحساس دفينا شجينا بأنه ما كان يستحقها وان القدر استكثرها عليه « الشيطان جميل أيضا ، فهل تظل متعلقا به ؟ أم تنفضه عن كاهلك ، تلقى به أرضا ، وبقدمك تدوسه ؟ » الجســـد ناعم لون مثل حية رقطاء تجوس فى الحقول الســـاجية ، تزحف صاعدة جذوع الشجر ، الى أعشاش الطير الامنة بين الافصــــان المورقة . ومن بعيد ساقية ربطت اليها جاموسة معصوبة العينين ، تدور وتدور ، تروى العطش ، ويتعالى الانين . جناز يمضى بين الحقول الى التل المكسو بشواهد قبور دهنت بالجير الابيض ، وعلقت بها شوائب صفراء . الجسد الناعم القه ارضا واسحقه . الحرير الاملس مزقه اربا اربا . انعم الان بملمس الخيش والحســــك والحصير . من أعماقه لهفة ها انا ذا قادم اليك . لمعت عن يســاره صفحة النيل عاكسة من القرص الساطع أضواء . عروس ضبابية تنزل الى اللجة ، تغوص شامخة الراس ، متعلقة انظارها بالشـــكل الدائرى واهب الحياة للالوان .

أخرجت ياسمين من حقيبتها كتابا صغيرا ، ثم نظارة أنيقة ذات اطار معدنى تناسق مع لون بشرتها الابيض ، وشعرها الاميل الى الكستناء . وراحت تقرأ . .

أشجار السنط والكافور والجزورينا وأم الشعور والحنـــاء والجميز والتوت والبوص والصفصاف والنخيل ــ بل على الاخص النخيل ــ تصطف فى الحقول المترامية الممتدة على مرمى البصر ، فرادى وجماعات . مخلوقات شامخة ، تمتد جذورها فى تربة خيرة ، ولا تخشى خيانة ولا غدرا . تفىء بالظل وتنفث الاريج تحت مرآة صريحة الزرقة . تطوف بأديمها ذكريات كأصداء فى الســــــكون خفيفة ، تموت مع موت الاشياء وتبعث معها .

التفتت اليه . سألته بأدب عما اذا كان يضايقه لو أســـدل الستائر المعدنية حتى يخفت الضوء الوافد من الشباك .

استجاب لها بكل ارتياح .

عندما عاود الجلوس ، راح يحاول أن يتحقق من عنوان الكتاب الذى تقرأه . لم يقاوم فضوله ، رغم كل الاكتئاب الذى تغشاه .
« أحلام الفارس القديم »
سرح ماجد ببصره من الشباك .
جواد عند الافق يطارد فرسا . استحالت الفرس شـجرة ليمون . ما عاد الجواد يرى الفرس . بحث عنها حوله . ثم استدار واختفى . اشتدت زرقة البحر ، وازدادت عمقا ، فابتلعت شجرة الليمون . زحفت العتمة ، وخيمت مملكة الظلال . الهام موثقة اليدين معلقة بين السحب عارية ، تتدلى رأسها الى أسفل ، وجدائلهـا تتطاير يمينا ويسارا مع الريح . جاحظة العينين ، مبهورة الانفاس وضاحكة . رغم كل شىء ضاحكة ، تلقى بشفيق الصفير من قبة السماء ، فيهوى الى الارض . انشقت حيث ارتطم وظهر بركان .
لاحظت فضوله . ابتسمت له . سألها . عرف منها أشـياء راقته . وتذكر دعاء أخته الدائب له . فى حقيبتها روايات وقصص للراوى والخضرى ومحسن يونس وغيرهم من كتاب الاقاليم الذين يجاهدون لاثبات وجودهم بصبر ويقين .

قال لها :
ـ هم الاعلى الان .
التفتت اليه ، وقالت :
ـ عدم وجود نقاد فى حد ذاته مشكلة ، ولكن المحنة الكبرى ان يوجد نقاد عمى البصائر مطموسو الحواس .
لمعت عيناه عندما عرف أن وجهتها المدينة ذاتها التى يسـافر اليها ، وانها سوف تكون بمستشفى قريب ، طبيبة أسنان . استفسر عن سبب قراءتها الشعر اجابته ، كما لو كانت بلسانه تجيب :
ـ الطب مهنتى ، والفن عزاء .

حدثها عن الشعر والشعراء ، عن القصائد واللوحات ، عـن عطش القلب الانسانى الى العدل والخير والجمال . سألته فى دهشة وانبهار :
ـ هل انت مسافر لالقاء محاضرات بالجامعة ؟
ابتسم وقال :

ـ كلا . اننى مجرد طبيب مثلك . تخصصى طب الاطفال ، وقررت أن أهاجر الى أرض المعابد وتماثيل الجرانيت والالوان التى لا يتطرق اليها زوال .

علقت على كلامه فقالت :

ـ حسنا تفعل . أعطتنا العاصمة الكثير . من جامعتهـــا تزودنا بالمعرفة ، وعلينا الان أن نشع هذه المعرفة على المحرومين منها والمحتاجين اليها أبناء الاقاليم .

هزت كتفيها واردفت :

ـ لم استجب لتوسلات ابى بالبقاء فى القاهرة . كنت سأصاب بالاحباط ، فما الشىء الكبير الذى بامكانى أن أحققه هناك ؟

وعادت الى أحلام فارسها القديم .

ومضى القطار يطوى بالرفيقين الغريبين المسافات الى حيث تنتظرهما حياة جديدة .

رقم الايداع : ٨٨/٤٨٤١
الترقيم الدولى : ٧ - ٣٧٣ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

روايات الهلال تقدم

البرتقالة الآلية

تأليف

أنتونى بيرجيس

ترجمة

محمود مسعود

تصدر : ١٥ سبتمبر سنة ١٩٨٨

هـــذه الـــروايـــة

فى داخل كل منا ملاك ..

يبحث عنه .. وينشد وجوده .. ويتمنى أن يراه دائما فى أحلى صورة .. والهام هى الملاك الذى يسكن فى قلب ماجد . الباحث دوما عن الفضيلة والذى يأمل من خلالها أن يصنع عالما مثاليا . بأن يحميها من سقطات الزمن وان يقضم الاظافر الطويلة الدامية التى تريد خدش رقتها المتناهية ..

لكن ماجدا ملاك آخر .. لا يمكن أن يخدش .. ولا أن يصارع الذئاب .. فراحت حبيبته تتسرب من بين اناملها .. لا يقدر على الامساك بها .. وعبثا حاول .. لكن .. بلا جدوى ..

ترى ماذا حدث لالهام .. عندما فقدت ملاكها الداخلى .. ؟

وماذا فعل ماجد .. العاشق المثالى فى عالم باع كل مثالياته بابخس الأسعار ؟

هذه هى الاجابات التى وضعها الدكتور نعيم عطي
روايته الجديدة .. ويالها من اجابات .



AYAT ALHILAL
476 August 1988

٧٥ قرشاً